طاهر الطناحي

الساعات الأخيرة

دار الهلال

الساعات الأخيرة

لطائفة من أعلام الشرق والغرب

بقلم

طاهر أحمد الطناحي

دار الهلال

تقديم
بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

من قديم الزمان ، كان تقديس الحياة الأخرى ــ أو تقديس غروب الروح فى العالم الآخر ــ أدبا مأثورا عن المصريين الاولين . ومن بواكير عصر التاريخ ، كان كبير آلهتهم « اوزوريس » موكلا بالشمس الغـــاربة والشموس الغاربين ، ومن هـــذه الشموس نيران آدميـــة كانت تنير ، وطلعات كانت تطلع ، وقلوب كانت تشع فى حرارتها وميض الحياة

لقد كان جميلا بأولئك الاولين أن يستقبلوا الشمس الغاربة ، فما فى استقبال الشموس الطالعة من نخوة نادرة فى طبائع الأحياء ، وكان جميلا منهم أن يزدان شاطئهم الغربى بأعظم الهياكل ، وأخلد الآثار ، فحسب المطلع الشرقى من زينتـــه انه قبلة الناظرين ، وانه غنى عن استقبـــال الذاكرين

يقول كونفشيوس حكيم الصين : « معاملتنا الموتى كأنهم موتى ، ولا شىء غير ذلك ، فقدان للعطف والوفاء ، ومعاملتنا الموتى كأنهم أحيـــاء ولا شىء غير ذلك ، فقدان للعقل والحس .. فلا هذا ولا ذاك ، ولكنه قوام بين الأمرين »

أبنـــاء الشرق جميعا ــ على ما ظهر لنا ــ عارفون بحق الغروب فى العالم الآخر ، عارفون بحق الغاربين .. فهم لا ينســـونهم كأنهم ميتون ولا شىء ، وهم لا ينافسونهم كأنهم أحياء ولا شىء ، ولكنهم يذكرونهم ويعفونهم من صراع المنافسة بين الأحياء . وعلى هذه السنّة درجت

حضارة الشرق البعيد ، وعليها فى هذه الرقعة من الارض درجت حضارة وادى النيل

نعم .. وعلى هذه السنّة ، جرى زميلنا الأديب المؤرخ «طاهر الطناحى» فى كتابه « الساعات الأخيرة » أو « ساعات الغروب » . فهو من سطره الأول الى سطره الأخير وفاء للشموس الغاربة ، وذكرى للأيام الذاهبة ، وهو فى لبابه شريعة مصرية يباركها الأولون والآخرون . ولو لم يكن فيه الا انه جزاء كريم لمن كف الموت أيديهم عن الجزاء ، لكان جديرا من الأحياء بالجزاء الحسن والثناء الجميل

فى هذه الصفحات ، صفحات أخيرة من كل سيرة .. وفى هذه السير شىء عن العباقرة والأئمة والزعماء .. وكلّهم شموس سطعوا فى سماء الحياة ، وكان منهم النور والدفء ، والهداية والرعاية ، والقوة والنهضة والرشاد والسداد

وقد بدأ الكتاب بفصل من الطبقة العالية متسائلا : « لماذا نخاف الموت ؟ » وكان من الحق أن يسأل هذا السؤال ، اذا كان الموت كله طريقا للخلود ، وبابا يطرقه أولئك الخالدون

لماذا نخاف الموت ؟.. سؤال قد أجاب عنه أناس ميتون ، وان لم يكونوا ميتين ، يوم تركوا لنا جوابهم المحفوظ فى سجل الخالدين

يقول الشاعر سفوكليس :

— ليس الموت أسوأ شرور الحياة ، فشرٌ من الموت أن تتمناه ولا تلقاه !

ويقول الخطيب شيشرون :

— لا أريد أن أموت .. ولكنى لا أبالى أن أموت

ويقول الفيلسوف طاليس :

— لا فرق بين الحياة والموت !..

فقيل له :

— ولماذا تحيا ؟..

فقال : « لأنه لا فرق بين الموت والحياة .. ! »

وغير هؤلاء قالوا غير هذا المقال ، فشاعرنا أبو الطيب يقول :

واذا الشيخ قال أفٍ فما ملَّ حياة ، وانما الضعف ملَّ

ولكنه يقول أيضا :

الف هــذا الهواء أوقع فى الأنفس

ان الحمــــــــــام مر المذاق

والأسى قبــل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعــد الفراق

والضرير البصير شــاعر اليونان الكبير ، يقول على لســان بطل من أبطاله : « لخير لى أن أعيش عبدا لأفقر الفقراء ، من أن أموت ملكا على أشباح الظلماء » .. ولكنه عاش ليصوغ آيات الثناء لمن آثروا ميتة الأبطال على عيشة الجبناء ..!

أما الذى نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها ، وانما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ، ولا تتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه فى موقف الصراع بين الغريزة والضمير ، فان الخضوع له فى هذه الحالة ضعف ، والضعف شر من الموت

***

والأستاذ طاهر الطناحى يروى عن الفيلسوف الفرنسى شارل رينوفييه تعليله لخوف الموت حيث يقول : « ان الانسان عندما يكون شيخا ، وقد اعتاد الحياة ، يصعب عليه كثيرا أن يموت ، وان الشــبان كما يرى أكثر خضوعا للموت من الشيوخ » .. كأنه يريد أن يقول ان الشبان لم تطل بهم عادة الحياة فلم يألفوها كما ألفها الشيوخ ، ولو طالت بهم لخافوا فراقها ، وخذلتهم الشجاعة عند شعورهم بالخطر عليها ..

أما الواقع كما نراه ، فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف ، والخوف أقرب الى طبيعة الضعفاء .. ولا فرق فى هذه الخلة بين الشيخ

والفتى اذا تشابها فى الضعف أو تشابها فى قلة الثقة بالحياة ..

فالمحنة كلها انما هى محنة الضعف أمام الموت ، ولا فرق بين الضعف أمام الموت والضعف أمام الحياة ، فان الحى الضعيف يهاب فى حياته أمورا كثيرة قبل أن يهاب الموت الذى يسلبه تلك الحياة ..

وأسلوب القرآن الحكيم خير الأساليب فى التعريف بموضع المذمة من حب الحياة أو كراهة الموت .. فلا ملامة فى أن يحرص الانسان على الحياة ، فلا يلقى بيديه الى التهلكة .. وانما الملامة أن يكون « أحرص الناس على حياة » .. أى حياة وكل حياة ، وبغير تفرقة بين أرفع حياة وأسفل حياة !..

***

ولكن لا ملامة على الاطلاق فى حب الحياة كما نريدها ، وبالشروط التى نرضاها ، فتلك هى القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء ..

ولست أحسب ان أحدا يهوّن على النفوس حب وجوده الا وهو مغالط فى كلامه ، اذا كان الوجود قد انقاد له بما نرتضيه نحن من شروطه ومحاسنه . ولست أذكر أن قلما جرى فى تهوين خوف الموت بأبلغ من كلام الأديب الكبير ، وليام هازليت حيث يقول : « لعل العلاج الأمثل لخوف الموت أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية ، وانه كان بالأمس زمن لم نكن فيه .. فلماذا يشغلنا اذن أن يجىء زمن لا نكون فيه ؟ »

الى أن يقول : « ما أجد فى نفسى رغبة اننى كنت حيا على عهد الملكة آن قبل مائة سنة ، فما بالى أهتم بأن أكون حيا بعد مائة سنة فى عهد من لا أدرى ما اسمه من الملوك أو الملكات ؟ »

فهذا كلام بليغ فى الأسلوب الخطابى الذى يقوم على التزويق ، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب ، فان الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده لأننى لم أكن موجودا فيه ، وبين مستقبل سأفقده لأننى وجدت فى الحاضر ، ثم انقطع بى الوجود قبل الوصول اليه .. فليس فى هذه البلاغة اقناع ، بل فيها تلطيف للواقع ومحاولة للعزاء حيث تحتاج الى العزاء

غير أننا لا نحتاج الى المغالطة ، ولا البلاغة الخطابية ، حين نفرق بين الحياة وبين كل حياة وأى حياة .. فمن يقبل الحياة بشروطه لا حاجة به الى مقنع يقنعه بأن الموت خير من الحياة التى تنعدم فيها هذه الشروط .. ومن يقبل كل حياة ، ويحرص على أى حياة لن تجديه بلاغة ، ولن تجوز عليه مغالطة فى خوفه من الموت ، كيفما كان ، وفى تشبثه بالحياة كيفما تكون

ولعلى أنصف الحياة نفسها ، اذا قلت ان خوف الموت ذو فضل عظيم على الأحياء ، وانه كما قال أبو العلاء :

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله
وعلم نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

فلا ضير أن نتقى الموت فنحيا كما ينبغى أن نحيا ، وانما الضير أن تغلبنا هذه التقية فنحيا كما لا تنبغى حياة

***

وقد اشتمل كتاب « الساعات الأخيرة » لمؤلفه الأديب المؤرخ الأستاذ طاهر الطناحى على عشرين سيرة .. ليس منها ما هو أشد اختلافا فى النشأة والتربية والمذهب والثقافة والخصال الشخصية من السيد توفيق البكرى ، والآنسة مى زيادة رحمهما الله ، ولكنهما مع هذا هما الوحيدان اللذان انتهت حياتهما بمأساة نفسية أو عقلية واحدة ، ووقفت فيما أعتقد على السبب المباشر لهذه المأساة ..

أصيب كلاهما فى أخريات أيامه بوسواس الاضطهاد ، ونزل كلاهما زمنا بمستشفى العصفورية فى لبنان ، وبدأت المأساة عندهما بصدمة مزعجة سبقتها صدمات ، ثم استحكمت جميعها حتى استعصى فيها العلاج

***

أذكر أيام اشتغالى بتحرير صحيفة « الدستور » حوالى سنة ١٩٠٨ أن السيد توفيق البكرى ذهب الى ميدان القلعة فى الاحتفال بالمحمل ،

ولم يخرج أتباعه من أصحاب الطرق الصوفية للاشتراك فى ذلك الاحتفال .. وكانت بينه وبين الخديو عباس الثانى جفوة شديدة فى ذلك الحين ، فاعتقد الخديو أن السيد تعمد منع الطرق الصوفية فى ذلك اليوم اخلالا بتقاليد الموكب التى جرى العمل عليها مئات السنين ، وسأله فى غضب : « لم لا أرى هنا مواكب الطرق الصوفية ؟ » فقال السيد ما معناه انه منعها لأنه قد حان الأوان للتخلص من هذه البدع .. فانتهره الخديو وخاطبه بكلمة قاسية ، ردها السيد بما هو أقسى منها على مسمع من جميع الحاضرين .. وترك المكان غير مستأذن ، وهو يردد كلمته فى شىء كثير من الاضطراب

أذكر بعد ذلك ان صحيفة « الدستور » كتبت تؤيد السيد فى موقفه من بدعة الاشارات والمواكب ، فأرسل السيد مبلغا من المال باسم الاشتراك فى الصحيفة ، ولكنه أكبر من قيمة الاشتراك فيها ، فأبى العالم الفاضل المرحوم الاستاذ محمد فريد وجدى صاحب « الدستور » أن يقبله ، وأعاده الى السيد بعد خصم القيمة السنوية المكتوبة فى رأس الصحيفة . وشاع فى السنوات التالية أن السيد — رحمه الله — قد ساوره الوسواس ، وأخذ يسأل كل من يلقاه عما يراد به ويدبر له فى الخفاء .. ثم تفاقم الداء حتى غطى على تلك الألمعية النيرة ، فقضت بدائها الأليم بعد عشرين سنة ونيف .. !

***

تلك مأساة السيد توفيق .. أما مأساة الآنسة مى ، فقد بدأت قبيل سنة ١٩٣٠ ، ولم تزل كامنة تتفاقم فى الخفاء حتى ظهرت بعد ذلك بسنوات ..

أذكر انها عادت من ايطاليا فى صيف احدى السنين ، وذهبت أسلم عليها بعد عودتها ، فجرى الحديث عن موسولينى وهى تعلم رأيى فيه ، ورأيى فى جميع الحاكمين بأمرهم .. فقالت لى فى اضطراب ظاهر : « لقد أضجرونا بأحاديثهم عن الدولة الرومانية ومجد الدولة الرومانية ، وتجديد

الدولة الرومانيـــة ... أليست دولتهم الرومانية هـــذه هى التى طاردت السيد المســـيح ، وأسلمته الى أعدائه ؟.. لقد قلت لهم هـــذا فى عاصمة الدولة الرومانية .. نعم قلته لهم وليكن ما يكون »

قلت : « وماذا عسى أن يكون ؟.. لاشىء ! »

نعم لاشىء كان ينبغى أن يكون من جراء هـــذا الحديث ، ولكنه قد كانت منه أشياء بعد ذلك لأنه اقترن بالحالات التى تتفاقم من جرائها أمثال هـــذه الصدمات ، فلم نلبث فترة من الزمن حتى سمعنا الآنسة تعيـــده متوجسة مضطربة ، وتسألنا : ألم نعلم أن الدوتشى يتعقبها ويريد أن ينتزعها حية أو ميتة ؟.. أليس صحيحا انهم قرروا فى ايطاليا اجراء بعض التجارب العقلية والجسدية للاستعانة بها فى أعمال التعذيب والاكراه على الاعتراف ، وانهـــا هى احـــدى الفرائس التى يقصـــدونها بالتجربة على التخصيص ..

***

حادثان مشابهان قد انتهيا بنتيجة واحدة ، ولكن كل حادث منهما يقع فى كل يوم لمئات من الناس ، ولا ينتهى بمثل تلك النهاية ، ولا بما يقاربها.. فمثل هذا الحادث لن يكون وحده سببا لوسواس الاضطهاد ، ولا سببا لاستعصاء ذلك الداء الأليم ، وانما يكون الحادث سببا مباشرا لاظهـــار أعراضه الكامنة وتفاقم شرورها وعقابيلها ، اذا أحاطت به صدمات نفسية متعددة .. ولا ســـيما اذا تجمعت تلك الصـــدمات فى السن التى يسميها الأطباء بسن الحرج ، ويسميها الفقهاء بسن اليأس فى بعض الأحيـــان climactric هذه السن تبدأ عند المرأة فى نحوالخامسة والاربعين ، وتتأخر قليلا عند الرجال فلا تبدأ عند الكثيرين منهم قبل الستين ، وقد تبكر فتبدأ فى الاربعين ..

وهذه السن ، فى أحد جوانبها ، هى انقضاء وظيفة مهمة من وظائف البنية الحية ، ولكنها من الجانب الآخر مرحلة جديدة فى الحياة الانسانية

يصحبها أحيانا صفاء فى العقل ، وسكينة فى النفس ، وقدرة خالصة على فهم الحياة بمعزل عن الأهواء ..

والمعول فى التفرقة بين الطورين ، على الحالة التى تصاحب سن الحرج .. فان أدركت انسانا وهو عامر النفس بالعطف والحنان ، مملوء الذهن بالشواغل التى توافقه وترضيه ، فذلك خير وراحة ، وان هى أدركته وهو منقطع عن العطف ، معرض للقلق ، مستسلم للهواجس .. فذلك هو الخطر الذى تخاف عقباه

***

فى حالة السيد توفيق جاءته الصدمة فى ابان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس .. جاوز الثلاثين منهوك الاعصاب مهدود البنية ، وألقاه مركزه الاجتماعى بمعترك الأزمات السياسية بين مصر ولندن والآستانة ، وحدث أن زائرا من أصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة فى باب من الغزل المحظور ، ووصلت هذه القصيدة الى المعتمد البريطانى فأغلق أمامه الأبواب فى قصر الدوبارة ، كما أغلق الخديو دونه أبواب عابدين .. وسبق الى ظنه أنه مهدد فى منصبه وسمعته ، بغير اطمئنان الى الحماية من أحد ، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الأمير ، خالطه الخوف من كل جانب ، وتوهم انه مقتول أو مسموم أو مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة ، ثم انقلبت أزمة السن أو أزمة الحرج الى داء عضال !

***

أما الآنسة مى ، فقد لحق بها خوف الاضطهاد ، وهى معرضة له مستهدفة لوسواسه وأوهامه منذ زمن ليس بالقصير .. وكانت قد بقيت وحيدة فى معيشتها بعد فقد أبيها ثم فقد أمها ، وبعد خيبة رجاء فى الحياة البيتية لم تكن تبديها ، ولم تكن مع ذلك قادرة على اهمالها . وأطبقت النكبات عليها ، وهى فى هذه العزلة ، بادعاء المدّعين وطمع المتقاضين .. فجاء اليها بعضهم — كما قال الاستاذ طاهر الطناحى — يطالبها بثلثمائة جنيه ، لأن أرضه مرهونة ، فلما طلبت أن تطلع على وثيقة الرهن أطلعوها

وضيقوا عليها فى الطلب ، وهى فى شكواها وضيقتها لا تصرح لأحد بما يثير فى نفسها هذه الآلام ..

ومن بلاء هذا الداء ــ داء الاضطهــاد ــ ان الاقناع فيه متعــذر أو مستحيل ، فاذا حاولت أن تنزعه من صاحبه سرى الشك اليه فى اخلاصك واتهمك بأنك من المؤتمرين به والعاملين على انفاذ الدسيسة فيه واجازة الغفلة عليه . وقد وقعت فى هذا الخطأ مرة ، وأنا أحسب ان الأمر أوضح من أن يقبل اللبس والخفاء ، فزرت الآنسة « مى » ورأيتها ترتجف وهى تفتح الباب ، وتشير الى المسكن الذى أمامها وتضع أصــبعها على فمها تحذرنى من الظلام . قالت : « ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النور ؟ انها خالية خاوية فلماذا ينيرونها فى هذه الساعة ؟ .. » فاتجهت الى تلك الحجرات وسألت عاملا وجدته عند بابها ، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم فى اليوم التالى ، وهو أول الشهر وأول تاريخ الايجار .. فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أننى أخفى عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين .. !

ووقع مثل هذا الخطأ مع السيد البكرى بدار الكتب المصرية ، فرأيت الشاعر أحمد نسيم يكلم السيد ، والسيد يتلفت حواليه . قال السيد : « ان الخديو يأتمر بى ، ويلاحقنى الى هنا ، ويرصد لى هــذا وذاك » وأشار الى بعض الجالسين فى حجرة المطالعة ... فقال نسيم : « ان أيام الخديو عباس قد انتهت ، فلا خوف منه عليك »

فانتفض فزعا وهو يتراجع ولا يرفع نظره عن محدثه ، وقال لى نسيم انه كان يلقاه بعد ذلك فيدير عنه بصره ولا يسلم عليه ..

رأسان لامعان ، سرى منهما النور ، وسرت اليهما النار .. واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء ، وقد سلما من الاضطهاد حقا ، ولم يسلما منه ظنا ووهما .. كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق أو بالباطل لكل عقل منير

نظرات فى الحياة والموت

الموت جانب من الحياة الدنيا .. والحياة جديرة بأن تعرف بخيرها وشرها ، بنورها وظلامها ، بهنائها وآلامها

والخير والشر نسبيان ، كما ان نور الحياة وظلامها فى الحقيقة متشابهان . وليس الهانىء الطروب ، بأسعد من المتألم المكروب ، ولا الخلىّ الباسم ، بأكثر حظا من الشجى المتشائم . وقد جئنا من العدم ، وسنعود اليه ، وخرجنا من الأموات ، وسندخل طائعين أو كارهين الى قبورهم ..

والقبر ماثل بين حياتين : حياة مادية ، ندعوها الحياة الأولى ، وحياة معنوية ، أو روحية ، ندعوها الحياة الأخرى . وهى حياة طالما اشتهاها الكثيرون اما رغبة فى ثواب ، أو خلاصا من عذاب . ولعل الموت فى عبوسه أجمل حالا من الحياة فى ابتسامها ، وأخف هولا من الأيام فى أشجانها

ما أعدل الموت من آت وأستره ... فهيجينى ، فانى غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى ... والموت أغنى بحق كل محتاج
اذا حياة علينا للأذى فتحت ... بابا من الشر لا قاه بارتاج

وفى ظلام الموت ما يبعث على اجتلاء الغوامض ، وفى عبوسه ما يحفز الى اكتناه الحقائق ، وفى آلامه ما يهذب النفس ، ويروض القلب على احتمال أعباء الحياة . وقديما كان للموت مكان من التقديس عند الفراعنة ، ينظرون اليه كغاية لهذه الحياة ، وبداءة لحياة جديدة ، فرمزوا اليه برموز عدة سميت آلهة ، كان أكبرها الاله « أزوريس » اله الموتى والموت يطهر الحياة ، كما ينقل الاطهار الى حياة أرقى . وهو فى جلاله

الرهيب ، ووقاره المهيب ، وسلطانه الشامل ، يتجلى فى أروع مظاهره ، وأبلغ عظاته ، حين يضرب أطنابه على فراش عاهل عظيم ، أو مفكر جليل

هناك ترى من روعة الموقف ، ما تقترن فيه عظمة الموت بعظمة الميت . ومن رهبة المأساة ، ما يمتزج فيه جلال المصيبة بجلال المصاب . فتشعر النفوس بأكبر وجود للفقيد ، وترى من شخصيته فى مماته ، ما حجب عنها أيام حياته ، وتفهم من معنى خلوده ، ما لا تفهمه أثناء وجوده . وكأنما الموت قد خلع عليه حياة جديدة هى خير وأبقى من هذه الحياة الاولى . قال برناردشو : « الحياة تسوّى بين الناس ، والموت يبرز فضل الفضلاء»

ونحن الأحياء نعيش فى فضل الموتى من الزعماء والأدباء والعلماء ، فقد بنوا لنا الحياة ، ومهدوا سبلها ، وأقاموا لنا صروحها ، وملأوها نورا من سماء عقولهم ، ونشروا فى أردانها عطرا من زهرات نفوسهم ، وجملوا وجهها بجمال فنونهم ، وكانوا فى الحياة أحياء بجهادهم ، وفى الموت أحياء بآثارهم .. فحق علينا أن نمجدهم فى قبورهم ، ونذكرهم فى مآسيهم ، ونتخذ من قصص مماتهم عبرة الأجيال للأجيال

واذا كانت النفس الانسانية مجبولة على حب التحول من حال الى حال ، توّاقة الى التنقل من لون الى لون ، فانها لتجد فى الحديث عن الموت بعدما سئمت حديث الحياة ، رياضة ذهنية ، ولذة روحية ، وايمانا بالتضحية فى سبيل المثل الأعلى ، ما دام هذا الحدث هو نهاية كل حى

فكرة الموت

هذا ، وقد فكر الانسان فى الموت ــ ولعله الحيوان الوحيد الذى فكر فى نهاية الحياة ــ لأنه وهب فكرا ، والفكر مخلوق متحرك لا يقف عند حد . ولأنه بما جبل عليه من حب الحياة ، وحرصه عليها ، وغرامه بها ، لا يستطيع أن يتصور لنفسه وجودا موقوتا ، لا وجود بعده ، فهو يفكر ويبحث ، ويريد استكمال هذا الوجود بعد تلك النهاية المحتومة ، ولو

كان الوجود الآخر بالذكر الخالد ، أو بالولد النابه ، أو بالروح فى حياة ثانية ليست كالحياة التى نحياها . ويستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون

وكان الانسان القديم يعتبر الموت نهاية الحياة ، وخاتمة فصلها الأليم . وكانت الأديان القديمة كالبوذية فى شكلها الاول ، لا تعنى بما بعد الموت ، وكانت القبائل البدائية تعتقد أن الموت الطبيعى لا يحدث الا بالسحر ، أو بالشيطان . وكان المرض فى اعتقادهم شيطانا يعترى الجسم ، ويريد أن يفتك به ، فيستعينون فى علاجه واخراجه بالتعاويذ . وما تزال بعض قبائل غرب افريقيا الى الآن تعتقد أن الموت « جريمة » ارتكبها بالسحر شرير من أعداء الميت . ولهذا يضعون الميت اثر موته فوق أغصان الشجر ، ويحمله أربعة رجال ، يقفون ، ثم يأتى رئيس القبيلة ، فيسأل الميت قائلا :

ـ هل كان موتك بالسحر ؟

فاذا ظل الرجال الاربعة ثابتين فى أماكنهم ، كان معنى ذلك ان الميت يجيب بالنفى .. أما ان تحركوا ، فان هذه الحركة تدل على أن الميت يتألم ويشكو لأنه مات بالسحر . على انهم فى بعض الاحيان يعتقدون أن الميت هو الذى ارتكب جريمة الموت اذا كان ساحرا ، لأن عمله ينقلب عليه ..

وبعض العامة فى بلادنا يخشون على أطفالهم وأقاربهم من الموت « بالعين » وينسبون اليها كثيرا من حوادث الموت . وتأثير العين عندهم ، كتأثير السحر عند تلك القبائل

سيد الحياة

ولم يفكر قدماء المصريين قبل عهد الاسرات فيما بعد الموت . وكان اعتقادهم فى الموت ، لا يختلف عن اعتقاد الأمم البدائية من انه نهاية كل حى . ونصيب الانسان فى هذه النهاية كنصيب النبات ، يذوى ويموت ، ثم يندثر ويتحلل الى العناصر الأولى . ولما ارتقت حضارتهم ، وتقدمت حياتهم العقلية صاروا يعتقدون انه انتقال من حياة الى حياة ، ومن ظلام بشرى ، الى نور الهى ، حتى أطلقوا على تابوت الموتى اسم « نبعنخ »

ومعناه « سيد الحياة » ، وأطلقوا على القبر « حت نت نحح » أى «قصر الابدية » ، وعلى الميت اسم «اوجا ان عنخ» أى « الذاهب الى الحياة » ، وكذا « حتب ام عنخ » أى « المستريح فى الحياة »

والانسان عندهم يتكون من شيئين « خعت » وهو الجسم ، و « با » وهو الروح . ولكل انسان قرين يدعى « كا » يتشكل بشكل الجسم ، ويبقى حيا مع الميت فى قبره . ومن أجله وضعوا فى القبر الأطعمة التى كان يهواها فى حياته ، والأدوات التى يستعملها ، ظانين انه متى ترك وحيدا اعتراه الجوع والظمأ ، وهاجمته وحوش مخيفة تهدده بموت آخر .. فاذا نليت الدعوات ، وأقيمت الصلوات على الميت ، نال بسببها الطعام والشراب والأدوات ، ودفعت عنه الآلهة هذه الوحوش

بقاء الروح

ثم ارتقت فكرتهم عن الحياة الاخرى ، فأصبحوا يعتقدون أن أعمال الانسان فى حياته الاولى هى التى تضمن له السعادة ، أو تؤدى به الى الشقاء بعد الموت . وهذه الاعمال تعرض على مجلس مؤلف من ٤٢ قاضيا يرأسهم الاله « أزوريس » اله الموتى . وهناك ميزان توزن به أعمال الميت ، فمن رجحت موازينه نجا وفاز بالسعادة الباقية ؛ ومن خفت موازينه لقى العذاب الأليم . وقد اعتقدوا ان جوارح الانسان فى الآخرة تشهد عليه ــ وجاء ذلك فيما بعد فى الدين الاسلامى ــ قال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »

ومن دعوات قدماء المصريين الدينية المأثورة : « يا قلبى .. يا قلبى الذى يأتى من أمى .. قلبى الذى كنت به فى الارض ، لا تكن شاهدا على ، ولا تختصمنى ، لأنك رئيس قدسى .. ولا تتهمنى بشىء أمام المعبود الكبير »

وقد قال ماسبرو ــ ونقل عنه المرحوم أحمد كمال باشا ــ : ان أغلب المصريين القدماء كانت لهم معرفة قليلة بما يؤول اليه « كا » بعد الموت . ومبلغ علمهم فى أمره انه متى دخل القبر استقر وعاش فيه ، ولا يفارقه الا طلبا للزاد والقوت .. فاذا خرج من جدثه ، هامَ فى القرى ، وألقى بنفسه

على المآكل ، وحسد الأحياء ، وتعمد الانتقام منهم بسبب اعتزالهم له . فيأخذ فى ازعاجهم ، واصابتهم بالأمراض ، وقد يضر بعض النـاس بلا سبب اذا كان رديئا ، فتحمله رداءته على ايذائهم ، حتى ذوى القربى

واستدل على ذلك بما قيل عن كاتب مصرى يدعى « كيبى » كانت زوجته « عنخارى » تأتيه بعد موتها كل ليلة ، ويظهر شبحها له فى شكل مخيف ، فيتفنن فى تعذيبه ، مع انه كان بارا بها فى حياتها ، وفيا لها بعد مماتها ، فأقام لها مأتما عظيما ، وأوقف للصدقة عليها عقارا كبيرا . فلما استمرت فى تعذيبه عدة أشهر كتب لها رسالة قال فيها :

« منذ تزوجتك لم أسىء اليك ، ولم أفعل منكرا يغضبك .. فما جوابك اذا وقفنا أمام « أزوريس » وقضاة الآخرة ، وقضوا عليك بالعقاب . ثم ماذا يكون اعتذارك ؟ »

وأمضى الرسـالة ، وعلقها فوق تمثال من الخشب ، فخافت الزوجـة « الكا » سوء العاقبة . و « كا » عندهم من الارواح مثل « با » . وهناك روح ثالث يدعى « خو » أى المنير ، فللانسان فى اعتقادهم ثلاثة أرواح

***

وسواء أكانت الروح واحدة ، أم متعددة ، فان القصـة السـابقة من الحوادث الواقعيـة التى تؤيد ما يذهب اليه علمـاء « الاسبرتزم » أى المباحث الروحية فى العصر الحديث مثل : كاميل فلامريون ، واولفرلودج ، ووليم كروكس ، وغيرهم ممن يعنون بالتجارب الروحيـة ، لاثبـات ان للانسان حياة أخرى ، وان روحه باقية بعد موته ، ويمكن الاتصال بها ، وان هذا الموت الذى يعترى الجسم ليس فناء نهائيا ، بل هو انتقال من عالم مادى الى عالم روحى خالد

وقد كانت فكرة البعث والجنة والنار موجودة عند قدماء المصريين ، قبل الأديان الحديثة بآلاف السنين ، وكذلك الحساب ، والميزان الذى توزن به الاعمال لتقرير المصير ، فاما الى النعيم ، واما الى الجحيم . وفى بعض النقوش والرسوم التى وجدت على الاحجار ، أو فى الأوراق البردية

رمز الجنة والنار ، فترى الأطعمة موضوعة فى مجلس « أزوريس » اشارة الى الجنة ، والأسد رابضا متحفزا اشارة الى النار

والجنة عندهم قائمة فى مكان خصيب يانع الثمر ، يبلغ ارتفاع القمح فيه سبع أذرع ، وطول السنبلة وحدها فيه ذراعان ، ولا شاغل لسكان الجنة سوى التمتع باللذات

***

وقد جاءت الأديان الحديثة بتأييد الحياة بعد الموت .. بل من القواعد الرئيسية فى الاسلام ، الايمان باليوم الآخر مع الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . وتحدثت الكتب المقدسة عن الروح ، ووصفت الحياة الاخرى وما يجرى فيها ، وما سوف يناله الصالحون من جنة ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ... وما يلاقيه المجرمون من نار « وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون »

وقد شايع الفلاسفة العقليون الأديان الحديثة فى ثبوت الحياة بعد الموت . أما الفلاسفة الماديون ، فيعتقدون انه لا فرق بين النبات والانسان فى العدم . ويستدلون بالخوف الطبيعى من الموت ، على الفناء النهائى الذى يلحق الانسان بموته دون أن تتلوه حياة أخرى ، ويقولون انه اذا كان هناك حياة أخرى لما جزع الانسان من الموت هذا الجزع العظيم

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

لكن الفلاسفة العقليين يردون على ذلك بأن الخوف من الموت ناشىء عما جبل عليه الانسان من حب الخلود

وهذا الحب الذى يشعر به على الدوام ، يدل على شعوره الخفى بأن هناك وجودا دائما قدره الخالق للروح ، والا لما أحس الانسان هذه الرغبة الشديدة فى الحياة ، وهذا الشوق القوى الى البقاء . أما تعلقه بالحياة الاولى فهو لعمران الارض ، ولفائدة المجتمع ، ثم لأنه يجهل

الموت ، أو يخاف ألمه ، ويستوى فى هـذا الاحسـاس الطبيعى العالم والجاهل ، والكبير والصغير ، والصالح والطالح

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله
وكلف نوحا وابنـه عمـل السفن

وما اسـتعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعـده جنتى عدن

لماذا نخاف الموت ؟

« ليت عندى من القوة ما يمكننى من تحريك القلم ، حتى أشرح سهولة الموت ولذته .. ! »

ذلك ما قاله العالم الانجليزى الكبير « وليم هنتر » وهو على فراش الموت يجود بنفسه الاخير . ويبدو للقارىء ــ لأول وهلة ــ ان هــذا العالم لايعنى الواقع ، وانه يريد باللذة ما يشعر به من الخلاص من أعباء الحياة الثقيلة . أما الجسد، فانه يتألم بخروج الروح ، ويتعذب بسكرات الموت ، لأن الانسان قد فُطِر على الخوف من الموت ، وتخيله شبحا هائلا مروعا ، يقبل فى ظلام ، وينزل بالأهوال والآلام ، فيجفل من ذكره ، ويشعر فى أعماق نفسه بكرهه ، ويلتمس النجاة منه الى الأبد لو استطاع الى ذلك سبيلا ..

والخوف من الموت عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب ، لأن الشيخ اعتاد الحياة ، ومن اعتاد شيئا ألفه ، وان كان فيه ما يؤلمه ..

واذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ حياة وانما الضــعف ملاَّ

وقد قال الفيلسوف الفرنسى « شارل رينوفييه » قبيل موته بأيام ، وكان قد بلغ الثامنة والثمانين :

« عندما يكون الانسان شيخا ، وقد اعتاد الحياة ، يصعب عليه كثيرا ان يموت . وأرى ان الشبان أكثر خضوعا للموت من الشيوخ ، فانه حينما يجوز الانسان الثمانين يصبح جبانا ، ويكره أن يموت ، ومتى تحقق دنو أجله تحزن نفسه وتتململ . وقد درست هذه المسألة من كل وجوهها ، وراجعت فى ذهنى مرارا علمى بدنو أجلى ، ومع ذلك لم أتمكن من أن أقنع نفسى بأنى ميت عما قليل . ليس الذى يهلع فى نفسى من الموت هو

« الفيلسوف » لأن الفيلسوف لايصح أن يخاف الموت ، بل « الانسان القديم » هو الذى يخافه ، فهذا الانسان لا شجاعة له ، ليذعن ، مع انه يجب أن يذعن لما لابد منه »

نعم .. الانسان القديم هو الذى يخاف الموت ، ويتوهم انه مؤلم .. ونحن انما نخاف الموت بهذا الشعور الوراثى القديم .. أما الموت فى حقيقته ، فليس جديرا بأن نخافه هذا الخوف العظيم ..

ونحب أن نتكلم عن الخوف أولا وعن منشئه .. وللقدماء والمحدثين فى ذلك آراء كثيرة ، وهو على كل حال يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور . ولكن لماذا نتوقع المكروه وننتظر المحذور ، وهما من الأمور الممكنة التى تحدث أو لا تحدث ؟

والجواب عن ذلك ، ان الانسان وجد فى هذه الحياة وهو محوط بكثير من القوى الطبيعية التى تغالبه ، وأنواع الحيوان التى تنازعه البقاء . وكان لابد له — وقد فطر على حب الحياة كما فطر عليها كل حى — أن يكافح هذه القوى المختلفة ، فاما غلبته واما تغلب عليها . وقد ذهب ضحية هذا الكفاح بين الطبيعة والانسان ، وبين الانسان والحيوان ، أرواح انسانية كثيرة تعذبت وتألمت، وفقدت هذه الحياة التى كانت تحرص عليها وتكافح من أجل الاحتفاظ بها

ورأى الانسان ما حلّ بأخيه الانسان من هذه الحوادث المحزنة ، وذاك الصراع المؤلم .. وشاهد قبل تحضره ، كيف تنتهز الوحوش غفلته فى الظلام وفى الأماكن الموحشة فتفترسه ، أو تخطف أطفاله ، أو تغتصب مادة حياته ، فنشأ عنده الحذر منها ، وأصبح يخشى أن يقع فريسة لها ، وصار يتجنب السير فى الظلام وفى الأماكن الخالية ، وجعل يحذر أطفاله من السير ليلا أو فى تلك الأماكن حتى لا يعرّضوا أنفسهم لافتراس الوحوش . وروى لهم القصص المخيفة ليزيد فى تحذيرهم ، فرسخ هذا الحذر فى نفوسهم ، وانتقل الينا بواسطة العقل الباطن .. فورثناه نحن فيما ورثناه من طباعهم وأخلاقهم ، وأصبحنا على الرغم من وسائل الأمن

المختلفة نخشى الانفراد حتى فى الأماكن المعمورة ، ونستوحش من الظلام حتى فى غرفتنا الخاصة ، وتهز أعصابنا الخيالات القديمة التى كان يتخيلها أسلافنا ، والتى انتقلت الينا فى عقلنا الباطن ، وهى فى الحقيقة أوهام باطلة لا يحسن التسليم بها ..

ولكن بقيت هنـاك أمور يخافهـا الانسان غير الظـلام ، والأماكن الموحشة ، كفوات مطمع من المطامع أو ضياع شىء عزيز عليه . وأساس ذلك الخوف التشاؤم والأنانية وحب النفس وكثرة التفكير فى الاخفاق وعواقبه ، ولو أن الانسان استشعر دائما التفاؤل ، وشغل نفسه بالأمل القوى والتفكير الصالح ، واطمأن الى انه ناجح فى كل عمل يزاوله وفى كل مشروع يقدم عليه ، اذن لما وجد سببا للخوف من فوات مطمع أو ضياع شىء منه ..

على ان كل أمر يخافه الانسان اما أن يقع أو لا يقع .. أى ان وقوعه وعدم وقوعه من الممكنات التى تتساوى ، فلماذا يرجّح وقوع ما يخافه على عدم وقوعه ؟.. وقد أحسن من قال :

وقل للفـؤاد ان ترى بك نزوة من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

***

ولكن هناك أمرا يخافه الانسان ، وهو لابد واقع ــ وهو الموت ــ فلماذا يخاف الانسان الموت ؟.. وكيف نعالج هذا الخوف ؟

يخاف الانســـــان الموت لأنه يجهل الموت ، ولا يدرى ما هو على الحقيقة ، ولا يعلم الى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن للموت ألمـا شديدا غير ألم الامراض التى قد تتقدمه وتؤدى اليه ، أو لأنه يعتقد انه ستحل به عقوبة بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفـه من المـال والمقتنيات

والسببان الأولان عامان عند جميع الناس ، فكل انسان يخاف الموت لأنه يجهل حقيقته ويجهل مصيره ، ويظن ــ بل يعتقد ــ أن للموت ألما شديدا غير ألم الامراض التى تتغلب على الجسم وتفقـده الحياة . أما

السببان الآخران فقد يكونان عند بعض الناس دون بعضهم الآخر ... ففريق منهم يؤمن بالعقوبة ويخافها ، ويخاف الموت لأجلها .. وفريق منهم لا يؤمن بها ، ولا يعتقد انه سيعاقب بعد الموت ، كالدهريين والملحدين مثلا ، ولكنهم يخافون الموت أيضا . وكذلك الأسف على المال والمقتنيات ليس عند جميع الناس .. فقد يموت الشخص ، ولا مال عنده ولا ثمين لديه يقتنيه ، ومع ذلك فهو يخاف الموت أيضا ولو كان معذبا بالحياة ، ولو لم يكن عنده شيء يأسف على فراقه (١)

الموت لا يخيف

والخوف لهذه الاسباب كلها لا يصح الاقتناع به .. وينبغى ألا يقع الانسان فريسته ، لأن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها ــ أى الأعضاء التى تسمى فى مجموعها بدنا ــ كما يترك الصانع استعمال آلاته . والنفس جوهر غير جسمانى ، وهى ليست قابلة للفساد . ويؤيد هذا الرأى من الوجهة العلمية فى العصر الحديث علماء الأرواح .. فقد برهنوا على بقاء الروح بعد مفارقة الجسم ، وامكان مخاطبتها بتجارب واقعة وحوادث مشاهدة يغلب على الظن تصديقها ، بل قد تضطر الانسان الى تصديقها فى بعض الأحيان ، وقد أصبحت عند هؤلاء العلماء من الحقائق الثابتة التى لا جدال فيها ..

فاذا كنت تخاف الموت لأنك تجهله وعلمت هذه الحقيقة ، هان عليك الموت .. واطمأننت الى هذا المصير الذى تتخلص الروح فيه من أدرانها الجسمانية ومتاعبها الدنيوية ..

أما اذا كنت تخاف الموت لأنك تعتقد أنه يؤلم ألما شديدا ، غير آلام الأمراض التى تتقدم الموت ، فهذا اعتقاد لا أساس له .. لأن الألم يكون للجسم الحى المحتفظ بأثر الروح . والجسم انما يحس ويشعر عن طريق هذا الروح .. فاذا صدم ، أو جرح ، أو حدث له حرق ، أو مرض ، تألم لأن احساسه موجود بوجود روحه . أما الموت فانه زوال لهذا الاحساس ،

(١) استعنا فى بعض ذلك برسالة عن الخوف من الموت للفيلسوف « ابن مكسويه » أحد فلاسفة القرن الرابع الهجرى

وفراق لما كان يحس به ويتألم .. فالمحتضر لا يشعر بالألم عند مفارقة الروح ، ويؤيد ذلك استسلامه وهدوءه ساعة خروج الروح ، فلا ترى له حركة ، ولا تسمع له تأوها ولا أنينا ، كما كنت تشاهد ذلك منه قبل سكرات الموت . ولهذا فان أى مرض من الامراض ـ مهما قل شأنه ـ يشعر الانسان بألمه لبقاء روحه فى الجسم ، وهو جدير بأن يخافه الانسان لا أن يخاف من الموت

أمامن يخاف الموت لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعده ، فليس فى الحقيقة يخاف الموت وانما يخاف العقوبة . ومن اعترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات ، فهو خائف من ذنوبه لا من الموت . ومن خاف العقوبة فالواجب عليه أن يحذر الذنوب ..

أما من زعم انه يخاف الموت ، حزنا واشفاقا على من يخلفهم من أهله وولده وماله ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها .. فهذا الذى يحزن هذا الحزن ، ويأسف هذا الاسف ، انما هو أنانى محب لذاته .. واذا تذكر أن فى الحياة الى جانب هذه اللذة والمتاع آلاما مختلفة ومفاجآت متنوعة ، ومتاعب تنغص عليه هذه الملاذ ، ثم اذا تذكر أن كثيرا ممن سعدوا فى هذه الحياة بأموالهم وأولادهم قد فارقوا هذه الحياة ، وان من بقى منهم لابد له من هذا المصير ، وان جميع من فى الارض فى تلك النهاية سواء .. نقول اذا تذكر ذلك كله هان عليه الموت ، واحتقر هذه الحياة ، وثنى من عنان حرصه وطمعه ..

وبعد .. فهل تجد بعد ذلك سببا وجيها للخوف من الموت ؟.. وهل تظن انه مؤلم حقا ؟..

انك اذا استعرضت ما أسلفناه وآمنت به ، فلست تجد فى الموت ما يخيف ، ولست ترى ما كان عندك من الخوف الا وهما باطلا . وقاتل الله الوهم ، فانه يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيدا ، والمأمن مخافة ..

قال جوته الشاعر الالمانى ، وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير:

« زيدونى نورا .. زيدونى نورا »

الحب والموت

لعل الحب والموت يجتمعان فى أن كلا منهما لايعرف كنهه ، وانهما سر من أسرار الكون .. واذا حاول أحد أن يعرف الموت ، فغاية ما يستطيعه أن يعرفه بأعراضه ان كانت له أعراض ، أو بأسبابه ان كانت له على الدوام أسباب . وكذلك الحب ، فلم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التى تجرد العاشق من شعوره بشخصيته ، وتهون عليه فى سبيل هواه كل شىء حتى الموت ، بل قد يستعذب الموت ويطلبه ، أملا فى النجاة ، أو رغبة فى أن يجمع الله بينه وبين من يحب فى عالم الارواح ، اذا كان قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة فى عالم الأجسام ..

وقد عرّف بعضهم الحب بأنه مرض وسواسى ، يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور . وعرفه بعضهم بأنه طمع يتولد فى القلب ، ويتحرك وينمو ، ثم يزدهر ، وتجتمع اليه الأنانية والحرص .. وكلما قوى ، ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج والتمادى فى الطمع حتى يؤدى به الى الغم والقلق ، فيكون احتراق الدم عند ذاك ، باستحالته الى السوداء .. ومن غلبته السوداء فسد فكره ، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لايكون ، وتمنى ما لايقع ، والهيام فى وادى الخيال والأحلام

واذا أصاب العاشق اليأس فقد يقتل نفسه ، أو يموت غما . وقد يرى محبوبه فجأة أو بعد غياب طويل فيتأثر ويموت فرحا ، أو يشهق شهقة تصعد فيها روحه . أو يبلغه أنه قد مات ، فيصعق بنعيه ويموت حزنا . أو يهجره المحبوب ، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه ، ويميته بأوهى الامراض . بل قد يمتزج العاشقان امتزاجا روحيا ، فيصبحان شيئا

واحدا اذا شطر النصف مات النصف الآخر ، كما قال العباس بن الأحنف :

خلط الله بروحى روحهـا
فهما فى جسدى شىء أحد
بهما يحيا اذا ما اصطحبا
فاذا ما افترقا مات الجسد

ذكروا أن فتاة عربية هويت شابا .. فكانت تبذل له الأموال ، وهامت به هياما شديدا ، حتى لم تستطع فراقه . فكلفت مصورا رسم صورته ، ففعل ، فجعلت تجلس الى الصورة كلما غاب عنهـا الشاب ، وتحادثها وتأنس بها . ثم مات الشاب ففجعت بموته ، ورجعت الى الصورة ، فما زالت تقبلها وتبكى الى أن أمست فباتت الى جانبها ، فلما كان الصباح دخلوا عليها فوجدوها ميتة ويدها ممدودة على الجدار ، وقدكتبت عليه:

يا موت دونك روحى بعـد سـيدهـا
خـذها اليك فقـد أودت بمـا فيـها
أسلمت روحى للرحمن مسـلمة
ومت موت حبيب كان يعصـيها
لعلهـا فى جنـان الخلد يجمعهـا
يوم الحسـاب ويوم البعث باريها

وقد روى فيلسـوف الاندلس على بن حزم ، ان جارية كانت لبعض الرؤساء ، فعزف عنهـا لشىء بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السـخط ، فباعها .. فجزعت لذلك جزعا شديدا ، وما فارقها الأسف والنحول ، ولا بان عن عينيها الدمع حتى ماتت بعد فراقها له ببضعة أشهر . قال : وقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولا ورقة ، فقالت لها : « أحسب هـذا الذى بك من محبتك لفـلان » . فتنفست الصعداء ، وقالت : « والله لا نسيته أبدا ، وان كان جفانى بلا سبب » .. وما عاشت بعد هذا القول الا يسيرا ..

قال : « وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجا بعاتكة

بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ، وكان الزوجان فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، تغضب كلا منهما الكلمة التى لا قدر لها ، فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، حتى توفى أخى وهو ابن اثنين وعشرين عاما ، فما انفكت منذ توفى عن الحزن العظيم ، الى أن ماتت بعده بعام فى اليوم الذى مات فيه . ولقد أخبرتنى عنها أمها ، وجميع جواريها ، انها كانت تقول بعده : « ما يقوى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته الا تيقنى ألا يضمه وامرأة مضجع أبدا ، فقد أمنت هذا الذى ماكنت أتخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به»

وطلب المتوكل مؤدبا لولده ، فذكروا له الجاحظ ، فلما دخل عليه استقبح صورته ، وأمر له بعطاء وصرفه . فلما خرج لقى فى طريقه محمد ابن اسحق بن ابراهيم الموصلى ، وكان مسافرا الى مدينة السلام ، فدعاه الى الانحدار معه فى « حراقته » ، وكانت دجلة فى غاية الزيادة والمد ، فدعا محمد بالغداء ، ثم أمر بالنبيذ والغناء ، ومد الستارة بينهما وبين جواريه ، فغنت جارية هذين البيتين :

كل يوم قطيعـــــة وعتـــــاب
ينقضى دهرنا ونحن غضـــــــاب
ليت شعرى أنا خصصت بهـــــذا
دون ذا الخلق أم كذا الأحبـــــاب

ثم سكتت ، فأمر الطنبور ، فغنت :

وا رحمــة للعاشقينـــا
ما ان أرى لهمو معينا
كم يعــذلون ويهجرو
ن ويبعدون فيصــبرونا

وتراهمــــو ممـــا بهم
بين البــرية خاضــعينا
يتعـــــــذبون ويظهرو
ن تجلــدا للعاشــقينا

فقالت لها العوادة : يا فاجرة ، ماذا يصنعون ؟

قالت : يصنعون هكذا .. قال الجاحظ : « وضربت بيديها فى الستارة فهتكتها ، وبدرت علينا كالقمر ، ثم ألقت بنفسها فى الماء . وكان على رأس محمد بن اسحق غلام رومى الجنس يضاهيها حسنا وجمالا ، وبيده مذبة ، فلمــا رأى ما صنعت الجارية ، ألقى المذبة من يده ، وهرع الى الموضع الذى طرحت نفسها فيه قائلا :

لا خير بعدك فى البقاء والموت ستر العاشقينا

وألقى بنفسه فى اثرها ، فأدار الملاح « الحراقة » ، فاذا بهما يطفوان متعانقين، ثم غاصا ، فلم يُرَ أحد منهما.. فاستعظم محمد ذلك وهاله الأمر، وقال : يا عمرو ، لتحدثنى حديثا تسلينى به عن فعل هذين ، والا ألحقتك بهما ، فحضرنى حديث يزيد بن عبد الملك ، وقد قعد للمظالم ، فدخل عليه فتى ، فقال له : « ان رأى أمير المؤمنين تخرج جاريته فلانة لتغنى ثلاثة أصوات »

فاغتاظ يزيد وقال له : « ما الذى حملك على هذا ؟ » ، قال : « الثقة بحلمك والاتكال على عفوك » ، فأذن له ، ثم أمر بحضور الجارية ، فقال لها الفتى غنِّى :

أفاطم مهــــلا بعض هـــــذا التـــدلل
وان كنت قــد أزمعت هجرى فأجملى

فغنت ، فقال يزيد : قل الثانى ، فقال لها غنى :

تألق البرق نجــديا فقلت له يا برق انى بروحى عنك مشغول

فغنته الجارية ، فقال يزيد : قل الثالث ، فقال : « تأمر لى برطل من شراب » فأمر له به ، فلما شربه أشار اليها بأبيات ، فغنتها ، ثم نهض فوثب

على قبة ليزيد ، فرمى بنفسه على دماغه ، فمات ، فقال يزيد : « انا لله وانا اليه راجعون ، أكان الاحمق يظن انى أخرج اليه جاريتى تغنيه وأردها الى ملكى . يا غلمان خذوا بيدها ، واحملوها الى أهله ان كان له أهل ، والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه ، فانطلقوا بها الى أهله ، فلما دخلت الدار رأت حفرة فجذبت نفسها من بين أيديهم ، وقالت :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت

وألقت نفسها فى الحفرة على دماغها فماتت ..

***

ومن الطرائف الفكهة التى حكاها بشار بن برد عن الحب والموت ، ان حمارا له مات ، فرآه ذات ليلة فى المنام ، فقال له بشار : « ويلك مالك مت ؟ ! »

فقال الحمار : « لأنك ركبتنى يوم كذا ، فمررنا بباب الأصبهانى ، فرأيت اتانا جميلة عند بابه ، فعشقتها ، ومت .. »

قال بشار : وأنشدنى حمارى ما يأتى :

سيدى شمت أتانا عند باب الاصبهانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سل جسمى وبرانى
ولها خد أسيل مثل خد الشيفرانى
فبها مت ولو عشـ ـت اذن طال هوانى

فقال له رجل من القوم : « يا أبا معاذ ، ما الشيفرانى ؟ » قال : « هذا من لغة الحمير ، فاذا لقيتم حمارا فسلوه .. »

وهذه القصة الفكاهية التى يزعمها بشار بن برد ، وينظم لها شعرا ينسبه الى حماره مع ما فيها من تهكم بجنون العشاق ، تعود الى ما يحدث بين الحيوان من غم الفراق كما يحدث بين بنى الانسان . والمعروف ان بعض الحيوان اذا مات قرينها أو ماتت قرينته اعتزل الطعام وأسلم نفسه

للجوع حتى يموت ، فما بالك بالانسان اذا استولى عليه الحب ، وتحكم فيه الهيام

وقصة روميو وجوليت ، وقصة مجنـــون ليلى ، وغيرهما ، ترجع الى حقيقة لاشك فيها .. وهى ان الحب يفعل فى النفس وفى الجسم ما يفعله المرض . واذا صح انه فى كنهه مرض من الامراض ، فلا عجب أن يموت به العشاق كما يموت الناس بسائر الامراض ، وأنت ترى رجلا يموت بالسكتة القلبية لحزن ، أو غضب ، أو ضعف ، فليس عجيبا أن يموت عاشق لموت معشوقه ، أو لخيانته وهجرانه ، أو لشدة وجده بمن يحب ، فتصبح روحه معلقة فى خيط رفيع لا تقوى فى محنتها على أبسط الأشياء

وليس فى الدنيا أقرب الى الموت من العاشق فى فرحه وأشجانه ، وفى ألمه وسلوانه ، وفى ضـــعفه وقوته ، وفى جبنـــه واقدامه ، وفى أنانيته وتضحيته ، وفى استهانته بالحياة وحبه لها ، ما دام يعلم ان فى الموت رضاء محبوبه ، أو قربه منه ، أو فوزه بوصاله . فهو مؤثر له لأنه يراه شفاء لنفسه ، ودواء لقلبه ، ونجاة من جحيم الحياة ، أو فداء لمن يرجو لها حياة هانئة ، وحظا سعيدا لا شقاء فيه ولا آلام

طاهر الطناحى

الباب الأول

نوابغ من الشرق

الفصل الاول

النبى محمد

صلى الله عليه وسلم

مالت الشمس نحو الغروب وآذنت بمغيب ، وتجهم الكون فى ذلك اليوم الصائف منذرا باقتراب حادث رهيب . وشعر المسلمون فى المدينة وما تبعها من آفاق شعورا حزينا يخالطه الخوف والجزع ، ويساوره الاشفاق والفزع ، وكأنهم مقبلون على رزء أليم ، وتساءلت القلوب والنفوس عما تجد من قلق ، وما تحس من بأس . وقد كانت مطمئنة مغتبطة بما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من نصر مبين ، وفتح للاسلام عظيم

وكان اليوم يوم عائشة من زوجاته عليه السلام . وكانت تعانى من الصباح ألما فى رأسها ، واكتئابا فى نفسها ، وأقبل لزيارتها فى الاصيل والدها الصديق أبو بكر ، فشكت اليه ما تشعر به وما تعانيه ، فواساها مواساة الأب الرحيم لابنته العزيزة ، ونصحها بالراحة ، وتناول بعض العقاقير .. وبعد ساعة خرج لشأنه ، وهو يدعو لها بالشفاء ويوصيها بالصبر الجميل حتى يزول عنها ما تشعر به من الآلام . ولكنها ما كادت تخلو لنفسها طويلا حتى عاودها « الصداع » فى حال شديدة ، فصارت تئن وتتأوه فى صوت مسموع .. وبينما هى كذلك ، اذ طلع عليها النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمعها تئن قائلة :

ـ وا رأساه .. وا رأساه .. !

فأقبل عليها فى رفق وحنان .. حنان الزوج الوفى البار ، ورفق الرسول الكريم ، وكان عليه السلام قد بدأ يحس فى ذلك اليوم نفسه ـ ومنذ

الصباح أيضا ــ بألم فى الرأس ، وبحرارة الحمى تنساب فى بطء الى جسمه الشريف ، ولكنه كان يكتم آلامه ، ويغالبها بقوة صبره وايمانه . فلما رأى عائشة تتألم وتتوجع أوسع لها من رحمته ، وأراد أن يشعرها بمشاركته لها فى الألم ، فقال لها :

ــ بل أنا والله يا عائشة وا رأساه

فلما سمعت عائشة شكوى الرسول جزعت جزعا شديدا ، ونسيت ما تحس به من آلام .. فانه عليه السلام ما شكا من داء طول حياته ، ولا نأوه يوما من ألم ، وقد جاهد ما جاهد فى سبيل الله ، وقام بالدعوة لدينه فى تعب وعناء ، وحمل ما حمل من شدائد ، فما وهنت قوته ، ولا ضعفت عزيمته ، ولا استسلم لمرض ، فماذا به اليوم ، وقد صارحها بما لم يصارحها به من قبل ، وشكا مما لم يعتد أن يشكوه ؟.. هل كان يريد أن يشعر عائشة بالتأسى والتصبر حين تسمعه يتألم ، ويشاركها فى آلامها ، أم اقتربت الساعة .. ساعة الفراق ودنا أوان الوداع ؟..

ورأى الرسول عليه السلام ما أصاب عائشة من فزع وجزع حين سمعت توجعه ، فأشفق عليها وجعل يلاطفها كعادته ، ثم ابتسم وأراد أن يسرى عنها ، فقال لها فى دعابة :

ــ وما ضر يا عائشة لو مت أنت قبلى ، فقمت اليك فكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك .. !

فأجابت عائشة :

ــ ذلك يا رسول الله خير ما أتمناه .. لا جعلنى الله أرى يومك ..!

وسكتت قليلا ، ونظرت الى وجهه عليه السلام ، فوجدته يبتسم ، وعرفت دعابته فابتسمت ، وغلبتها طبيعة الانثى وغيرة الزوجة ، واستيقظ فيها حب الحياة والحرص عليها مع زوجها رسول الله دون غيرها من زوجاته ، فقالت له رضى الله عنها :

ــ ليكن ذلك حظ غيرى من زوجاتك يا رسول الله .. والله لكأنى بك وقد رجعت بعد دفنى الى بيتى ، فأعرست فيه ببعض نسائك .. !

فابتسم الرسول وقال لها :

ـ يا عائشة .. ما عند الله خير وأبقى .. !

فسكنت نفس أم المؤمنين ، واطمأنت الى وجوده معها ، ونسيت بدعابته ولطفه وطيب حديثه ما كانت تشعر به من مخاوف وآلام . ثم جاء وقت الصلاة ، فخرج الى المسجد .. وخرجت الى حيث تصلى مع أمهات المؤمنين والمؤمنات . ولما انتهت الصلاة عادت الى بيتها وخلت الى نفسها ، فعادت اليها المخاوف ، وذكرت تعريض رسول الله باقتراب أجله ، وتذكيره لها بما عند الله ، وانه خير وأبقى . وكان رسول الله بعد عودته من حجة الوداع الى المدينة ، قد اعتاد أن يلمح فى بعض الاوقات باقتراب أجله ، وقد نزلت عليه أثناء تلك الحجة هذه الآية الكريمة :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشونى . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

***

وكان الله قد أتم نعمته على نبيّه وعلى المسلمين بالنصر المبين ، والفتح الاكبر ـ فتح مكة ـ الذى قبلت بعده سائر قبائل العرب أفواجا ، أفواجا يدخلون فى دين الله ، ويدينون لمحمد بالعهود والمواثيق ، وقد صدق الله وعده وأعز جنده

وخرج رسول الله فى السنة العاشرة للهجرة ـ بعد هذا الفتح بعامين ـ ليحج بيت الله بمكة مع جموع المسلمين ، فاجتمع وراءه مائة وعشرون ألفا من المهاجرين والانصار وغيرهم من وفود القبائل العربية ، وولى على المدينة فى غيبته صحابيا كبيرا حسن الرأى والتدبير هو « أبو دجانة الانصارى »

وكان مع النبى أهله ونساؤه ، وقد ركب ناقته « القصواء » فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ، وسار بهذا الجمع الزاخر تحدوهم رعاية الرحمن ، ويعمر قلوبهم صادق اليقين والايمان ، وتملأ نفوسهم

الغبطة بالمسير الى بيت الله الحرام .. حتى اذا بلغوا «الحُلَيفة» بضم الحاء وفتح اللام ، نزلوا عن ركائبهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبحوا ، فأحرم رسول الله ، وأحرم معه المسلمون ، فلبس كل منهم ازارا وردا ، وحقق ذلك المساواة بينهم بأجلى ما يهدف اليه الاسلام ، ثم تقدم الرسول ، فرفع يديه الى السماء ، وتوجه الى الله بالتلبية ، والمسلمون من ورائه يلبون ، ونادى والجميع يرددون :

ـ لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. الحمد والنعمة والشكر لك لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. !

وتجاوبت أصداء هذا الدعاء الروحى فى جميع الارجاء ، وأحيت هذه التلبية تلك الفلاة الصامتة ، فاهتزت جوانبها من روعة هذا الدعاء . ثم انطلق الركب برجاله ونسائه ، ووفوده وألوفه ، يشق الطريق بين المدينه ومكة ، فى أمواج من الجموع المتتابعة على سفن الصحراء . والنبى صلى الله عليه وسلم فى المقدمة ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر صحابته وقادة المسلمين ، حتى بلغوا « أم القرى » فى الرابع من ذى الحجة ، وقد طووا فى هذا السفر الطويل تسعة أيام . ولما أقبل النبى على المسجد الحرام ، رفع يديه الى السماء ، وقال :

ـ اللهم زده تشريفا وتعظيما .. اللهم زده مهابة وبرا وتكريما

ثم نزل عن ناقته القصواء ، فدخل المسجد ، وطاف سبعا بالكعبة .. ثم صلى ركعتين عند مقام ابراهيم . ثم شرب من ماء زمزم ، وسعى بين الصفا والمروة سبعا راكبا ناقته ، وكان اذا صعد الصفا يقول :

ـ لا اله الا الله والله أكبر ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده

واذا نزل الى المروة يقول :

ـ الحمد لله .. ولا اله الا الله والله أكبر ..

وكان المسلمون من ورائه يقولون ما يقول ، ويفعلون ما يفعل . وكان

ربيعة بن أمية بن خلف يردد وراءه ما يقول بصوت جهورى يسمعه الحجيج

وفى الثامن من ذى الحجة من السنة العاشرة رحل النبى ومن معه الى « منى » فأقاموا بالخيام ، وصلوا فروض اليوم ، وباتوا بها حتى مطلع الفجر .. فصلى بهم صلاة الصبح ، حتى اذا بزغت الشمس ، ووضح الطريق ، تقدم الحجيج بناقته حتى جبل عرفات .. فأحاط به الالوف ، وهم يلبون ويكبرون ، وضربت للنبى صلى الله عليه وسلم قبة بنمرة — وهى موضع بعرفات — فنزل بها ، حتى زالت الشمس ، فأمر بناقته القصواء فركبها ، وسار حتى أتى بطن الوادى من أرض عرفة . وهناك نزل عليه بعد صلاة العصر قوله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشونى . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا »

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى بكاء شديدا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا أبا بكر ؟ » ..

قال : « أبكانى انا كنا فى زيادة من ديننا .. فأما اذ أكمل ، فانه لم يكمل شىء الا نقص » ..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدقت » وبكى كثير من المسلمين

وكانت هذه الآية ايذانا بانتهاء رسالته فى هذه الدنيا ثم قام عليه الصلاة والسلام فركب ناقته حتى بلغ وسط عرفات ، فوقف هناك وألقى خطبة الوداع التى تنبأ فيها باقتراب أجله ، فقال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير

« أما بعد : أيها الناس . اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .. أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا

« ألا هل بلغت .. (فقال الناس نشهد أنك بلغت ، وأديت ونصحت) فقال : « اللهم فاشهد .. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ألا وان ربا الجاهلية موضوع (١) . وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (٢) .. وان أثر الجاهلية موضوعة الا السدانة والسقاية . والعمد قود . وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر . وفيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية

« أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون به أعمالكم

« أيها الناس .. انما النسىء (٣) زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض ، منها أربعة حرم : ثلاث متواليات ، وواحد فرد . ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . ورجب الذى بين جمادى وشعبان ــ ألا هل بلغت ؟.. اللهم فاشهد

« أيها الناس .. ان لنسائكم عليكم حقا ، وان لكم عليهن حقا : ألا يوطئن فراشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن ، فان الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن

---

(١) موضوع أى مهدر لا يحل

(٢) قتل عامرا جماعة من قبيلة هذيل بالجاهلية (٣) النسىء هو تحليل الاشهر الحرم ، وتحريم الاشهر الحلال بالنسىء أى التأخير حسب أغراضهم

فى المضاجع وتضربوهن . وان أطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف

« وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا (١) . أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ــ ألا هل بلغت ؟.. اللهم فاشهد

« أيها الناس .. انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض، فانى تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده أبدا : كتاب الله .. ألا هل بلغت ؟.. اللهم فاشهد

« أيها الناس .. ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى .. ألا هل بلغت ؟.. اللهم فاشهد .. فليبلغ الشاهد منكم الغائب

« أيها الناس .. ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا تجوز لوارث وصيته . ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث . والولد للفراش . وللعاهر الحجر . من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله ، والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه خير ولا عدل .. والسلام عليكم ورحمة الله »

ولما أتم الرسول عليه السلام خطابه نزل عن ناقته ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر . ثم بارح عرفات هو ومن معه الى المزدلفة ، فقضى بها ليلة ، وفى الصباح ذهب الى المشعر الحرام ، ثم الى منى ، وألقى الحجرات، ثم نحر الهدى ، وأتم حجته . وكانت حجة الوداع التى لم ير بعدها مشاعر الحج ، ولا البيت الحرام مرة أخرى

***

عاد الركب بعد الحج الى المدينة ، يتقدمه محمد صلى الله عليه وسلم . فلما أقبل عليها ، كبر ثلاثا ، ثم رفع يديه الى السماء ، وقال :

ــ لا اله الا الله وحده لاشريك له . الحمد لله وهو على كل شىء قدير .

(١) أى ضعيفات أى لا يملكن قوة ودفاعا عن أنفسهن كالرجال

آيبون تائبون عابدون ، ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده

وأقبلت وفود العرب زمرا زمرا الى يثرب ممن لم يكونوا قد أسلموا لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم والدخول فى الاسلام ، والانضواء تحت لوائه ، وعنت الوجوه للحى القيوم ، وتتابع الناس من كل مكان أفواجا أفواجا فى شبه الجزيرة العربية يؤمنون بالله ورسوله ، ويدينون بالدين الجديد . وهنا نزلت « سورة الفتح » فقال الله لنبيه الكريم : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبّح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا »

فلما قرأها عليه جبريل قال محمد صلى الله عليه وسلم : « نعيت لى نفسى » (١) فقال جبريل : « وللآخرة خير لك من الأولى » . وقد سميت هذه السورة « سورة الوداع » . ولم ينزل بعدها سورة ولا آية أخرى من القرآن الكريم . وكان رسول الله بعد نزولها يستغفر الله كثيرا ويتوب اليه كثيرا ، ويسبح بحمده ، ويعرض باقتراب أجله ، وانتهاء رسالته فى هذه الدنيا ، الى أن مرض صلى الله عليه وسلم فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة أواخر مايو عام ٦٣٢ الميلادية

واستبدت الحمى بجسمه الشريف ، وأيقن أنه عما قريب ستصعد روحه الطاهرة الى السماء ، وسوف يلاقى الرفيق الأعلى ، ولكن الداء لم يقعده عن خدمة دينه وأداء واجبه نحو الله ونحو الناس ، فقد كانت روحه أقوى من جسده ، وعزيمته أشد وأقوى من دائه ، وقد جهز وهو مريض جيشا بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة هؤلاء الذين مكروا بالاسلام والمسلمين فى بلدة «أبنى» (٢) من فلسطين فى الخامس والعشرين من صفر، قبل أن تصعد روحه الى بارئها بسبعة عشر يوما ، وكان القوم قد قتلوا زيدا بن حارثة والد أسامة فى موقعة مؤتة ، فخرج عليه السلام — وهو مريض — يودع هذا الجيش وقائده ويوصيه قائلا :

---

(١) نعيت بضم النون وسكون التاء
(٢) أبنى بضم الهمزة وسكون الباء

ـ أعز باسم الله فى سبيل الله ، وقاتل من كفى ..

سمع أسامة لوصيـة رسـول الله ، وخرج بجيشه فى الغروب ، وعاد الرسول الى المدينة ، وقصد بيت عائشة ، فسمعها تئن وتتوجع ، وتقول : « وارأساه .. » فتوجع لوجعها ؛ بل توجـع لما يشـعر به كذلك من آلام الحمى التى بدأت تدب فى جسمه الشريف ، وبات فى بيت عائشة هـذه الليلة ،ولكنه أرق فيها أرقا طويلا .. وكان الوقت صـيفا ، فأيقظ مولاه « أبا مويهبة » (١) وخرج من البيت فى صحبته الى ظاهر المدينة ، يستروح بالرياضة ، ويستنشق نسيم الليل ، مخففا عن نفسه .. وفيما هما سائران ، اذ عرج عليه السلام على « البقيع » حيث مقابر المسلمين ، فلما بلغه قال لرفيقه أبى مويهبة :

ـ انى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى .. ودخـل يتصفح وجوه المقابر ، ثم وقف بينها ومولاه وراءه ، وقال :

ـ السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما لم يصبح الناس فيه . انى أنظر بعدى ، فأرى الفتن وقد أقبلت كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها .. الآخرة شر من الأولى .. !

ثم استغفر لأهل المقابر ، ولما آن له أن يعود التفت الى أبى مويهبة ، وقال :

ـ انى أوتيت مفاتيح الخلد فى الدنيا ، ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة

فقال أبو مويهبة :

ـ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فخذ مفاتيح الخلد فى الدنيا ، ثم الجنة .. !

فقال الرسول :

ـ لا والله يا أبا مويهبة .. لقد اخترت لقاء ربى والجنة ..

وعاد الى بيت عائشة وقد اقترب الفجر ، فذهب الى المسـجد .. وكان

---

(١) مويهبة بضم الميم وفتح الواو وسكون الياء.

المسلمون قد اجتمعوا للصلاة فصلى بهم، ولم يمكث معهم بعد الصلاة ، بل أسرع الى مضجعه فى بيت عائشة ، فنام واستراح حتى صلاة الظهر ، فذهب الى المسجد ، فصلى .. وعلم أن جماعة من المسلمين ينتقدون تأمير أسامة على الجيش الذى خرج لغزو « أبنى » لأنه ما زال شابا فى سن العشرين ، فبعد أن أوى الصلاة صعد المنبر ، وكان يشعر بالتعب ، فحمد الله . ثم قال :

ــ أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأمير أسامة بن زيد ! .. ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة بن زيد ، فقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله .. وأيم الله انه كان لخليقا بالأمارة ، وأن ابنه من بعده لخليق بها.. وانهما لمن أحب الناس الى الله ورسوله ، وأنهما لمظنة لكل خير ، فاستوصوا بأسامة خيرا ، فانه من خياركم ..

ثم نزل من المنبر ، وقد أخذ منه التعب مأخذه ، فأشار الى على بن أبى طالب ليعينه علىضعف جسمه، فأسرع اليه هو وعمه العباس بنعبدالمطلب، وكانا قريبين من المنبر ، فتوكأ عليهما ، حتى دخل بيت عائشة ــ وقدماه لا تكادان تحملانه ــ وأبو بكر وراءه

ولما اطمئن فى فراشه رفع نظره الى السماء .. وسكت برهة ، كان يناجى فيها ربه ، ثم قال فى تقبل وخشوع :

ــ سبحانالله ، والحمدلله ، ولا اله الاالله وحده لاشريك له .. أستغفرك اللهم وأتوب اليك .. ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير ..

وجلست عائشة وأبو بكر ، والعباس وعلى حوله صامتين ، وقد علت وجوههم الكآبة ، وسيطر عليهم الجزع ، ونظروا الى رسول الله فى فراشه .. فرأوه قد دخل فيما يشبه النوم ، ولكنه ما لبث أن تنبه ، وأشار الى على والعباس بالخروج ، فقاما مسلمين مودعين ..

وفى المساء ، خرج متوكئا على مولاه أبى مويهبة ، فلقيه على بن أبى طالب ، فعاونه حتى دخل بيت زوجته ميمونة بنت الحارث ، وكان اليوم يومها .. فما كاد يجلس حتى شعر بمرضه وقد اشتدت وطأته ، وعظمت

آلامه ، فدعا زوجاته أن يحضرن اليه ، فلما رأينه على غير ما يعهدن فيه من صحة البدن وجمال العافية فزعن الى البكاء ، واستبد بهن الأسى ، وعرضت كل واحدة منهن أن يمرض فى بيتها ، فاستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة أم المؤمنين لقربه من المسجد ، فقبلن فخرج يتوكأ على بعض أهله ، وجسمه فى تثاقل وضعف ، وقدماه فى وهن لا تحسنان السير ، وفى عناء لا تكادان معه تحملانه عليه السلام .. حتى اذا بلغ بيت عائشة نام على فراشه فأرخى عينيه ، وأغمض جفنيه ، واتجه بوجهه الشريف الى السماء ، ودخل فيما يشبه النعاس . ثم تنبه عليه السلام ، وعلى شفتيه ابتسامة مشرقة أحيت الأمل فيمن حوله ، ثم عاد الى ما يشبه السنة . وظل هذا شأنه بين النوم واليقظة ، وبين الاغماء والانتباه .. وكانت حرارة الحمى فى ازدياد حتى جعلت على القطيفة التى غطوا بها جسده تصيب كل من يضع يده عليها

وفى الفجر خفت حرارة الحمى ، وتنبه رسول الله (ص) ، وعرف موعد الصلاة ، فقام على الرغم من مرضه وشدة ألمه ، لأداء فريضة الفجر فى مسجده مع الناس ، فقد كان عليه السلام لا ينقطع عن الصلاة مع الصحابة ، فصلى بهم فى بطء وعناء .. ثم عاد الى فراشه فى تثاقل واعياء وضعف ، فنام نوما هادئا ، لم يزعجه فيه الألم ، ولم يؤرقه فيه الداء . ثم استيقظ وقت الضحى ، فشعر بشىء من الراحة ، وانتعاش النفس ، وانكسار الحمى

وتفاءلت عائشة بتحسن صحته عليه السلام فى ذلك اليوم .. وزاره عمه العباس ، وعلى بن أبى طالب ، وبعض آله .. فاطمأنوا لحاله ، واغتبطوا بما رأوا من سكون دائه ، وخالجهم الأمل القوى فى شفائه ، وأبصروا من يقظته وحسن انتباهه وقوة نفسه ، ما بعثهم على الرجاء فى شفائه

وخرج علىّ بن أبى طالب وعمه العباس من عنده عليه السلام ، فى تلك الساعة الهادئة الآمنة ، فهرع الناس الى على يسألونه عن صحة رسول الله فى شوق شديد ، فقالوا :

ـ يا أبا الحسن .. كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فأجاب على :

ـ أصبح بحمد الله بخير.. وسوف يكون عما قريب بارئا من مرضه..!

فاطمأن الناس ، وهدأت قلوبهم ، وانكشف عنهم ما تملكهم من هموم وأحزان . وما كاد على بن أبى طالب وعمه العباس يتجاوزان الناس حتى أخذ العباس بيد على ، وأسر اليه قائلا :

ـ ما هذا يا ابن أخى ؟ .. أفلا تدرى ؟ .. بعد ثلاث أحلف فيها بالله ، أن محمدا مريض قد أرهقه المرض . ولقد عرفت الموت فى وجهه ، كما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب .. فانطلق بنا ، فان كان هذا الأمر فينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه ، فأوصى بنا الناس .. !

فأبى على أن يعود الى رسول الله (ص) ليحدثه فى ذلك ، وقال :

ـ والله يا عمى لا أفعل .. ولئن منعنا هذا الأمر ، لا يؤتينا اياه أحد بعده .. !

***

كان الرسول (ص) قوى النفس ، سامى الروح ، لم تتخلف عنه عزيمته، ولم تضعف ارادته ، على الرغم من شدة دائه ، ومعاناة بلائه .. ولم ينقطع عن الصلاة مع أصحابه فى المسجد الا قبيل وفاته بثلاثة أيام . وخرج عليه السلام فى ذلك اليوم الى المسجد ، ففرح الناس ، وأقبلوا عليه .. فصلى بهم ، ثم صعد المنبر فأنصت الجميع ، وكأنما على رءوسهم الطير، ولكنه لم يخطب كعادته ، بل أفضى اليهم بكلمة قصيرة كانت أبلغ فى الدلالة على هوان هذه الدنيا ، وضعف شأنها ، وان الآخرة خير وأبقى . قال عليه الصلاة والسلام :

ـ أيها الناس ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله .. !

ثم سكت ، فوجم الناس ، وسادهم الحزن والأسى .. وأدركوا أن النبى (ص) يعنى بهذا القول نفسه ، وينبئهم بقرب وداعه لهم ، وفراقه لهذه الدنيا .. وبكى أبو بكر رضى الله عنه ، وقال فى صوت ضعيف متهدج :

ـ فديناك يا رسول الله بأنفسنا وأبنائنا وما ملكت أيدينا ..

واشتد به البكاء ، فأشار اليه النبى أن يمسك عن بكائه ، ثم أشار الى أبواب المسجد ، فأمر أن تقفل جميع الأبواب الا باب أبى بكر .. فلما أقفلت ، خاطب الصحابة قائلا :

ــ انى لا أعلم أحدا أصدق عندى من أبى بكر فى صحبته وماله .. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة اسلام وأخوة ، حتى يجمع الله بيننا عنده .. !

ولم يستطع النبى (ص) آن يتابع الكلام لضعف صحته ، فنزل من المنبر يريد أن يعود الى بيته ، ولكنه ما لبث أن التفت الى الناس ، فانتبهوا اليه يسمعون ما يقول ، فقال عليه السلام :

ــ يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، فان الناس يزيدون والأنصار لا يزيدون ، وانهم كانوا عيبتى (١) التى أويت اليها ، فأحسنوا الى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » !

وعاد محمد (ص) يساوره الداء ، ويعود اليه فى شدة وبأس ، وكان يغالبه بقوة ارادته وشدة عزمه ، وينازع آلامه ويحمل على نفسه للخروج الى الناس فى المسجد ليوصيهم ، ويعهد اليهم ، قبل أن يفارق الدنيا ، ويرحل عنها الى دار النعيم ..

وأراد أن يخرج الى الناس ، ولكن حرارة الحمى استبدت بجسده الشريف ، وكادت تعجزه ، فاستعان بالماء البارد ، وقال لأهله :

ــ أريقوا علىَّ سبع قرب من ماء الآبار حتى أخرج الى الناس ، فأعهد اليهم .. !

وجىء بماء الآبار كما طلب عليه الصلاة والسلام ، وأقعده أزواجه فى مخضب (٢) لحفصة ، وصببن عليه ماء القرب السبع حتى أشار بيده قائلا : « حسبكن ... حسبكن .. » .. ثم لبس ثيابه ، وعصب رأسه ، وهو يقول :

ــ الحمد لله .. نحن معشر الأنبياء ، يشدد علينا البلاء ، وتضاعف لنا

(١) العيبة ما يجعل فيه الثياب كالصندوق ، والمراد هنا الملجأ والمكان والمأوى
(٢) المخضب الطست

الاجور .. ثم خرج يتوكأ على عمه العباس ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل ابن العباس ، فدخل المسجد يخطو خطوا وئيدا حتى بلغ المنبر .. فتحامل على نفسه ، وساعده الفضل وعلى ، فجلس على أسفل مرقاة فيه .. ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

ــ أيها الناس : بلغنى انكم تخافون من موت نبيّكم .. هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله ، فأخلد فيكم ؟.. ألا انى لاحق بربى ، وانكم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم .. فان الله تعالى يقول : والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ..

وان الأمور تجرى باذن الله ، ولايحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فان الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد . ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا أرحامكم ؟

أوصيكم بالأنصار خيرا ، فانهم الذين تبوأوا الدار من قبلكم ، أن تحسنوا اليهم .. ألم يشاطروكم فى الثمار ، ألم يوسّعوا لكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم ؟.. ألا وانى فرط لكم ، وأنتم لاحقون بى . وان موعدكم الحوض ، فمن أحب أن يرده على

كانت هذه الوصية هى آخر وصاياه عليه السلام . .ثم عاد الى بيت عائشة يتوكأ على عمه العباس ، وعلى بن أبى طالب ، حتى أوصلاه الفراش

واشتدّ المرض برسول الله ، وتضاعف الخطر ، وقلق أهله وأصحابه.. وعجزت وسائل العلاج المعروفة فى ذلك الحين عن شفائه ، واقترحت زوجته ميمونة بنت الحارث أن تصنع له شرابا عرفت طريقة اعداده من قريبة لها تدعى أسماء ،كانت قد تعلمتها أثناء هجرتها بالحبشة.. فصنعته ميمونة، وانتهز آل رسول الله فرصة اغماءة من اغماءاته ، وصبوه فى فمه بحذر شديد .. فلما أفاق ، قال لهم :

ــ من صنع هذا الشراب ؟ .. ولم فعلتموه ؟ ..

فقال العباس :

ـ خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب ، فأعطيناك هـذا الشراب

فقال عليه السلام :

ـ ذلك دواء ما كان الله عز وجل لينقذنى به

وتعذر عليه (صلى الله عليه وسلم) أن يخرج للصلاة بالناس ، فأناب عنه أبا بكر ، فصلى بهم سبع عشرة صلاة ..

ودخلت ابنته الزهراء فاطمة ذات يوم ـ وهو فى هذه الحال من الخطر على حياته ـ فعز عليها أن تراه طريح الفراش ، وقد اقترب منه الأجل ، وضعف من شفائه الأمل ، فبكت ونادت : « وا أبتاه .. » فتنبه من اغمائه ، ونظر اليها ، ثم قال بصوت خافت :

ـ مرحبا بك يا فاطمة .. لا كرب على أبيك بعد اليوم .. !

يريد عليه السلام أنه سينقل من هذا العالم ـ عالم الكرب والآلام ـ الى عالم الراحة والسلام . ثم أشار اليها ، فاقتربت منه ، فوضع أذنها على فمه الشريف ، وأسر اليها بكلام ؛ فبكت رضى الله عنها ، وبكى الحاضرون. ثم عاد فأسرّ اليها فى أذنها الأخرى بكلام آخر فابتسمت واستبشرت ، فاطمأن الحاضرون واستبشروا . ولما سئلت رضى الله عنها عما أسريه اليها ، قالت : « أسر الى أنه سيقبض فى مرضه هذا ، فبكيت ، ثم سارنى أنى أول من يلحق به من أهله ، فابتسمت وسررت » !

***

وكانت ليلة الوفاة .. وبلغ الداء أقصـاه ، واقتربت الساعة ، وكانوا يمسحون رأسه ووجهه بالماء البارد ليخففوا عنه من آلام الحمى ، وشدة الحرارة ، وكان كلما استفاق من اغمائه أدخل يده فى الاناء ، ومسح جبهته ورأسه ، وقال :

ـ اللهم أعنّى على سـكرات الموت .. لا اله الا الله ، ان للموت لسكرات ..

ـ اللهم انك تأخذ الروح بين القصب (١) والعصب والأنامل ، فأعنى على شدته ، وهونه على نفسى !..

يا عجبا لهذه النفس العظيمة التى هزت بعظمتها العالم ، وغيرت مجرى التاريخ ، وأقامت للناس دينا قويما ، وتغلبت على الشدائد والأهوال ، تستسلم للموت ، وتئن من سكراته ، ولكنه القـدر ، وضعف البشر ، وموافاة الأجل ، ولكل أجل كتاب ..

وأخذ عليه السلام يردد هذا القول فى ساعاته الاخيرة ، كلما أفاق من سكرات الموت ، حتى كان الفجر .. فسمع صوت بلال بن رباح يؤذن للصلاة ، فكبر معه واذن بصوت ضعيف ، ثم رفع سترا من حجرته مطلا على المسجد ، فرأى المصلين صفوفا صفوفا ، فاغتبـط وابتسم .. ورآه أبو بكر ، فظن انه يريد الخروج للصلاة ، فنكص على عقبه ليفسح له ، وكاد المصلون يفتنون فى صلاتهم فرحا بمقدمه ، ولكنه أشـار اليهم أن يثبتوا ويستمروا .. وأرخى الستر ..

ودخل عليه بعد صلاة الفجر رجل من آل أبى بكر ، ومعه عود من أعواد السواك لم يستعمله ، فنظر اليه النبى صلى الله عليه وسلم نظرة لم يستطع معها الحديث ، ففهمت عائشة انه يريده ، فأخـذته من قريبها ، ومضغته حتى لان ، وأعطته اياه ، فأخذه ، واستاك به !..

وما كاد ينتهى ، ويضع السواك بجواره ، حتى شعر بضعف شـديد .. فأشار الى عائشة أن تأخذه بين ذراعيها ، فأسرعت اليه فى حنان ، واحتضنته فى رفق واشفاق ، وأجلسته فى حجرها ، ونفسـها تتطاير أسى ولوعة ، فأسند عليه السلام ظهره على صدرها ، وطرح رأسه على نحرها ، وشخص الى السماء ..

قالت عائشة :

ـ وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى .. فنظرت الى وجهه ، فاذا بصره قد شخص الى السماء ، وهو يقول : « بل الرفيق

---

(١) القصب عظام اليدين والرجلين ونحوهما من العظام

الأعلى » فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق . وقبض رسول الله بين سحرى (١) ونحرى .. فمن سفهى وحداثة سنى وضعت رأسه على وسادة ، وقمت التدم (٢) مع النساء وألطم وجهى !

وكانت كلمة « بل الرفيق الاعلى » هى آخر كلماته عليه الصلاة والسلام ، وروحه الشريفة تصعد الى جوار الرحمن ..

وعاد أبو بكر مسرعا حين بلغته وفاة رسول الله ، وكان فى منازل بنى الحارث فدخل الحجرة ، فوجده مسجى على فراشه .. فوقف برهة واجما ذاهلا .. ثم تقدم الى جسده الشريف ، وكشف عن وجهه ، وقبّل فمه ، وبكى ، وقال :

ـ بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. طبت حيا وميتا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لأحد من الأنبياء قبلك ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو كان فى موتك اختيار لفديناك بالنفوس .. اذكرنا يا محمد عند ربك !..

---

(١) السحر بفتح وسكون أعلى الحلق ، والنحر موضع القلادة من العنق
(٢) التدم أى اضطرب

الفصل الثانى

رجال علم ووطنية

* الشيخ محمد عبده
* مصطفى كامل
* الشيخ على يوسف
* السيد توفيق البكرى

الشيخ محمد عبده

قال الاطباء :

ـ هو مرض فى الكبد .. !

ـ بل هو سرطان فى المعدة .. !

ـ كلا .. بل هو مرض العلماء العاملين ، والزعماء المجاهدين ، وهو العناء الدائم ، والكفاح المتواصل ، وليس له من دواء الا الراحة من الهموم والتفكير

والتفت الاستاذ الامام الى أطبائه ، وهم فى خلافهم يتجادلون ، فقال :

ـ لا .. بل هو كيد الكائدين ، ودس الجهلاء الحاسدين . وقد يعثر الأسد بالشظية فتدمى قدمه ، وتثير ألمه ، وتخلف عنده من العلل ، ما يبدو أثره بعد زوال الأمل ..

فقال السيد رشيد رضا أحد الحاضرين :

ـ لقد أعطيت نفسا أبيّة ، ، وعزيمة قوية ، وما عهدنا فيك ضعفا ..

فقال الاستاذ الامام : دعنى من نفسى فما أبالى بها ، ومن عزيمتى ، فما كنت يوما مرتخصا لها ، وما أنا بآسف على الحياة

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وللنـــــاس آمال يرجـــون نيلها
اذا مت ماتت واضـــمحلت عزائم (١)
فيـارب ان قدرت رجعى قريبـــة
الى عالم الأرواح وانفـــض خاتم
فبـارك على الاسـلام وارزقه مرشـدا
رشـــيدا يضىء النهج والليـل قاتم
يماثلنى نطقـــا وعلمـــا وحكمـة
ويشبـه منى السـيف والسـيف صارم

ثم قال : « كأنما الشعر لايأتينى الا فى السجن وفى المرض » وهو يعنى قصيدته التى نظمها فى سجنه عقب الثورة العرابية ومطلعها :

مجـدى بمجد بلادى كنت أطلبـه وشيمة الحر تأبى خفض أهليه

وسكن الاستاذ الامام ، وأشار الأطبـاء بالراحة التامة من العمـل ، ونصحوه بالسفر الى أوربا لتغيير البيئة ، وتجديد الهواء

وعاد الى الحديث ، فقال لأحد تلاميذه :

ــ ينصحوننى بالسفر الى أوربا .. عجبا .. ألم يكن خيرا لى أن أسافر الى الريف لأشتغل ــ كما يقول الخديو ــ مع الفلاحين !

فابتأس الحاضرون ، وهوّنوا عن نفسه ألم الحادث الذى وقع بينه وبين الخديو عباس حلمى الثانى قبل المرض بقليل ، فأثر فى نفسه . وكان النزاع بين الخديو عباس ، والاستاذ الامام ناشبا فى السنوات الاخيرة من حياته ، فقد بدأ بوشاية بعض الواشين ، وحدث أن خلت كسوة من كساوى التشريف العلمية ، بموت أحد كبار العلماء ، فبعث الخديو لشيخ الازهر السيد على البلاوى يبلغه أمر سموه بمنح هـذه الكسوة الشيخ محمد راشد مفتى المعية ، فلم ينفذ هذا الأمر

فلما اجتمـع العلماء عنـد الخديو عباس فى التشريفات ، قال الخديو لشيخ الازهر :

---

(١) روى هذه الابيات السيد رشيد رضا ، ويرجح ان البيتين الاولين للامام والابيـات التالية للسيد رشيد

ـ ألم يصلك أمرى باسناد الكسوة الى الشيخ محمد راشد ؟..

فتلعثم شيخ الأزهر ، ونهض بالجواب عنه الشيخ محمد عبده فقال :

ـ ما قرره مجلس ادارة الازهر انما هو تنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه هو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم .. وأما الأوامر الشفوية ، فلا يستطيع المجلس أن يعتمد عليها . فاذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف العلمية بمقتضى ارادته الشخصية ، فليصدر بذلك قانونا آخر . ينسخ هذا القانون ، أو مادة قانونية ، نصها : «كساوى التشريف للعلماء تمنح بأمر منا »

قال الشيخ محمد عبده ذلك بشجاعة يدفعه اليها الحق ، ويعتمد فيها على العدل . لكن هذا الجواب أغضب الخديو ، فما كاد الشيخ يتمّه حتى احمر وجهه ، ووقف ايذانا للحاضرين بالانصراف

مرت هذه الحادثة ، لكن لم يمر أثرها .. فقد كان لها وقع شديد فى نفس الخديو عباس ، وزادت فى توتر العلاقة بينه وبين المفتى ، وكان الوشاة من حساده ، يجاهدون فى محاربته ، ويتعاونون على القضاء عليه . وكان رحمه الله يكافح جيشين ربضا على صدر الأمم الاسلامية عامة ، ومصر خاصة . وهما جيش الضعف وفساد العقائد ، وجيش الحساد والطغاة .. فلما وقعت هذه الحادثة وجد هؤلاء الخصوم بعدها مجالا للكر والفر ، وفرصة للدسائس والوشايات

وكان اللورد كرومر يقدر الاستاذ الامام ، ويعترف بفضله ، ويقول لمحدثيه : « ان هذا الرجل لايمكن تعويضه » .. فسعى خصومه فى النكاية به عنده ، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الافرنج ، وبعثوا بها الى الخديو والى اللورد كرومر ، وكتبوا ان هذه الصورة تزرى بكرامة الدين ، وانها تدعو الى اقالته من منصب مفتى الديار المصرية

فقال اللورد :

ـ ان الاستاذ يزورنا فى قصرنا ، وتحضر ليدى كرومر مجلسه ، فهل يصح أن نعد هذا اهانة له أو لنا ؟ !

وتمادى حساد الامام فى باطلهم ، وأمعنوا فى غيهم ، حتى أفسدوا ما بينه وبين أمير البـــــلاد ، فذهب فى ١١ يناير سنة ١٩٠٤ الى القصر حاملا استقالته . ودخل على الخديو ، فلما سأله عن سبب استقالته ، أجاب قائلا :

ــ اذا كان بقائى فى منصبى يا أفندينا يحدث لسموكم متاعب ، فأنا أفضل التخلى عنه ، رغبة فى راحتكم ..

فانشرح الخديو لهذا الجواب .. ولم يقبل الاستقالة ..

***

زال التوتر الشديد الذى كان بين الخديو والاستاذ الامام فى ذلك الحين ، وأصيب خصومه بالخذلان ، وتحطمت مكائدهم ، وارتدت اليهم سهامهم .. ولكن الى حين . وانهار بناؤهم .. ولكن الى أجل ، فان الخديو وان كان قد ارتاح لتقديم المفتى استقالته اليه ، وايثار عطفه ورضاه عليه ، الا انه كان يخشى شجاعته وقوة شخصيته .. وقد عرفه صارما فى الحق ، فلم يطمئن اليه ، وعاد معه الى خطته الاولى فعاد أعداؤه الى الكيد له والتشهير به ، ورموه بقبول الرشوة

حدثنى شاعر النيل حافظ ابراهيم ، قال :

ــ كنت جالسا مع الاستاذ الامام فى بيته بعين شمس ، فدار الحديث حول الرشوة التى رماه بها بعض الأفاكين ، فقال الاستاذ الامام :

ــ والله لو كنت ممن يقبلون الرشوة ، لسال هذا الفناء ذهبا !

« وقد صدق رحمه الله ، فهو لم يخلف شيئا لأهله .. وفى يوم مأتمه ، رأيت رجـــلا يبكى بكاء مؤثرا ، فأردت أن أخفف عنه ، فقلت له : ان مصابك يا أخى هو مصاب الجميع ، فأجابنى الرجل فى نشـــيج محزن : « لست أبكى على مصابنا فى « الامام » فقط ، انى أبكى أسى على هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته من الاوقاف » والى هذا أشرت فى مرثيتى له فقلت :

بكيـــــنا على فرد ، وان بكاءنا
على أنفس لله منقطعـــــــــات

تعهدها فضـــــــل الامام وحاطها
باحســــــانه ، والدهر غير مؤاتى

ولم أر كالامام فى قوة خلقه ، وثقته بنفسه .

ثم قال لى حافظ : « حدث أن جاءه يوما كتاب تهديد بالقتل من مجهول ، فابتسم رحمه الله ابتسامة ظريفة ، ثم دفع الكتاب الى السلة . وذات يوم كنت راكبا معه عربته الى بيته ، فقلت له :

ــ لو اننا فوجئنا بهذا الذى بعث اليك وعيده ، فماذا يكون موقف الامام ؟

فأجاب بقوله :

ــ والله يا حافظ ، انى لأهنىء نفسى اذا وجدت فى مصر من يقدر أن يقول فى وجهى « أخطأت » ، فكيف بى اذا وجدت من يريد أن يقتلنى ؟ !

وكان من حساده أحد علماء سورية ، وقد اعتاد أن يطعن فى كفايته ، ويشهر بعلمه ودينه كخصومه فى مصر ، فكان الامام يتغاضى عنه . فلما ألف رسالة التوحيد ، بعث اليه هذا العالم بكتاب يقول فيه انه قرأ هذه الرسالة فأزالت كل سخيمة فى نفسه ، ودفعته الى الاعتراف بفضله ، فرد عليه الامام بقوله :

ــ الحمد لله .. حينما أبغضتنى أبغضتنى لله ، وحينما أحببتنى أحببتنى فى الله

***

جاهد الاستاذ الامام فى وسط هذا الجيش من الخصوم المتهافتين على نضاله ، الموغلين فى ايذائه ، فلم يعبأ بهم ، واندفع فى طريق الاصلاح يشقه بهمة قوية وعزيمة حديدية ، ونور يمحو ظلام الباطـــل ، ويهتك حجاب الضلال ، ويسعى فى سبيل الله لا يفرق بين كبير وصغير ، أو بين ملك وأمير ، بل كان الكل أمامه سواء . ولم تعوزه يوما الشجاعة فى معارضة ما لا يتفق

وتعاليم الدين ، ولم يخذل يوما حقا هاجمه باطل ، ولا عدلا طارده ظلم ، بل كان ينبرى فى الميدان بقلب مملوء بالايمان ، ونفس مزودة باليقين ، فينصر ما أحله الله ، ويناضل ما حرمه . وكانت هذه الخطة جديرة بأن تجعل له المكانة عند حكام البلاد ، لولا السياسة .. وقاتل الله السياسة ، فما دخلت شيئا الا أفسدته

وكانت حادثة استبدال قطعة من أطيان وزارة الاوقاف بقطعة من أطيان الخديو عباس .. وكان للامام فيها رأى يخالف رأى سموه ، فحرمه الخديو رضاه ..

وفى هذا الحين أقبل أحد الأعياد ، فذهب الاستاذ الامام الى القصر فيمن ذهب من الكبراء لتهنئة الخديو .. فلما كان فى المجلس ، قال الخديو:

ــ بلغنا أن فى البلاد لفيفا ليسوا راضين عن أعمالنا .. فهؤلاء خير لهم أن يعودوا الى بلادهم ، ليشتغلوا فلاحين

سمع الامام هذه العبارة ، فأيقن ان الخديو عباس يعنيه بها .. فخرج من القصر مكلوما ، واعتكف فى بيته مغموما ، ولكنه كان يعمل لوظيفته وللناس ، وهو على فراشه .. فأضعف التعب جسمه ، وأنهك الحزن نفسه ، فاستفحل مرضه

وكان شهر يونية سنة ١٩٠٥ ، فتهيأ للسفر الى أوربا طوعا لنصيحة الاطباء ، لكن السفن الدورية كانت قد امتلأت بالمصطافين ، فاضطر الى الانتظار الى ما بعد اليوم الرابع عشر من هذا الشهر

ودنا موعد الدور الثانى ، ودنت حالته من النهاية ، وأشرف على الرحيل من هذه الحياة ، فنصح الاطباء لأهله ومريديه أن يحببوا اليه الاقامة بالاسكندرية وأن يثنوه عن السفر الى أوربا ، فأفلحوا .. ونزل بطل الاسلام بمدينة بطل اليونان

طابت الاقامة لمفتى البلاد ، وزعيم الاصلاح الدينى والاجتماعى بهذه المدينة ، وانتعش الأمل فى شفائه ، وابتهج الناس بتحسن صحته ، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين أرجائها من أنباء سارة ، وابتهلت الى

بارئها أن يتم لامامها أحسن العافية

لكن هذا الأمل الذى انتعش فى بسمة من الأيام ، وهذا الابتهاج الذى بدا فى ساعات معدودات ، وهذا التفاؤل الذى لمع فى النفوس ، لم يلبث ذلك كله طويلا .. فقد تبدد فى الخامس من يولية حين انتشر نبأ الخطر على صحته

وكان المكلفون بتمريضه يحيطون به فى مساء ذلك اليوم ، وقد اطمأنوا الى أنه يقضى الليل منذ أيام فى راحة وهدوء .. ولكنه فى هـذه الليلة ، استيقظ متضورا ، فأسرعوا اليه ، فوجدوه حائرا ، يتلوى يمينا ويسارا من تبريح الآلام ، وكان السرطان قد امتد الى فمه ، فضاعف عظيم ألمه ، واستمر فى هذه الحال يعانى الداء العقام ، ويكافح الأوصاب الجسام ، ويستعين عليها بذكر الله . وكان منذ ابتداء مرضه يردد فى عنائه : « الله أكبر .. »

الله أكبر .. كانت هذه التكبيرة سلوته ، ومفتاح صبره ، وبلسم ألمه ..

الله أكبر .. كانت هى عماد عزمه فى شجاعته واقدامه ، وآية كلمه فى يقظته ومنـامه ، وفى قعوده وقيامه .. لم ينفك عن ذكرها ، ولم يبرح يعيدها ، كلما برح به الداء ، واشتد عليه البلاء

وفى صباح الحادى عشر من يولية سـنة ١٩٠٥ دخلت عليه السـيدة زوجته ، فوجدته هادئا .. فنادته ، ففتح عينيه قليلا ثم أغمضها ، وأخـذ يحرك شفتيه بالتكبير ، فعادت السيدة فأسمعته جميل أمانيها له ودعاءها بشفائه ، فابتسم لها ، ثم حرك شفتيه بالتكبير .. فكان آخر ما حرك به لسانه قبل اصابته . وآخر ما حرك به شـفتيه فى سكرات موته .. حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات ، وصعد ليستوفى جزاءه من نعيم الجنات

مصطفى كامل

كانت الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، وقد أخذ قلب مصر يخفق خفقانا شديدا للخطر الذى أحدق بزعيمها الشاب مصطفى كامل منذ الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم . وما مضت نصف ساعة حتى كانت المأساة الوطنية الكبرى بأفول هذه الحياة الساطعة التى اتقدت حماسة ونشرت نورها بين الجوانح والقلوب ، فأيقظت نفوس المصريين ، ودفعتها الى الأمام عشرات الأعوام

شعر الفقيد العظيم بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عاما من فرط الاجهاد فى العمل لخدمة وطنه ، وسعيه لتحرير أمته من ربقة الاستعباد ، ونير الاحتلال البريطانى . فقد عاد من أوربا فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٧ ، فاستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والتكريم . ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع ، فأشار عليه الاطباء أن يقضى الشتاء فى حلوان فعمل بمشورتهم ، وسافر الى هذا المشتى ، ومكث فيه حتى أبل من مرضه ، ثم كتب الى شقيقه على فهمى رسالة فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧ ، يقول فيها :

« أخى .. لاشك انك قلقت كثيرا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتى ، لأنى منذ ثلاثة أشهر لم أكتب اليك كلمة . انى كنت فى مرض شديد يئست معه من حياتى . وقد أصابنى بعد وصولى الى العاصمة بيومين . وهو مسبب عن كثرة المتاعب التى صادفتها فى هذا العام ، والتى أؤمل أن تكون ناجحة ، لأنها كما تعلم صادرة

باخلاص ، ولا أمل لى فى شىء من ورائها سوى عودة مصر الى زهوها ، ورجوع السيادة لأبنائها المخلصين »

عاد مصطفى كامل الى جهاده والى متاعبه ، ولم يشفق على نفسه المحبة لمصر ، المغرمة بحريتها وكرامتها ، فكان المرض يعاوده حينا بعد حين ، ففى سنة ١٩٠٣ اعتلت صحته ، وكتب الى مدام جولييت آدم من فيشى بفرنسا كتابا يقول فيه :

« يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى «التيرول» مع صديقى فريد بك الذى تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين ، لأن الأطباء قد رأوا انه من الواجب أن أمضى فى الجبل بعض الزمن اذ أخـذ التعب يستولى على أعصابى .. ولهم الحق فى ذلك ، فانى لم أشفق على نفسى ! .. »

وكتب اليها يقول فى رسالة أخرى ، وقد عاوده المرض والارهاق بعد عامين من تلك الرسالة :

« ان العمـل قد أضنانى الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه . وكأن الطبيعة خالفت سنتها ، اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى »

وفى صيف سنة ١٩٠٦ ، سافر الى أوربا للاستشفاء والعلاج . وكان فى حاجة قصوى الى الراحة ، ولـكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج ، فهب من فراش المرض يدافع عن المظلومين ، ويحارب بقلمه ولسانه وجسمه الظالمين وكان وقتئذ فى باريس ، فثارت نفسـه ، ووثب قلبه ليسـمع العالم صـوت مصر ، وكتب فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية مقالا بليغا بعنوان : « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » عرض فيه حادثة دنشواى على الضمير الانسانى ، فكان لها أثرها البالغ فى النفوس ، وكانت من أبلغ ما كتب الفقيد العظيم وأكبر معول فى هدم صرح الظلم والهمجية الذى أقامه اللورد كرومر فى مصر

وأخذ مصطفى كامل يواصل الجهاد بلا مبالاة بصحته ولا خوف على حياته ، لأن حب مصر كان يملأ قلبه ، وغرامه بحريتها وعزتها واستقلالها

يشغل نفسه . وفى صيف سنة ١٩٠٧ ، رحل الى أوربا للاستشفاء والجهاد. وكانت هذه الرحلة هى آخر رحلاته ، فشعر بالمرض يشتد به ، فقال للمسيو ادولف ادرير مراسل « الاتيندار » فى باريس حين قابله :

« انى أشعر ان المرض قد عاد الى .. ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لمجهودى ليحصد الآخرون نتائج جهادى ، ولكنى أتمنى أن يكون لى وقت كاف للغرس والزرع ! »

وكانت هذه هى الأمنية الكبرى بعد ما شعر بأن مرضه الخطر يهدده بالفراق . ولما عاد مصطفى كامل الى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ؛ قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والاعجاب . ورأى هو أن يدعم حركته قبل وفاته بتأليف الحزب الوطنى . وفى أول اجتماع مع أصدقائه واخوانه للبحث فى تأليف الحزب شعر بشىء من التعب ، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه ، فقال لهم :

ـ يخيل الىَّ انى عما قريب ، سوف أفارقكم !

فقال اخوانه :

ـ الى أين ؟.. لقد أجهدت نفسك ، وسموت فوق الطاقة فى الجهاد ، وأنهكت جسمك فى السفر فى سبيل مصر مرارا ، فاسترح فى بلدك

ـ سوف يستريح جسمى الراحة الكبرى . وكنت أود لو استراحت روحى ونفسى قبل الفراق ..

ـ ماذا تعنى يا باشا ؟

ـ انى لن أعيش طويلا ، وسأموت قريبا .. فلا تضيعوا الوقت ، وأسرعوا فى العمل !

ـ سلمت يا مصطفى .. لا تتشاءم ، ودع عنك هذا الوهم ، وسيمن الله عليك بالشفاء التام ..

ـ ليس تشاؤما ، وليس وهما ، انى لأشعر فى أعماق نفسى بقرب نهايتى !

فارتاع اخوانه من هذا الحديث الذى دار بينه وبينهم فى اجتماعهم

فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وجمدت أبصارهم وجلسوا فى ذهول
وفى أثناء هذه اللحظات التفت الى شقيقه على فهمى كامل ، وقال :
« تشجع يا على ، واذا مت ، فليحمل اللواء هذا الرجل النبيل » وأشار
الى محمد فريد بك

ولقد كان مصطفى كامل يغالب العلة ، ويكافح المرض ليواصل رسالته فى الجهاد لحرية مصر وخلاصها من الاحتلال ، ثم كان خطابه الحماسى البليغ الذى ألقاه فى ٢٢ أكتوبر بمسرح زيزينيا بالاسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر ، واستمر أربع ساعات فى القائه ، فبذل من صحته ومجهوده ما دفع أصدقاءه الى الاشفاق عليه ، والخوف من أن يكون خطابه هو خطاب الوداع ، وقد ضمنه آماله ، ومبادئه ، وتفنيده القوى لحجج خصومه ، ونداءه الخالد للمصريين ، وحضهم على العمل الدائم ، حتى تستعيد مصر مجدها القديم ، وتصبح كما كانت سيدة الأمم

قال الزعيم مصطفى كامل :

ــ دهش الذين كانوا لايرون فينا الا أمواتا تتحرك ، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الامة ، وقالوا عجبا : « أيحيا هذا الشعب ؟.. أتنهض مصر بنفسها ؟.. أتعمل للاستقلال وحدها ؟.. أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض ارادتها ؟.. أتقاتل اليأس والقنوط ، وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟ ! » ..

أجل يا أعداء مصر ، وألف مرة أجل .. ان مصر بالغة آمالها ، ومحققة أمانيها بارادتها وهمتها . اننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الى أشرف غاية اتجهت اليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية

نعم .. لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا واحدا ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل

الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والالوف بدل الآحاد للمطالبة بحقوق الوطن ، والحرية ، والاستقلال المقدس

« بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى .. لك حياتى ووجودى .. لك دمى ونفسى .. لك عقلى ولسانى .. لك لبى وجنانى .. فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر

***

ألقى مصطفى كامل هذا الخطاب فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وتنبأ بقرب وفاته ، وكان قبل ذلك قد بعث فى سبتمبر من ذاك العام الى شقيقه على فهمى كامل خطابا من باريس يشكو فيه ضعف جسمه ، واشتداد آلام الأمعاء عليه ، ويتنبأ بأن حياته قصيرة ، وأجله قريب

وعلى الرغم من اشتداد آلامه ، ونحول جسمه ، كان لا ينفك عن العمل ليل نهار بنفس فتية ، وروح قوية ، لا يقعد به الضعف عن الاقدام ، ولا يثنيه المرض عن الاستبسال . وقد دفعه كفاحه ضد خصوم وطنه ، الى كفاحه ضد راحة نفسه ، وتغلبه على ضعف جسمه

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

لم يرفق « مصطفى » بجسمه النحيل الضئيل ، حتى أصبح روحا فى هيكل عظمى ، أو أصبح كله روحا عجيبة تتكلم وتعمل وتسير بلا جسم ! واذا كان نهوضه الوطنى فى ذلك الزمان نادرا ، ونبوغه السياسى بين الشباب نادرا ، ونشاطه الفتى بين المجاهدين نادرا ، وتفانيه الكلى فى حب وطنه نادرا ، فلا عجب اذا أعطى روحا فريدة نادرة ، تفرض ارادتها على الزمن ، وتتغلب على المصاعب ، وتعيش سليمة قوية سواء أبقى الجسم أم تداعى وانمحى

نازل « مصطفى » المرض عدة مرات ، فكانت له الغلبة ، وفاز بالنصر ، وتماثل للشفاء ، فانتعشت آمال أصدقائه ومريديه . لكنه عاد فى أوائل يناير سنة ١٩٠٨ ، فشعر بتعب فى المعدة الى جانب مرض « الامعاء والكلى » ، فنصح له الاطباء بالاعتكاف فى فراشه

رأى الزعيم الشاب ان مرضه الشديد يخفى وراءه شبح الموت ، وانه على الرغم من قوة روحه ، لا يستطيع أن يكافح هذا المرض الفتاك ، ولكنه استسلم للراحة ، واعتكف فى فراشه عملا بنصح الاطباء ، لعله يطيل فى مدة حياته القصيرة أياما يخدم بها أمته وبلاده

وقبل وفاته بأيام دعا والدته ، فجلست بجواره ، وأخذ يحدثها عن آماله ، ويشكو اليها ما ألم به من أسقام ، فصارت والدته تطمئنه ، وتهون عليه مصابه ، فدمعت عيناه ، ثم أجهش بالبكاء ، والتفت الى أمه ، وقال :

— لست أبكى يا أماه على الحياة ، وانما أبكى على مصر المسكينة ، آه لو عشت عشرين سنة أخرى ، لمت هانىء البال ، مطمئنا على بلادى انها ستصبح مستقلة . نعم ، وأنا واثق انها ستكون سيدة العالم فى يوم من الايام

وهنا دخلت شقيقته الصغرى « نفيسة هانم » وشقيقه على فهمى ، فدعاهما للجلوس ، ثم أمسك بيد شقيقته ، وقال :

— كنت أتمنى أن أعيش طويلا ، وأراك عروسا فى منزل زوجك

والتفت الى شقيقه على فهمى ، وقال :

— ستتعب يا أخى من أجل مصر ، ولكن لا تحزن

***

كانت مصر فى ذلك الحين قد علمت باشتداد المرض على زعيمها الاكبر ، فهلعت قلوبها ، وارتاعت نفوسها ، واتجهت بآمالها الى الله داعية متضرعة أن يبقى لها ابنها البار ، الوفى لخدمتها ، المدافع عن حريتها ، وهرعت الوفود الى داره تسأل عن صحته

وفى يوم السبت ٨ فبراير ، أى قبل وفاته بيومين ، زاره الخديو عباس حلمى الثانى ، فنهض له الفقيد من فراشه واستقبله فى ابتهاج ونشاط كأن لم يكن به داء ، وعند توديعه ، قال له :

— لى رجاء يا أفندينا ، وأنا أشعر الآن بقرب الأجل ، أن تعطف على الحزب الوطنى ، فانه أمل مصر ، وقد وصلنا الى نجاح كبير فى مسألة

دنشواى ، واخراج اللورد كرومر ، وتغيير وزارة مصطفى فهمى ، وانشاء مجالس المديريات ، وانتصارنا لتركيا فى مسألة طابة

فطمأنه الخديو ، وتمنى له حياة طويلة ..

وفى مساء ذلك اليوم نام مصطفى كامل نوما مريحا ، وابتسم صباح الاحد عن هدوء واطمئنان وتفاؤل بشفاء الزعيم ، وزاره بعض أصدقائه ، وفيهم أمير الشعراء أحمد شوقى بك ، فجلس يحادثهم . وانه لكذلك اذ شعر بآلام شديدة ، فاستأذنهم فى الاستلقاء على فراشه ، وأسرع الدكتور صادق رمضان ، فقام باسعافه لتخفيف ما يشعر به ، فقال مصطفى لطبيبه : « هل هناك أمل ؟ .. »

فقال الطبيب : « نعم .. لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة »

فهز مصطفى رأسه ، وقال : « بل انى أذوب الآن وعما قريب أموت »

ثم التفت الى صديقه أمير الشعراء ، وقال له فى ابتسامة حزينة :

ـ سوف ترثينى يا شوقى .. نعم .. أليس كذلك ؟

فسكت شوقى ودمعت عيناه . وفى ذلك يقول بعد وفاة صديقه الزعيم :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معالم الجثمان
يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط ، وساعات الرحيل دوان
ونواظر العواد عنك امالها
دمع تعالج كتمه وتعانى
تملى وتكتب والمشاغل جمة
ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهششت لى حتى كأنك عائدى
وأنا الذى هد السقام كيانى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان

ووجدت فى ذاك الخيال عزائما ما للمنـــــون بدكهن يدان

وجعلت تسألنى الرثاء فهـــاكه من آدمعى وسرائرى وجنـــانى

وقام شوقى ، وقام سائر الصحب من الاصدقاء والمريدين . وهـدأ الزعيم قليلا ، وأقبل المساء ، فانتعشت صحته ، ونشطت بنيته وأخـذ يسامر أهله ويمازحهم ، ويلعب معهم « الكتشينة » . واستمر فى تلك الليلة يقظا الى الساعة الحادية عشرة . ثم نام . وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظ ، فوجد نفسه غارقا فى بحر من العرق ، فدعا بملابس أخرى فأبدلها بملابسه ، ثم نام نوما هادئا ، لم يزعجه فيه ألم

***

وفى العاشرة من صبـاح الاثنين ١٠ فبراير سـنة ١٩٠٨ ، دخل عليه شقيقه على فهمى ، وزميله محمـد فريد ، وبعض صحبه ، فسـألوه عن صحته ، فطمأنهم ، وجلس يحادثهم ثم لم يقو مصطفى على الحديث طويلا. ولاحظوا تغيرا فى لونه ، وجمودا فى عينيه ، وشرودا فى فكره ، فاستولى عليهم الجزع ، وسألوه عن ألمه ، فقال : « لا شىء ، لا تخافوا » ثم اتجه الى فريد ، وقال :

ــ تشجع يا فريد ، واستمر فىعملك بحكمة ، ليسهل علينا بلوغ الأمل

وصمت بعد هذه العبارة ، وكاد يغيب عن الوجود ، ثم تنبه قليلا ، وقال : « مسكينة يا مصر ! ! » .. وأخذ يردد هذه الكلمة ، وكانت آخر كلماته .. واستولى عليه تشنج لم يفق منه ، وصعدت روحه الى عالم الخلد فى منتصف الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم المشئوم

فكانت مأساة .. أية مأساة .. ومصابا أى مصاب ــ مصاب الوطن الحزين ، مصاب الشباب الناهض ، مصـاب النبوغ النادر ، مصـاب البسالة الفائقة ، مصاب الحجة الدامغة ، مصاب الاخلاص فى العمـل ، والجهاد فى سبيل الحق ، وفى سبيل الحرية والاستقلال !

الشيخ على يوسف

ـ نعم يا صديقى .. لقد خدمت بلادى نحو ربع قرن ذائدا عنها ، مدافعا عن حقوقها ، مجاهدا فى سبيل الاسلام والمسلمين ، حتى فقدت المال ، وهو عماد الحياة ، وأضعت الصحة ، وهى تاج السعادة ، وانتابنى مرض القلب فحرمنى كل راحة ، وأضعف منى كل أمل . وكنت أشعر بأن لى قلبا يحملنى الى المجد ، فصرت أشعر بأننى أحمل قلبا يسوقنى الى الموت ، وما أظن الا اننى خافق بين خفقاته ، وراحل فى نوبة من نوباته

ـ لا تخف يا شيخ على .. فلقد كدت تخيف بقلمك الموت ، وقد حطمت فى طريقك مخاوف الحياة

ـ ان هذا الداء ياصديقى قد نال منى ، وثقل على نفسى وجسمى ، وكان أثقل مما أحمله من أعباء الديون . وما أرى الصحة الا دينا يقتضيه القدر منا بالأمراض ، ولا أرى الهناءة الا قرضا يجود به الدهر ، وعارية تسمح بها سانحة من الزمان ..

ـ لكنك قضيت أيام صحتك فيما يوجب لك الحمد من وطنك ، ويستأهل الجزاء الأوفى من ربك .. فاذا شكوت اليوم الداء ، فما أحسبك تشكو من نفسك التقصير ، وتندم على فوات وقتك فى الاهمال

ـ احمده يا أخى على كل حال .. واذا مت فستطمئن روحى الى انى بذلت ما فى وسعى ، ونهضت بما استطعت فى سبيل مصر ، وفى سبيل الاسلام ، وفى سبيل الجامعة الاسلامية ..

ـ وفى سبيل الدستور ...

ـ حقا ، وفى سبيل الدستور أيضا . لقد فرحت مع الفرحين من صميم

قلبى للانقلاب الدستورى فى الآستانة ، وقدرت الأبطال المجاهدين من أجله حق قدرهم ، ولم أقف موقف الاعتراض عليه الا من حيث الشكل ، أما الموضوع فانى أرى الدستور لازما لحياة الدولة العلية ، وبقاء الجامعة العثمانية . وقد كان هذا الانقلاب ضروريا ، لأن هذا العصر الذى يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن ليسمح ببقائه فى الممالك العثمانية الا والحوادث تمزقها كل ممزق ، ولئن خشيت شيئا على الدستور ، فانما أخشى الجيش ..

ـ ولماذا ؟

ـ لأن السيف ، والحرية ، والدستور ، لا تبيت فى جراب واحد ..

ـ صدقت ..!

ـ ولأن تدخل الجيش فى الأعمال السياسية والادارية ، خطر على الدستور ، وخطر على كيان الأمة . والواجب أن يقف الجيش موقف الحارس ..

« وقد بعث لى الاستاذ سليمان البستانى من الآستانة يعاتبنى على ما كتبته فى « المؤيد » انتقادا لتدخل رجال الجيش العثمانى فى الشئون السياسية والادارية ، فأجبته بأن هذا التدخل أفقد الدولة التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين فى مجلس المبعوثان ، وفقدان التوازن قد حصر السلطة فى يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها فى وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادىء الدستورية الحقيقية ، فكان التذابح الذى وجد بين الحزبين . فاذا كان الانقلاب الذى جرى بعد ذلك قد خلع سلطانا مستبدا ، فانه أيّد استبداد جماعة لا يمكن أن تبقى للأمة وحدتها معهم اذا استمر استبدادهم بشئون الحكومة والأمة . ولهذا نخشى أن يفضى العمل الذى أريد به الدستور الى تمزيق شمل الأمة ..

قال محدثه وصديقه أحمد شفيق باشا :

ـ أصبت .. ولقد قرأت مقالاتك فى هذا الانقلاب ، فقدرت آراءها ،

وأكبرت فوائدها للدولة وللاسلام .. وما أكثر ما أفدت أيها « السيد » بآرائك ومقالاتك

ـ لكنى جنيت بهذه الفوائد مرضا أليما ، ودينا جسيما ، وأحسنت الى الدولة وأسأت الى نفسى . وما أظن الا انى ملاق حتفى عما قريب .. ولى يا أخى ملتمس أريد رفعه الى الخديو ..

ـ ما هو ؟

ـ بمدينة الاسكندرية وقف ، باسم السيد عبد الرازق الوفائى ، يتولى النظـارة عليه ديوان الاوقاف .. وهو تابع لوقف السادة الوفائية الذى أتولى النظارة عليه .. فهل تسعى لدى الخديو كى يصدر أمره بتحويل نظارة هذا الوقف وجعله تحت رياستى ؟

ـ سأبحث الموضوع ، وسأعرض الالتماس على سموه عساه يصدر أمره الخديوى بذلك ، وأرجو أن تتقابل فى صلاة الجمعة القادمة بحضور سموه ...

***

كان ذلك فى مايو سنة ١٩١٢ ، والخديو عباس حلمى يصطاف وقتئذ بالاسكندرية ، وكان حديث الشيخ على يوسف مع أحمد شفيق باشا ، بقصر رأس التين ..

وفى يوم الخميس التالى ، ذهب الشيخ على يوسف الى أحمد شـفيق باشا مدير ديوان الاوقاف وقتئذ ، وحادثه فى موضوع الوقف ، فأخبره ان البحث دل على أن عبد الرازق الوفائى لا ينتمى لعبد الرازق الوفائى التابع لأبى الأنوار السادات الذى يتولى نظارته الشيخ على ، وان الاسم لمسميين ، وان بين الواحد والآخر جيـلا كاملا . فاعترض الشيـخ على يوسف ، وناقش صديقه مدير الأوقاف طويلا ، ثم قام غاضبا ..

وفى يوم الجمعة ذهب الى قصر رأس التين ، ليقـابل سمو الخديو ، وليعرض عليه ما دار بينه وبين أحمد شفيق باشا .. فاستأذن سموه ، ولما مثل أمامه أخذ يشرح أمره فى تأثر عظيم ، وطال الشرح فاشتد خفقان قلبه ،

وشعر بوخز شديد ، ثم أغمى عليه بين يدى الخديو ، فاستدعى له طبيب القصر ، فقام باسعافه حتى أفاق من هذه النوبة القلبية التى كانت تصيبه فى بعض الأحيان ..

وكان فى قصر رأس التين وقتئذ سعد زغلول باشا ، واسماعيل أباظة باشا ، وحافظ بك عوض ، وشهدوا ما أصاب الشيخ على ، فاهتزت عواطفهم ، وكلهم صديق له ، مقدّر لمكانته ، معترف بفضله ..

وأقبل عليهم أحمد شفيق باشا فى القصر ، حينما علم بالحادث ، فقالوا له :

ـ ماذا بينك وبين « الشيخ » وحجته قوية وبرهانه واضح ؟ !

فأبدى لهم شفيق باشا رأيه .. ثم دعى لمقابلة الخديو ، فلما دخل وجد محمد سعيد باشا جالسا عنده ، فعرض البحث على سموه ، فقال سعيد باشا :

ـ لكن الشيخ على جدير بالتساهل ، ولست أرى رأيك فى الموضوع

فقال شفيق باشا :

ـ ان المسألة مسألة شرعية ، فلماذا يطلب الشيخ على من الخديو أن يقضى فيها ؟

وأحيلت هذه المسألة الى لجنة تبحثها وتقضى فى الموضوع ، وصرف المرض الشيخ على يوسف عن متابعة هذه اللجنة ، وكان داؤه يتفاقم بتوالى الأيام

***

وكان رحمه الله قد اعتزل الصحافة قبل هذا الحادث بنحو شهرين ـ أى فى ٦ مارس سنة ١٩١٢ ـ لاسناد مشيخة السادة الوفائية اليه . فكتب فى جريدة « المؤيد » كلمة الوداع ، قال :

« الى سادتى .. واخوانى .. ورصفائى قراء المؤيد ..

« بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها « المؤيد » وقمت بتحريره مسئولا عنه ، قد اضطررت منذ الامس بمقتضى أسباب عائلية قوية الى

أن أودع مهنة الصحافة التى أحترمها ، وأعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة كثيرا للهيئة الاجتماعية ، بل اضطررت الى أن أودعكم راجيا أن تكونوا حفظة كراما خيرين تذكرون الحسنة وتنسون السيئة (ان الحسنات يذهبن السيئات)

« على اننى مع هذا الوداع انما أترك وظيفة التحرير فى « المؤيد » ، وقد صار قوة كبرى فى خدمة الأمة ، بل انه بحيث لم أصبح فيه الا عاملا من جملة عمال كثيرين ، وكاتبا من كاتبين ، فهو لا يخلو يوما واحدا من آثار عشرات من كبار الكتاب المفكرين ، ولا يضيره الا يكون فيه واحد من هؤلاء . ولن تتخلى عنه الأمة التى أصبح وديعة فى ذمتها ، ان تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين

« وفضلا عن هذا ، فانى اذا تركت قلمى بجانبى ، فلم أكسره . وان عطلت وظيفة لى فى « المؤيد » ، فلم أعطل فكرى وضميرى . وسأقوم بما يجب على لوطنى كلما دعانى هذا الواجب بقدر ما أستطيع

« كما اننى سأبذل جهدى فى القيام بأعباء جمعية الهلال الأحمر (وكان قد أنشأها) لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام آن تؤدى وظيفتها المقدسة التى تتطلبها منها عواطف الانسانية الرحيمة

« وأسأل الله أن يوفقنى واياكم فى خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه »

***

ودع الشيخ على يوسف الصحافة هذا الوداع ، فكانت مفاجأة اهتزت لها نفوس القراء فى جميع أنحاء الشرق العربى ، بل فى جميع أنحاء العالم الاسلامى . وتوالت الرسائل على المؤيد ، تلح فى عودة « الاستاذ » الى الكتابة ، وأسف الناس كلهم لحرمانهم من قلمه الذى وصفه حافظ ابراهيم بقوله :

فى شقه ومراميه وريقته
ما فى الاساطيل من بطش ومن عطب

كم رد عنـــا وعين الغرب طامحـــة
من الرزايا ، وكم جـــلى من الـكرب
له صرير اذا جـــد النـــزال به
ينسى الـكماة صليـــل البيض والقضب

وبلغ التأثر بمحررى جريدة « المؤيد » من وقع هذه الاستقالة ، أن قدموا استقالتهم اليه قائلين :

ـ ان المؤيد جسم وأنت روحه ، وسعادتنا بالعمل فيه هى بالنسبة لكوننا مرءوسين بك ، وحيث انك استقلت من ادارته ورياسة تحريره ، فنرجو أن تقبل استقالتنا

فلما قرأ هذه الاستقالة ، جمعهم ، وجعل يطمئنهم ، ويشرح الاسباب التى أدت الى الاستقالة للانصراف لخدمة منصبه الجديد

اعتزل الشيخ على يوسف الصحافة ، وودع الكتابة ، وانصرف لخدمة السادة الوفائية . وفى أثناء ذلك رفع ملتمسه السابق لضم وقف الســيد عبد الرازق الوفائى الى وقف أبى الأنوار السادات ، فوقع بينه وبين صديقه أحمد شفيق باشا مدير ديوان الاوقاف خلاف لم يؤثر فى العلاقة التى بينهما ، ولم يلبث أن عاد الى صفوه ، واستأنف معه سابق وده . وكان نقاء قلب الشيخ على يوسف وكرم نفسه من أبرز صفاته

ولقد كانت بينه وبين مصطفى كامل باشا ، منافسة حامية تقطع بين الاخوين ، وخصــومة سياسية عاصــفة تقتلع ما بين الاقربين ، ومات « مصطفى » فكان بكاؤه عليه بكاء الشقيق المنكوب ، ورثاؤه له رثاء الصديق المسلوب ، فقد رثاه يوم وفاته بدموع دامية ، وعواطف ثاكلة ، وقلب مروع مفجوع ، وأشاد بمواهبه ، وأطرى جهاده ، وأكبر خدماته للوطن ، فقال فيما قال :

« اليك أيها الصديق القديم ، أرسل تحية الحزين من سويداء قلبه الى أعماق قبرك ، ذاكرا لك تلك السنين الثماني عشرة التى قضيناها معا فى خدمة الوطن .. لا فضل لما كان بيننا فيها من صفاء على ما تخلل صلاتنا

بعد ذلك من جفاء ، فقد كنا متناظرين ، أقرب منا الى أنفسنا متناصرين ، لا تحفل الا بما أكتب ، ولا أهتم الا بما تقول ، ولكن الصلات الشخصية كثيرا ما يعتريها بين الاخوين من الابوين — فضلا عن الصديقين — فلول، ثم تزول ..

« واليك أيها الصديق القديم ، والزعيم العظيم تحية محزون ، يعرف لك أكثر من كل انسان خدمتك العظيمة التى خدمت بها وطنك ، فأيقظت من شعور الوطنيين ما قامت مظاهرات الامس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن أثر ويد بيضاء »

***

وكذلك كان الشيخ على يوسف مع سائر أصدقائه ، فلما حدث ما حدث بينه وبين شفيق باشا مما أصابه بالاغماء بين يدى الخديو ، لم يحقد عليه ، ولم تعاوده موجدة كلما عادت اليه هذه النوبة القلبية . وقد استمر طول العام الاخير من حياته يصارع نوباته صراعا عنيفا حتى كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ فاشتد به الداء ، وثقل عليه البلاء ، واضطرب النبض ، واستحرت فى قلبه الآلام ، واستبدت دقاته كأنما هى وقع السهام :

فان أفشى النسيم لكم حديثا
بأنى قد قبرت فلا تشكوا
فمهما جئتمو بعدى فصلوا
على قبرى الجنازة ثم فابكوا (١)

وفى منتصف الليل ، طلب من أهله أن يدعوا صديقه عبد الخالق مدكور باشا فحضر اليه ، حانيا عليه ، ووجده فى حال تستدر الشئون .. ينوء بأوصابه ، ويهم من فراشه جالسا فى شهيق يفتت الأكباد ، وتلتاع له الأفئدة ، ثم ينتفض ماشيا فى هجوم كأنما يدفع عنه عدوا ، أو يرد مفترسا يريد أن ينقض عليه ، فيسلبه أعز شىء لديه ، حتى اذا وهنت قواه سقط

---

(١) البيتان من ديوان « السحر » نظم الشيخ على يوسف

على مقعده ، أو تخاذل فى مضجعه ، أو عانق صـديقه عناق المستجير من الآلام ، المستغيث من وخزات السهام

فواها لك أيها القلب .. طالما عشت دهرا كنت فيه لهذا الرجل العظيم أداة القوة ومبعث الحياة ، تنبض بالسعادة والهناء ، ثم أصبحت مصـدر الضعف ومثوى الشقاء ، تنبض بالآلام وتنذر بالحمام

وهمد الرجل العظيم فى مكانه ، فظن الواقفون حوله أنه فاض ، فأقبلوا عليه يستيقنون ، ففتح عينيـه وعاد لشكاته .. وضـاق بفراشـه ، فهم بالخروج من بيته فمنعوه ، فطلب أن ينقل الى قصر السادات بالجماميز ـ وكان وقتئذ مقيما بحدائق القبة ـ فأجابوا طلبه ، وحمل فى عربته فى وجه الفجر الى هذا القصر ، فكان يعانى سكرات الموت فى الطريق

وما كادوا يطمئنون به فى سريره حتى سكت القلب ، فسكت عنه الألم.. وصعدت الروح الى الملأ الأعلى فى سلام ، بعد جهـاد طويل فى سـبيل وطنه ، وفى سبيل الاسلام

السيد توفيق البكرى

ـ ياما أحيلى الوحدة والريف ، وذلك المشتى والمصيف ، والجو السجسج والظل الوريف (١)

ـ لكنك ياسيد توفيق قد أطلت الوحدة ، وملت بك العزلة . وحبست نفسك فيما لا يحبس الناس فيه أنفسهم ، وقيدتها فى غرفة ضيقة المذاهب ، قاتمة الجوانب ، لا تعرف فيها اليوم من الامس ، ولا تزورها أشعة الشمس ، وهى أشبه من البيت بالرمس . وما أنت فى الريف ، حتى تهنأ بالمشتى والمصيف ، والجو السجسج والظل الوريف ، وما لأحد غنى عن الايناس ، والجلوس حيث يجلس الناس

ـ وما لى وللناس ، وأميرهم العباس ، وقد مارستهم أشق مراس ، فلقيت منهم الغدر والباس ، وفقدت فيهم المودة والايناس

ذريتى وكتبى والرياض ووحـــــدتى
أظـــل كوحشى باحـــــدى الامالس
يســـــوف (٢) أزهار الربيـــع تعلة
ويأمن فى البيـــــداء شر المجالـــــس

رحماك ان عزلة بين كرم وأعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والانس للنفس ، وان اجتماعا بكبير يزار ، أو رئيس لا يجد نفسه بالليل ، ولا تجده فى النهار ، أو عدو ليس من صداقته بد ، أو حقود ذله أظهر منه الود ، أو حسود ملق ، كالذبالة يضحك وهو يحترق ، أو جاهل متعاقل ،

---

(١) الجو السجسج المعتدل . وقد راعينا فى هذه المأساة طريقة السيد البكرى فى السجع
(٢) يسوف أزهار الربيع اى يتصبر بها. والامالس جمع أمليس ، وهى الفلاة

أو متصفح وهو باقل ، أو صغير به كبر ، أو خدين فيه غدر ، لهو وايم الله الوحشة والوحدة

جزى الله عنى مؤنسى بصدوده جميلا ففى الايحاش ما هو ايناس

فقال محدثه وصديقه الشيخ على يوسف :

ـ وهل يسرك أن تقاطع الاخلاء ، وتتناسى الاصدقاء ، وتفر منهم كما يفر السليم من الداء ؟..

قال السيد توفيق :

ـ وأما الأخلاء والصحب والسجراء (١) ، فحسبك من رجل عون فى أمر لم ترده ، ونصير فى كل مطلب لم تقصده ، فان عرض لك بعض الحاج ، فالعلوى يسترفد الحجاج ماء ، يتلون بلون الاناء ، ونيلوفر يدور مع الشمس فى الصباح والمساء . ان جددت فاليك ، وان شقيت فعليك ، مدح مع المادح ، وقدح مع القادح ، أجسام متدانية ، وقلوب متنائية ، وان كان خبر سوء فحماد الرواية ، مئذنة فى ظاهر مستقيم ، وباطن معوج سقيم .. !

ـ كذلك كان الناس ، منذ خلق الله الأجناس ، ورب شر لو لم يقع لما وقع الخير . وقد سارت سنة الحياة على أن يحمل الانسان أخاه الانسان ، بما فيه من طماعية النفس وخسة الشيطان

ـ دعنى يا شيخ على .. فلقد صدق أحمد بن الحسين حين قال :

ومن عرف الأيام معرفتى بهـا
وبالنـاس رؤى رمحـه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفـروا به
ولا بالردى الجـارى عليهم بآثم

ـ أراك ضقت بالدنيا ، وما عهدتك الا سمحا صبورا ، فما بك فى هذه الأيام ؟.. لعلك أنهكت أعصابك ، فأرح نفسك ، فانك على ما يبدو أحوج الى الراحة ، وأولى بالهدوء والاطمئنان

(١) السجراء جمع سجير وهو الصديق

ـ عندى قصيدة أنظمها ، ومقالة أرسمها ، وأحب أن أسمعك شيئا ..
ـ لا .. دعك من النثر والشعر ، ومشاغل النفس والفكر

***

ونهض الصديق الشيخ على يوسف مودعا بعد زيارته .. وكان الجفاء وقتئذ قد عاد بين الخديو عباس والسيد محمد توفيق البكرى ، فقد نقم الأمير عليه أمورا دفعته الى قطيعته ، وأسلمته الى نقمته ، وكان قد كتب فى جريدة « اللواء » مقالا سنة ١٩٠٨ لم يرتح لموضوعه الخديو ، فغضب عليه . وزار « السيد » الآستانة . فأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة العلمية ، فكان العالم الوحيد الذى أنعم عليه فى مصر بهذه الرتبة . فجاهر الخديو بأنه سيسعى لبعض أنصاره العلماء فى الحصول عليها من السلطان، فقال السيد توفيق :

ـ أؤكد ان سمو الخديو لن يظفر بالانعام بهذه الرتبة على مصرى غيرى . وكان يعنى بذلك انه آخر من أنعم عليهم بهذه الرتبة ، ولما كان عدد المنعم عليهم محدودا فى الدولة ، فليس الانعام ممكنا الا اذا مات أحدهم ..

وسمع السيد توفيق ان الخديو توعده ، وانتقص قدره وسعى حساده لدى حاكم البلاد بالدس والوشاية ، فازداد توتر العلاقات بينهما . وجاءت الحفلة السنوية للمولد النبوى الشريف ، فحضرها السيد توفيق البكرى وسائر مشايخ الطرق بمريديهم وأعلامهم ومواكبهم دون موكب السادة البكرية ، فغضب الخديو وسأله : لماذا لم يحضر موكب البكرى ؟ .. فأجاب السيد : ان هذه بدعة ليست من الدين ، فانتهره الخديو أمام الحاضرين بكلمات رد عليه السيد بأشد منها ، وترك الحفل دون أن يستأذن من الخديو ، وذهب الى بيته فى حال نفسية شديدة أثرت فى أعصابه ، وأخذ الخوف يساوره ثم انقلب الخوف الى خيال مملوء بالمردة والشياطين ، وتمادى هذا الخيال ، فتطور الى مرض مقلق يتراءى فيه أعوان الخديو وقد أحاطوا به ، وأقبلوا عليه يريدون به شرا ، فاعتزل الناس ، وأوى فى منزله الى غرفة مقفلة الباب لا يسمح لأحد بدخولها الا

اذا هدأت أعصابه ، وعاد اليه هدوءه ، وزايلته أوهامه

وكان الشيخ على يوسف يزوره من حين الى حين ، ليخفف عن صديقه ما يعانيه من الوساوس النفسية ، والاضطرابات العقلية .. فيصيب منه تارة يقظة ورشدا ، وتارة أخرى قلقا وانسياقا مع الاوهام والاحلام ؛ فكان يرى من الاشباح فى اليقظة ما يراه الحالم فى المنام ، وقد وصف مرضه العقلى فى ساعة من رشده فى بيت لعله آخر ما نظمه من الشعر ، قال :

« قد كنت أحلم قبل اليوم فى سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا »

وقد اشتد عليه المرض ، حتى لم يدع له وقتا طويلا من هناء النفس ، ومتعة الفكر ، والأنس الى الصحب والاصدقاء .. وخالطه الخيال المشوش ، واستولى عليه الوهم المخيف ، فاعتقد انه مضطهد من الخديو عباس الثانى ، مطارد برجاله ، وكان يصرخ فى بعض الاحيان قائلا :

ــ الىّ أيها الناس .. يا بوليس .. يا نيابة .. يا حكومة .. يا رئيس النظار .. رجال الخديو يريدون قتلى ! ..

واستمر يخلط فى أقواله وأحاديثه .. ولازمه هذا الخوف ، وتراءت له الأشباح فى صباحه ومسائه ، وقيامه ومنامه . وكان اذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد ، ووراء الأبواب والستائر ، خشية أن يكون أحد رجال الخديو متربصا له

وأخذ يبعث بالرسائل الى النائب العام ليحميه ، والى محافظ العاصمة ليبعث اليه من رجال البوليس من ينقذه ، ثم يكتب البرقية تلو البرقية الى بطرس باشا غالى رئيس النظار وقتئذ يشكو له رجال الخديو ، ويتهمهم بتآمرهم عليه ، فيرد عليه رئيس النظار بأن الحكومة ستتخذ الاجراءات اللازمة لحمايته ، ثم يأمر النائب العام أن يزوره فى قصره ليطمئنه

وطلب السيد توفيق صديقه الشيخ على يوسف ذات يوم ، ورغب اليه فى الذهاب الى الخديو ليرسل اليه رئيس ديوانه ليطمئنه ، فأجاب الصديق

رغبة صديقه ، وقابل سموه ، وشرح له حالته ، فأشفق عليه .. وبعث أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى ليؤكد له رضاه عنه ، ويذهب عنه وساوسه ، لكن الداء قد استفحل .. واستبد بنفسه فلم يفده توكيد ولا اقناع ، ولم يغنه عطف ولا اشفاق

***

وبقى الأديب الكبير فى مصابه بنفسه يتألم ، ويشعر بالاضطهاد من الخديو ، ورجاله ، ومن الحكومة ، بل من أصدقائه وذويه وأهله ، بل من العالم كله . وعاش فى خيال مخيف تتراءى فيه أشباح القتلة والشياطين ، بعد أن كان يطير بعقله الذكى ، وقلبه الشاعرى فى أجواء سداها نور وجمال ، ولحمتها أحلام وآمال ، ونجيه فيها ضوء الهلال كما يقول :

« أيا ضوء الهلال لطفت جدا
كأنك فى فم الدنيا ابتسام »

« يحبب لى سناك العشق حتى
يصاحبنى وأصحبه الغرام »

« بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يشق الظلماء ، أو قلادة ، أو سوار غادة ، أو سنان لواه الضراب ، أو الليل فيل وهو ناب ، أو عرجون قديم ، أو نون من خط ابن العديم (١) ، أو برثن ضيغم ، أو مخلب قشعم »

ويقول على قبر عزيز : « أطلق الدمع وأطرق ، فقد غربت الشمس فى المشرق ، فيا هزيمة العقل ، وصولة الجهل ، ويا وحشة الدور ، وأنسة القبور ، أقبر هذا أم جفن فيه سيف جراز ، وترب فيه تبر وركاز (٢) ، وقليب هريق فيه ذنوب من كرم ، وجفر (٣) تهدم فيه بنيان من همم

« كم ذابت فى ذاك الثرى خدود وجباه ، وثغور وشفاه ، وسلب من أنف شمم ، وكم خربت فيه قصور ، وهتكت ستور ، وجمعت أضداد وفرقت أمهات وأولاد

---

(١) ابن العديم من المشهورين فى خط النسخ ، ومن علماء القرن السادس الهجرى. وهذه الفقرات من كتاب صهاريج اللؤلؤ للبكرى

(٢) الركاز ما ركزه الله من المعادن

(٣) القليب البئر ، والذنوب الدلو ، والجفر البئر الواسعة

لم يكونوا الا كركب تأنى برهة فى مناخه ثم سارا

« سبحانك اللهم وسعدانك ، من حبس ، الى رمس ، ومن عبث ، الى جدث .. ! ! »

وسبحانك اللهم وسعدانك من صحة الى مرض ، ومن خيال رفيع الشأن ، الى أوهام طافت بها وساوس الشيطان ، فغاض هذا النبع ، وجف هذا العين ، وتشععت هذه القوة ، وانطفأت تلك الجذوة ، وسكت هذا الشادى البكرى الألمعى ، فما سمعت له اذن صوتا بعد النكبة ، ولا طربت بأدبه نفس بعد الكارثة ، واعتزل الناس ، أو هم اعتزلوه ، ومات السيد البكرى قبل أن يموت بثلاث وعشرين سنة

***

وكان السيد توفيق من أصدقاء الخديو عباس فى مبدأ عهده ، ثم دس له الخصوم عنده ، فأخرجه من ساحته ، وألجأه الى الاستقالة من مشيخة الطرق الصوفية ، ثم عاد فرضى عنه ، وصفت له الأيام ، وابتسم له الحظ ، وعاد الى مشيخته

وفى ذلك الحين أقبل أحد أعياد الجلوس ، فتألفت لجنة لعقد مباراة بين الشعراء لاختيار أحسن قصيدة تقال فى مدح الأمير ، ففاز السيد توفيق فيها بالميدالية الذهبية

وأخلص للخديو أيما اخلاص ، ووالاه ولاء ضحى فيه بصداقته للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وتقديره له واعترافه بفضله . وكان اصلاح الأزهر ، فأراد الخديو أن يغير بعض أعضاء مجلس الادارة بآخرين من الموالين له ، فكان السيد توفيق البكرى أول الساعين لخدمته . وقد بعث بخطاب وقتئذ الى الخديو قال فيه :

« مولاى أدام الله ملكه ..

«أخبرنى محمد بيرم بك أمس بخبر، ولكنه يقبل قدم أفندينا بألا يسمعه أحد ، فانه ان سمع لغط ، وذلك الخبر هو أن الشيخ محمد عبده توجه أول أمس الى اللورد كرومر ، وقال ان سمو مولانا الخديو يريد رفتى ورفت

مجلس الادارة جميعه ، وطلب منه أن يتداخل فى الأمر ، فقال اللورد بأنه لا يمكنه التداخل ، ولما يئس الشيخ محمد عبده منه ، قال ائذن لى حينئذ أن أتوجه للاسكندرية ، وأتكلم مع سمو الخديو .. فقال له اللورد : أنا لا أمنعك أن تتوجه ، ولكن الأليق أن تنتظر سموه الى أن يحضر ، فخرج الشيخ محمد عبده وقابل بطرس باشا غالى ، فأشار عليه بالسفر الى الاسكندرية ، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه : « انى سأسافر هذا المساء الى الاسكندرية ، لمقابلة ولى النعم » .. فأشيع الخبر فى مصر بأنه سافر ، حتى انه كتب فى بعض الجرائد . ولكنى طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندى ، فسألته عن المسألة بوجه الاجمال ، لأعرف رأيه .. فوجدت انه خضع ، وغيّر الموضوع حيث قال : « انه لايوجد أدنى توقف منا فى تغيير مجلس ادارة الأزهر ، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تماما ، فنحن ننتظر مقابلته بالذات لنفهم الغرض فننفذه » ، وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحا بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء ، ولكن لسمو أفندينا بالذات ، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ محمد عبده لكرومر . ورأى عبدكم ان سموكم لاتظهرون لهم أدنى غضب ، ولكن حيث انهم لم يفهموا ، ولم يثقوا بأن أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم ، فسموكم تفهمونهم المسألة ، وتأمرونهم بتنفيذها فى الحال ، وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة

« هذا ، وعندى أشياء كثيرة سأتشرف بعرضها عند تشريف الركاب العالى الى هنا . أدام الله مولاى ولى النعم مؤيدا بالعز والنصر دوام الدهر

العبد الخاضع : محمد توفيق البكرى

« حاشية ــ المبدأ الذى يتخذه مولاى فى هذه المسألة هو هذا : انى أريد اصلاح الأزهر ، لأنى أعتقد انى باصلاحه أصلح حالة الأمة الدينية والأدبية ، ولكن لجنة الادارة الحالية ، لايمكنها أن تنفذ الاصلاح لسبب هو أن أعضاءها قسمان : قسم ضعاف جدا لا يصلحون للعمل ، وقسم

أذكياء ، ولكن الثقة الدينية مفقودة منهم ، فلجنة بهذه الصورة لايمكن أن علماء الأزهر يقبلون لها أمرا ولا نهيا ، وكل اصلاح منها يقابل بالرفض والهياج ، فأحببت أن أبقى الأذكياء ، وأبدل الضعفاء بآخرين حائزين للاقتدار والثقة ، فيكون من مجموع الكل لجنة مقتدرة ذكية فيها ثقة يمكنها أن تقنع العلماء بقبول الاصلاح

« أما الأعضاء فعندنا أسماء كثيرة منها الشيخ النجاتى مفتى الاوقاف الذى شمله مولاى بعنايته أخيرا »

واندفع السيد توفيق ، فى ضعف نفسى ، الى مناصرة الخديو عباس وتأييده ، وخذلان خصومه ، ثم دارت الدائرة عليه ، فكان لذلك وقع شديد فى نفسه ، وكانت العزلة مبدأ داء عصبى شديد ، ثم تفاقم الداء ، ومكث ثلاث سنوات يعانى آلامه فى مصر ، ثم سافر الى مستشفى العصفورية بلبنان سنة ١٩١٢ فبقى فيه الى سنة ١٩٢٨ ، وعاد الى مصر ، ضعيف البنية منهوك القوى ، يخطو الى القبر ، ويستقبل الفناء .. وما زالت أوهامه ملازمة له ، لكنها كانت تتخللها فى بعض الاحيان فترات يثوب فيها الى رشده ، ويذكر سابق عهده ، ويروى لمحدثيه جميل أيامه ، وما سمح به الدهر من لحظات ابتسامه ، ويستعيد الحوادث ويسوق الذكريات .. وكلما مرّ على حادث ذكر رجاله بالخير ، المحسن منهم والمسىء ، حتى اذا أتى على حادث الاستاذ الشيخ محمد عبده استغفر لنفسه ، وندم على ذنبه

وقبل وفاته بأيام ، كان اذا جاء ذكر الشيخ محمد عبده ، وما وقع له معه قال لمن حوله : « أحب أن يذكر عنى كل من يعرض للكتابة فى هذه الحادثة أننى أخطأت وانني آسف لهذا الخطأ »

وكان اعترافه بخطأه فى حق الامام آخر أحاديثه ، فلم يسمع منه بعده حديث منطقى ، حتى كان يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٢ ، فوافاه الأجل المحتوم بعد ما ذاق من دنياه أشق ما يذوقه الصحيح والسقيم

الفصل الثالث

أديبتان من الشرق

* باحثة البادية
* الآنسة مى

باحثة البادية

ورفع الطبيب يده وهو يقول : « خلاص .. ضاع الأمل » .. !

وصاح الحاضرون : « ماتت ملك » .. !

وأجهش الجميع بالبكاء ..

وذهل الوالد « الشيخ » حفنى بك ناصف ، وكأنه لم يكن مقدرا أن للموت سلطانا على « باحثة البادية » ، أو كأنه كان يرى أن لها من نبوغها ونفعها للمجتمع ، شفيعا لدى الأقدار ، يدفع عنها اليأس ، ويضمن لها الحياة أبد الدهر . وقد خدعته عاطفة الأبوة التى تحتل جوانح الآباء ، وتزين لهم أن أبناءهم فوق الموت ، يفزعون حين يتصورون أن للموت يدا تمتد اليهم فى يوم من الأيام ، وهم تحت سلطان هذه العاطفة القوية الطاغية لا يكادون يؤمنون بفناء الأبناء حتى فى الخيال ودائرة الأوهام ، فكيف بالواقع ؟ !

فاذا حدث ما ليس منه بد ، ووقع ما ليس منتظرا ، وصدمتهم الحقيقة ، كانت الكارثة هائلة ، والفجيعة لا تحتمل ، والصدمة تصرع النفوس ، وتذهل الألباب

لم يكن من الغريب اذن على « الوالد » حفنى ناصف أن يذهل يوم وفاة «باحثة البادية» بل لعله من الغريب ألا يذهل لذبول زهرتها ، وخمود جذوتها فى ربيع الحياة ، وفى وقت كانت تقود فيه نهضة نسائية ، وتقوم بحركة اصلاحية فى حياة المرأة المصرية .. كانت كاتبة شاعرة ، خطيبة بليغة مؤثرة ، تناقش وتدافع عن المرأة وعن حقوقها المهضومة ، رائدها فى ذلك الاعتدال ، والسير على سنة الدين الحنيف من المبادىء السامية التى

تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيّه

كانت تدعو الى مجاراة العصر الحاضر بقدر ما تسمح به الحاجة ، والاقتباس من الحضارة الاوربية بقدر ما يلائم حياة البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ، ولا ينافى القومية وروح الاستقلال التى تجب المحافظة عليها . وقد قالت فى محاضرة ألقتها على السيدات فى نادى حزب الأمة : « ان الضعيف اذا لم يرزق قوة التمييز خيّل له ان كل ما يأتيه القوى حسن ، ذلك مثلنا أمام المرأة الغربية ، فهل ترون أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من التمييز ؟.. أو ترون أن نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفى الأجيال القادمة من أولادنا ؟

« اذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح ، تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الاوربية الا الضرورى النافع بعد تمصيره ، حتى يكون ملائما لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات ، وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية ، وما يرقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة . ولا يجوز فى عرف الشرف والاستقلال أن نندمج فى الغرب ، فنقضى على ما بقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة »

وقالت فى موضع آخر : « لا أدرى أنفضل المرأة الغربية فى معرض الأخلاق أم تفضلنا ، فهى أشجع منا فى اقتحام الخطوب ، وان كانت لا تقل عنا فى المصائب ، ونحن لاينقصنا ذكاء كذكائها ، وانما ينقصنا عزم وثبات كعزمها وثباتها . هي تعمل لتعيش ، ونحن نتكل اما على آبائنا أو أزواجنا ، فلا نعمل شيئا . وهذا الاتكال معيب فى نفسه

« والمرأة الغربية تعتنى بكل شىء حتى التافه ، ونحن بما ركب فى طبعنا من المسالمة نميل الى الاهمال والكسل . وهى ولا شك أنشط منا ، وأثبت على العمل .. الا أننا أكثر قناعة ، وأشد رضا بالقليل »

***

وكانت تجاهد فى سبيل مبادئها طورا بالكتابة فى الصحف ، وطورا بالخطابة فى المجتمعات ، وكانت فى ذلك أمل الوالد ، وفخر مصر . وهى

أول فتاة مصرية بل شرقية انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر فى الدفاع عن حقوق جنسها .. وعن حقوق الرجال أيضا . وقد نظمت قصيدة حينما أعلن قانون المطبوعات الذى يحد من حرية الصحافة جاء فيها :

يا أمة نثرت منظومها الغير
حتام صبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم
حتى كأنكم الأوتاد والحمر
ستسلبون غدا أغلى نفائسكم
حرية ضاع فى تحصيلها العمر
حرية طالما منوا بها كذبا
على بنى النيل فى الآفاق وافتخروا

بقيت «ملك حفنى» ــ أو باحثة البادية كما كانت تسمّى نفسها ــ تجاهد فى سبيل مبادئها ، وتخدم النهضة النسائية مع قيامها خير قيام بالواجبات الزوجية ، وقد امتحنت فى حياتها امتحانا قل أن تصبر عليه فتاة ، ومع ذلك فلم تنل المحنة من آرائها فى حقوق الرجال والنساء ، ولم تؤثر الحوادث الممضة فى اعتدالها وحكمتها فى معالجة مشكلة الجنسين ، وان أثرت فى صحتها ، فأصيبت قبل وفاتها ببضع سنوات بمرض عرق النسا ، فمكثت تعانيه فى حلوان نحو أربعة أشهر . وفى هذه الأثناء بعثت اليها الأديبة الآنسة مى بخطاب تحدثت فيه عن نهضة المرأة العربية وما تعانيه من متاعب فى ذلك الحين ، فردت عليها باحثة البادية بهذا الخطاب :

الى الانسة مى ..

تفضلت فكتبت الى كلمتك العذبة فى « الجريدة » ، وكنت اذ ذاك بين مخالب الموت ، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك وان كانت مخيلتى لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاء جميلا لى فى مرضى الطويل المؤلم ، وبلسما ملطفا لجراحى البالغة التى قلت انك عثرت عليها . آلامى

(١) نشر فى الجريدة والمحروسة

أيتها السيدة شديدة ، ولكنى أنقلها بتؤدة كأنى أجر أحمال الحديد ، فهل تدرين ياسيدتى ما هو لى .. ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هـذه الحياة الدنيـا ويستولى عليهم غرورها فأطمع فى أكثر مما أنا فيه ، وليس لى حال سىء أشتكيه ولكن لى قلبا يكاد يذوب عطفا واشفاقا على من يستحق الرحمة ومن لايستحقها ، وهذا علة شقائى ومبعث آلامى .. ان قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد

ومالى أحمِّل نفسى أعباء غيرها ، وليست بمسيطرة على هذا العالم ، ولكنى كنت عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد وان كان تنفيذه شاقا ومحفوفا بالصـعوبات ويكاد اليأس يسد طريقى اليه

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل ، ولكنى كنت مللت المناداة باصلاح المرأة المصرية وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئـة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمـل لتكوين القومية المصرية المطلوبة ، وما حركتهم التى ملأوا بها القطر صراخا الا عنوان نهضة كاذبة

تسألينني ياسيدتى أن أدلك وسط هـذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذى يحسن بالفتاة نهجه ، وانها لحال توجب الحيرة . ولا ندرى أى الطرق نسلك لنصل سريعا الى الغاية التى نقصد اليها . كلنا يرمى الى تقدم الفتاة وتنورها ، واعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأمًّا نافعة أبناءها ووطنها ، ولكن لكل مناد بالاصلاح وجهة هو موليها .. فبعضهم لايرى لهذا التـأخر والجهل من سبب الا كان راجعا للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالا ونسـوا حكمة التأنى والتحفظ عند ارادة الانتقال من طور مظلم مألوف الى طور لم يعهـد من قبل تكتنفه المدهشـات واللوامع البـراقة الجذابة التى تكاد تغشى الابصار

وفريق لايرى للسفور فائدة ويقول ان الحجاب لا ينفى العلم وان اطلاق الحرية للمرأة أخيرا كان سببا لفسادها ، وان اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها فى المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن . فأى الطريقين نسلك ومن تتبع ؟ اننا معشر النساء لايزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهى فينا حتى أصبحنا ولا رأى لنا فى أنفسنا . فاذا قال لنا اختبئن حتى تدفن بالحياة صونا لكنّ وتدليلا كما يقول المتنبى فى رثاء أخت سيف الدولة :

على المدفون قبل الترب صونا

وكقوله فى أخت ممدوحة الثانية من رثاء أيضا :

وما رأيت عيون الانس تدركها
فهل حسدت عليها أعين الشهب
وهل سمعت سلاما لى ألم بها
فقد أطلت وما سئمت عن كثب

اذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا ، واذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا ، واذا أراد تعليمنا تعلمنا . فهل هو حسن النية فى كل ما يطلب منا ولأجلنا ، أم هو يريد بنا شرا ؟.. لاشك انه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قبل ولا شك انه يخطىء ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن

نحن لا نأبى أن نتبع رأى العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولكننا لايمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ، ولا يستبد فى (تحريرنا) كما استبد فى (استعبادنا) . اننا سئمنا استبداده . اننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس ، وانما نخاف عينيه ولسانه ، فان وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه ، وأن يصون لسانه كما يوصيه الادب نظرنا فى أمرنا وأمره ، والا فكل مناصر يفعل ما يشاء . والسلام عليك أيتها الفاضلة . من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير

باحثة البادية

كان نتيجة جهادها لنهضة المرأة ، أن ضعفت صحتها فى أواخر سنى الحرب الكبرى ، وهى بعد لم تتجاوز الثانية والثلاثين ، وزاد فى ضعفها ما كانت تعانيه من آلام نفسية لمرض والدتها ، وشيخوخة أبيها ، واتهام شقيقها « مجد الدين » بتهمة سياسية كادت تؤدى به الى الحكم عليه بالاعدام فى عهد السلطة العسكرية التى فرضت الاحكام العرفية على البلاد

فى وسط هذه الآلام ، وبين هـذه الأعبـاء التى كانت تحملها بصبر وجلد ، وعزم وثبات ، أصيبت سنة ١٩١٨ بالحمى الاسبانيولية ، وهى ببادية الفيوم ، فنصحها الطبيب ألا تفارق غرفتها ، ولا تركب عربة ولا قطارا ، ولكنها الأخت الحنون ، والابنة البارة التى ترى من واجبها أن تلازم والديها يوم الجلسة التى حددت للنظر فى تهمة أخيها أمام محكمة الجنايات ، فخاطرت بحياتها ، وخرجت برغم ارادة طبيبها ، وسافرت الى القاهرة ، ونزلت بمنزل أبيها بشبرا

وجاءها نبأ براءة أخيها « مجـد الدين » ، فسرت واطمأنت ، ولكن الحمى كانت قد تمكنت منها ، وأتاح لها عبء السفر أن تتفاقم شدتها ، حتى أضعفت حركة التنفس ، فنصـح الطبيب بمساعدتها بالاكسجين ، فكان يعبأ لها فى أنابيب جلدية ويعطى لها

وفى يوم ١٧ أكتوبر ساءت حالتها ، واشـتدت وطـأة الحمى عليها ، وذهب شقيقها مسرعا الى الصيدلية لجلب الاكسجين . وما كاد يعود الى منزله حتى قابل فى الطريق زوجها عبد الستار الباسل وقد عقد لسانه ، وبدا عليه الهلع ، فأيقن ان الخطب قد نزل ، وان « باحثة البادية » قد فارقت الحياة بهمومها وآلامها ، وصعدت روحها الى السماء

ولكنه فزع بآماله الى الكذب ، واصطحب زوجها الى أقرب طبيب ، فاستدعياه ، وذهبا معه الى حيث ترقد الأديبة النابغة على فراشها وخادع الجميع أنفسهم فى موتها ، وزعموا انها مغمى عليها . ولكن أين

الاغماء من الموت ؟.. وأين الخداع من الحقيقة ؟.. وما كان للموت أن يخدع

وأقر الطبيب بعجزه ، واستسلم للقدر ، ورفع يده وهو يقول :

ــ خلاص ، ضاع الأمل ..

وصاح الجميع : « ماتت ملك .. »

وذهل الوالد حفنى ناصف ، وخر مغمى عليه صريع الاشجان والآلام كما قال حافظ ابراهيم :

قد زعزعته يد القضا ء وزلزلته يد القــدر
أنا لم أذق فقد البنــ ين ولا البنات على الكبر
لــكننى لمــا رأيــ ت فؤاده وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحــ رق زائريه اذا زفر
وشهــدته أنى خطــا خطوا تخبل أو عثر
أدركت معنى الحزن ــحز ن الوالدين ــ فما أمر

الآنسة مى

الحياة مد وجزر ، وآمال وأحلام ، وأفراح وأشجان ، وابتسام ودموع هكذا هى الحيـاة ، وتلك هى طبيعتهـا المعمرة المدمرة ، المضـحكة المبكية ، السارة المحزنة ، المحسنة المؤلمة

وكلنا يتعاطى هذه الكأس ويذوق حلوها ومرها . ويسبر منها الهناء والآلام ..

كانت الآنسة مى منذ هبطت مصر طفلة تعيش فى ظلال أبوين بارين لم ينجبا غيرها ، فأودع الله لهما فى تلك الابنة الوحيدة من النجابة والنبوغ وشرف السمعة ، ما لم يودعه فى آلاف من البنين والبنات ، فكانت قرة عيونهما ، وعزاءهما الوحيد فى الدنيا وآية فخرهما فى هذه الحياة

عاش الأبوان سعيدين بتلك الابنة النابغة ، مغتبطين بما أكسبت جنسها من جمال الأحدوثة ، وبما قامت به لقومها من خدمات أدبية مجيدة ، وبما أضافته من صفحات ممتازة الى تاريخ الأدب العربى ، وتاريخ المرأة العربية فى الشرق الحديث . ثم شاءت الحياة القاسية ، أن تمتد يد الآلام الى سعادة هذين الأبوين وأن تنقص من هناءة هذه الأسرة الكريمة ، فمرض الوالد « الاستاذ الياس زيادة » مرضا عضالا ، واشتد عليه المرض ، وزاد من شدته ما كان يصادفه من بعض الشركاء الذين يقاسمونه قطعة أرض فى لبنان ..

وانقطع الوالد أشهرا فى منزله يعانى آلام هـذا المرض الوبىل . وقد كان يخفف من آلامه ، ويعزيه فى مصابه ما يراه من حنان زوجته ورعاية ابنته ، وعظيم برها ، وفائق فضلها على النهضة الأدبية التى رفعت شـأنها

وأتاحت لها فخرا لامعا بين الآداب الاخرى . ولقد كان هذا الفخر جديرا بأن يمد بغبطته وسروره فى حياة الأب ، لولا ان للعمر نهاية وللأجل غاية ، فطوى القضاء آخر صفحة من صفحاته فى سنة ١٩٢٩ ..

***

كان لوفاة هذا الوالد البار تأثيرعظيم فى نفس الآنسة مى ، فذاقت لأول مرة مرارة الحزن البنوى ، وجرعت أول كأس لمأساتها الاخيرة منذ هـذا المصاب الأليم ، وابتدأت قصتها المؤثرة بهذا الحادث الجسيم

وأطمعت هذه الوفاة « البعض » فيها ، فعانت شـقاء هـذا الطمع ، وصاروا يلاحقونها فى كل حين حتى ضاقت بهم ، وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة . وهى فى ضيقها الشديد ، وسأمها الطويل تصبر ولا تشكو ..

ومرضت والدتها واشتد عليها المرض ، فتفاقم الخطب ، وتضـاعفت الآلام . ثم شاء القدر الا أن ينزل بالكارثة الثانية فتوفيت الأم الحنون ، فتجدد حولها طمع الطامعين ، فكانت تصرفهم بما عرف عنها من بر وكرم

وكان صيف سنة ١٩٣٥ ، فجاء اليها بعضهم يطالبها بثلاثمائة جنيه ، لأن أرضها مرهونة فطلبت أن تطلع على وثيقة الرهن فأطلعوها وضيقوا عليها هذا الطلب . حتى ضاقت بحالها واشتدت آلامها ، وهى فى شكواها وضيقها .. لا تصرّح لأحد بما يثير فى نفسها هذه الآلام ، فأصيبت بمرض « الشعور بالاضطهاد » . وجسم بعضهم هذا المرض فكتب الى أقاربها فى لبنان ينبئهم بأن الآنسة مى أصيبت بالجنون ..! ويوصى بارسالها الى مستشفى العصفورية فجاء أحد أقاربها ، فوجدها حزينة كئيبة ، ضيقة بالدنيا ، فطلب منها هـذا القريب أن تسافر معه الى لبنان لتغير الهواء فأبت ، فألح عليها كثيرا فقبلت وسافرت معه الى بيروت ونزلت فى داره . وبعد أيام طلبت العودة الى دارها بمصر ، فأبى هـذا القريب وأصر على بقائها بلبنان ، فأصرت على العودة وهددت بالاضراب عن الطعـام فلم يأبه لهذا التهديد . ولم يسمح لها بالسفر ، فأضربت عن الطعام وبقيت أياما لا تأكل ، فخاطب مستشفى العصفورية فى نقلها اليه ، وهو مستشفى

انجليزى للأمراض العقلية بلبنان ، فحملت الى المستشفى

***

نزلت الآنسة مى مستشفى المجانين ، فما أروع تلك الساعة التى سيقت فيها أديبة الشرق الى هذا المكان .. وما أشد ألمها فى النفس وأفظع جرحها فى القلوب !..

أهكذا الدنيا ؟.. وهل هذا بلاؤها ؟.. فما أروع هذا البلاء !..

الآنسة مى نابغة نساء الجيل ، وفخر الأدب الحديث ، التى أهدت الى العقول ثروة عقلية كبرى ، والى النفوس جيلا كاملا من جمال النفس وسمو الشعور ، تنزل بين المجانين ، وتسلب من خير ما فاقت به الملايين !

ما أهون الحياة ، وما أسوأ الدنيا ، وأظلم الأقدار !..

والتفتت الآنسة مى حولها فى مستشفى العصفورية ، وتأملت حالها فى هذا السجن العجيب ، وقالت :

ـ أو لم يجدوا لى سجنا أشرف من هذا السجن ؟.. ما أشد قسوة الانسان على أخيه الانسان !..

وحرِّم على الآنسة «مى» تعاطى السجاير ، فبقيت تقاسى ألم هذا الحرمان من عادة يصاب المحروم منها بأشد المتاعب والآلام ، فبقيت تتوسل وتتلهف لعلها تصيب بهذا التوسل وذاك التلهف قلبا رحيما يشفق عليها ويثوب الى الانصاف فيطلقها من عقالها أو يسمح لها بتعاطى سيجارة واحدة . فلا تجد هذا القلب الرحيم المنصف فى ذاك المكان ، ولا ترى حولها من الاصدقاء من يعينها فى نكبتها ، أو يسأل عنها فى مصابها

وكأنما « مى » التى ملأت مصر وسائر بلاد الشرق أدبا وفضلا ، وشهرة وفخرا ، وتزاحمت النفوس على الاعجاب بها ، وتاقت الاسماع والقلوب الى الانصات اليها ـ اذا خطبت أو تحدثت ـ كأنما «مى» هذه لا يعرفها انسان ولم تمر ببال زميل من الأدباء أو أخ من الاخوان

ابتأست « مى » ، ويئست من الحياة ومن عدالة الانسان . فأضربت عن الطعام ، وصممت على الاضراب حتى تموت . وعبثا حاول الأطباء

أن يصرفوها عن الاضراب ، فأصروا أن يغـذوها بالأنابيب من الفـم والأنف ، ومكثت على هذا الحال عشرة أشهر ، عانت فيها أشد الآلام وضعفت بنيتها ونقص وزنها حتى صار ٢٨ كيلوجراما ، وطلبت «مى» أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء فاجتمعت وقررت أن لا شيء بها ، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسى تقريرا ضافيا ينفى اصابتها بأى مرض من الامراض . لكن ادارة المستشفى رأت أن تستمر فى المستشفى مدة أخرى حتى تقوى بنيتها !

عجبت «مى» من حظها العجيب ، واتصل خبرها ببعض عائلات لبنان ، وكان عيد الميلاد ، فجاء أحد اللبنانيين المقيمين بفلسطين ليعيد عند أقاربه ببيروت ، ويدعى « الخواجه غانم » وهو من كبار التجار ، وفى الطريق مرت به السيارة بالعصفورية ، فسأل السائق عما يسمعه عن الآنسة «مى» فأخبره ان احدى قريباته وهى ممرضـة فى المستشفى أخبرته أن صحتها جيدة ولا شيء بها . وهى فى هذا المستشفى كالمسجون البريء ..

وصل الخواجه غانم الى بيروت فاعتزم أن يحدث أقارب الآنسة «مى» فى اخراجها فقابلهم وذهبوا معه لزيارتها فوجدها جيدة الذاكرة ، سليمة العقل . فخرج من عندها وقد أقسم ألا يعود الى فلسطين الا بعد أن تخرج من هذا المستشفى ..

بقى الخواجه غانم أربعين يوما يسعى حتى وفق فى مسعاه ، وخرجت الآنسة « مى » من المستشفى ، ولكن لا الى بيتها حيث تنعم بالحرية ، بل الى مستشفى للجراحة ببيروت ..

سافر الخواجه غانم وقد ظن أن الآنسة « مى » سوف تبـارح هـذا المستشفى بعد أيام ريثما يستأجر لها بيتا خاصا ، كما وعدوه بذلك ، لكن لأمرما لم ينفذ هذا الوعد ، وبقيت فى مستشفى الجراحة عشرة أشهر أخرى احتجت الآنسة « مى » وأضربت عن الطعام والكلام ، أضربت عن الطعام لأنها لا تريد أن تذوق طعام هذه الحياة المرة ، وأضربت عن الكلام لأنها أسفت لعقوق الانسان

وذات يوم زارها بالمستشفى الاستاذ فلكس فارس ، فكان أول شخص رأته من أصدقائها بعد عامين لم تر فيهما صديقا ، ولم تمسك فيهما قلما ، ولم تقرأ كتابا ، ثم زارها الاستاذ أمين الريحانى ، وكان قد جاء من أمريكا فعجب لحالها ، وذاع وقتئذ بين جمهور الأدباء فى لبنان أن الآنسة « مى » مسجونة ، فانبرت الأقلام تدافع عن قضية « مى » ، وتتساءل : « لماذا تسجن هذا السجن العجيب ؟ » . وذهبت طائفة من الأدباء وأبلغوا النيابة . فانتقل النائب العام الى المستشفى وقابلها . وبعد ٤٨ ساعة من مقابلتها . جاء اليها مدير البوليس ومعه ستة من الضباط المسلحين ، واثنان من المساعدين ، وأخرجها من المستشفى فى موكب انتظم فيه عدد كبير من سيارات الأصدقاء والمعجبين ..

ووصلت الآنسة « مى » الى المنزل الذى أعد لها وقدم لها الغذاء ، فتناولته بيدها لأول مرة .. وأمسكت بالشوكة والسكين بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعاما ، ولم تمسك بها شوكة وسكينا ..

وعادت اليها حريتها ، واطمأنت فى مسكنها برأس بيروت ، وسافرت الى الفريكة فقضت بها بضعة أسابيع . وألقت فى ذلك الحين خمس محاضرات ورسمت بريشتها بعض الصور

***

وقبل مرضها الأخير بقليل كنت أزورها ذات ليلة فلمحت فى وجهها شيئا من التفكير الحزين ، وفى حديثها هزة الاكتئاب والجزع . ثم سألتنى : « هل تعرف تفسير الأحلام ؟ »

قلت : « ولماذا ... هل رأيت حلما ؟ »

قالت : « انى رأيت حلما مؤلما . وقد نهضت من نومى حزينة خائفة »

فقلت لها : « وما هو هذا الحلم ؟ »

قالت : « رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة علىّ ملتحفة بالسواد ، فلم أتبين من هى .. حتى اذا اقتربت منى صرخت قائلة : « أمى .. ! » ، فبكت ... ثم أقبلت نحوى تضمنى الى صدرها وتبكى ، فبكيت لبكائها ، وقلت :

« مالك يا أمى ؟ .. » فلم تجبنى ..

« واستيقظت من نومى فازعة من هذه الرؤيا ، فهى أول مرة أرى فيها والدتى بعد موتها ، وقد شغلت بها حتى الآن بل تشاءمت ، وأيقنت انى سأموت قريبا ، أو يصيبنى مرض شديد .. »

قصت « مى » هذه الرؤيا ، وتقاطرت الدموع من عينيها ، ثم استجابت لما عرف عنها من شجاعة وتجمل ، وقالت :

— وهل عهدتنى من الجبناء ؟ .. انى لا أخاف الموت ولا أخشاه ، ان وراء الموت وجودا غير ملموس يدعى السعادة . وانى لأشعر باحتياج محرق الى التعرف اليها والتمتع بها ..

فقلت لها : « مثلك من أعطى روحا عاليـــا ، وأدبا خالدا لن يموت . لكنى أشفق من أن تسيطر عليك الاوهام ! »

قالت : « اننى لا أخدع بالأوهام ، غير انى لا آمن صروف الأيام ، فهل تسمح أن تبحث لى عن تأويل رؤياى ؟ »

فأخذت أطمئنها ، ولكنها ألحت أن أستشير خبـيرا بتفسـير الأحلام فوعدتها وذهبت أفكر فيما عسى أن أعود به اليها فى الاسبوع التالى ؛ وكنت أزورها كل أسبوع مرة ، ثم اخترعت لها تأويلا طريفا ، فلم يخف على ذكائها اننى أصانعها لأدخل على نفسها التفاؤل والاطمئنان . ولم يمض على ذلك بضعة أسابيع حتى مرضت وسافرت الى لبنان ..

* * *

سافرت « مى » الى لبنان ، وأدخلت مستشفى العصفورية ، ومكثت به نحو ثلاث سنوات لمرض عصبى ، ثم شاء الله أن ينقذها من سجن هـذا المرض بعد شفائها ، وعادت الى مصر ، ونزلت فى شقة استأجرتها لنفسها ، واعتزلت جميع أصدقائها ، لأنهم فى رأيها لم يكونوا أوفياء لها فى محنتها بلبنان . وما علمت بحضورها ، حتى وجهت اليها على صحيفة «الاهرام» هذه الأبيات :

أديبـــــة الشرق هزت مصر راحتها
بحسن لقيـــــــاك ترحيبا وتحنانا
عودى الى مصر مثل الشمس ساطعة
تزجى ضيـــــــاءك آيات وعرفانا
عودى الى النيـــل مثل الغيث مخصبة
يجدد النيل عهـــــــدا منك مزدانا
عودى الى بلد أشـــــــجى بلابله
سكوت بلبلك الصـــــــداح أزمانا
كم قد حزنا لبعـــــــد طال موعده
وكم حســـــــدنا على الأيام لبنانا
وكم شكونا فلم يســـــمع شكايتنا
دهر يبـــــــدل بالافراح أشجانا
كنا وكانت ليـــــــالى الفن عامرة
فجددى من ليـــــالى الفن ما كانا
وأســـــمعينا حديثـــــا كله أدب
يروى فؤادا الى الابداع ظمـــــآنا
واطلعى من ســـــماء العبـــقرية ما
غابت محاســـــــــنه عن مصرنا آنا
لا أخمد الله نورا منك مؤتلقا
قد صـــاغه الله اعجازا وتبيـــانا

وجعلت أبحث عنها أين نزلت حتى اهتديت . وفى ذات مساء دخلت عليها فجأة فوجدتها جالسة وحدها تسلى نفسها بشغل الابرة ، فحييتها وحيتنى ، وجلست معها ساعة . ثم صرت أتردد عليها ..

وقبل ثلاثة أسابيع من وفاتها انقطعت عنها لسفرى ، ثم عدت ، فعلمت أن « مى » مريضة فى مستشفى المعادى ، وانها قبل ذلك أغلقت البـاب عليها عدة أيام حتى ظن السكان انها انتحرت أو وقع لها مكروه ، فكسروا

الباب ، فوجدوها فى سريرها شاردة الفكر ، غائبة الوعى ، صامتة ، فجىء لها بطبيب ، وأجريت لها الاسعافات ، ثم نقلت الى المستشفى .. استفاقت « مى » ، واطمأن الطبيب ان القلب سليم ، ولكن كانت تنتابها فى فترات ، غيبوبة .. ثم تفيق منها ..

***

وفى منتصف ليل السبت فى الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٤١ بدأت « مى » تشعر بضيق فى التنفس ، وأخذت نبضات قلبها تسرع فى الخفقان ، فجعلت تصعد تنهدات أشبه بتنهدات الطفل وهو فى حلم جميل

سألتها الراهبة الممرضة عما تشعر ، فلم تقو « مى » على الكلام فرفعت يدها الى صدرها وأشارت ناحية القلب ان « هذا » .. ان « هنا » ..

انقطع الأمل ولم يعد للأمصال من قوة .. قد حم القضاء ولم يعد للطبيب البشرى من حيلة ، وجاء دور الطبيب الروحانى .. نادت الراهبة الكاهن فدخل على « مى » فوجد نفسا جميلة مستسلمة الى القضاء ..

وفى الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد ، التاسع عشر من ذلك الشهر خفق قلب « مى » الخفقة الاخيرة

كانت « مى » فى ساعتها الاخيرة أشبه بأن تكون فى حلم جميل : بسمة الاطفال على شفتيها ، واغماضة رقيقة فى جفنيها ، وعلى رأسها اكليل من الورود والازهار .. كأنها كانت فى ساعة تأمل وتفكير ..

سبحانك يارب السماء والارض جعلتها فى الحياة جمالا وجعلتها للموت جمالا ..

وخيّل الىّ أن « مى » على فراش الموت تردد شفتاها قولها :

« ثم أوحى الى بأن هناك وجودا غير ملموس يدعى السعادة ، وشعرت باحتياج محرق الى التعرف اليها ، والتمتع بتلك السعادة الأبدية » !

الفصل الرابع

الشعراء الثلاثة

* **اسماعيل صبرى**
* **محمد حافظ ابراهيم**
* **أحمد شوقى**

هـذا الفصل خاص بهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين نبغوا فى الشعر فقط ، وكانت وفاتهم بهذا الترتيب الزمنى ...

إسماعيل صبرى

ـ وددت يا حافظ لو انها كانت هى القاضية

ـ سلمت يا شيخ الشعراء ، ولا ذقنا فيك مرارة الموت وآلام الفراق

ـ لعلها أحلى من مرارة الوجود فى هذه الحياة الكثيرة الاحزان

وأراد حافظ ابراهيم ، أن يخفّف عن صديقه الكبير ، فقال لصبرى :

ـ لقد كانت تلك الغيبوبة التى أصابتك من صدمة القطار «بروفة» !

ـ كنت أود أن تكون حقيقة ، فقد ذقت من بلاء الحياة ، ما هون على عناء الموت ، وحبب الىّ الراحة الكبرى :

ان سئمت الحيـاة فارجع الى الار
ض تنم آمنـا من الاوصـــاب
تلك أم أحنى عليـــك من الأم
التى خلفتـــــك للأتعـــاب
لا تخف فالممـــــات ليس بماح
منك الا ما تشـــتكى من عذاب
كل ميت باق ، وان خالف العنـ
ـوان ما نص فى غضون الكتاب
وحيـــاة المرء اغتراب ، فان ما
ت فقـــد عاد ســـالما للتراب

فقال حافظ :

ـ لو لم يكن فى مدح الموت الا هذا البيت الاخير ، لكفانى اقتناعا برأيك ، ولكنا يا اسماعيل باشا ما زلنا فى ربيع العمر .. وما أرى هذه الصدمة التى أصابتك الا أخف صدمات الحياة

قال اسماعيل صبرى صدقت :

وجـدت الحيـاة طريق المما ت ، وكل الى حتفه يسرب

ويعثر فيـه الفتى بالشـبا ب ويدلف بالعـلة الاشيب

ويتعب بالزاد فيه الفقـير وأهـل الغنى بالغنى أتعب

ويشـقى أخو الجهل فى جهله ويحرج بالعـالم المذهب

موارد مشروعة للحيـا ة فأى مواردها الاعـذب ؟

***

وكان اسماعيل باشا صبرى وقتئذ محافظا للاسكندرية ، وقد سـافر الى القاهرة سنة ١٨٩٧ ، فاصطدم القطار فى طريقه ، فأصيب برضوض ، وعرته هزة عصبية أفقدته الشعور نحو عشرين يوما ، فلما أفاق لقيه شاعر النيل حافظ ابراهيم فهنأه ، فتمنى هو لو كان قد لقى فى هذه الغيبوبة أجله ، وقال :

مقـابر من ماتوا مواطن راحة فـلا تك اثر الهالـكين جـزوعا

وان تبك ميتا ضـمه القبر فادخر لميت على قيـد الحيـاة دموعا

***

وكان « صبرى » قد سئم الحياة ، واستخف بمتاعها ، وهو بعد لم يطو مرحلة الشباب ، فكان يكثر من ذم الدنيا وينعى الاطمئنان اليها ، والابتهاج لصفوها ، وما كان يضيق بالدنيا لمأرب أضاعه ، أو فشل أصابه ، فقـد أدرك من مفاخرها ما يزيد فى طمع الحريص ، وظفرمن مناصبها بما يغبط

وفخر الشهرة حظا تخلفت عليه ، ونال من بسطة الرزق ، ورغد العيش ، وفخر الشهرة حظا تخلفت وراءه حظوظ الكثيرين . ولكنه كان رقيق الطبع ، مرهف النفس ، تؤلمه ومضة البرق اذا بدت فى غير أوانها ، وتجرحه خطرة النسيم اذا مرت فى غير موضعها ، فكان يضيق بالدنيا ، لأنه يضيق بأهلها ، ويتبرم بالحياة ، لأنه يتبرم بضعف الاحياء ، ويؤثر الانطواء والعزلة ، ويثور على المجتمع لأنه ثائر على الاخلاق الفاسدة :

غاض ماء الحيـــاء من كل وجه
فغـــدا كالح الجوانب قفـــرا

وتفشى العقوق فى النـــاس حتى
كاد رد الســـلام يحسب برا

أوجه مثلما نثرت على الاجـــ
ـــداث وردا ان هن أبدين بشرا

وشـــفاه يقلن أهـــلا ولو أد
ين ما فى الحشـــا لما قلن خيرا

ثم يخاطب نجم « هالى » وكان قد ظهر فى ذلك الحين وتشاءم منه الناس فيقول :

أنت نعم النذير يا نجم « هالى »
زلزل الســـهل والرواسى ذعرا

ظن قوم فيـــك الظنون وقالوا
آية أرسلت الى الارض كبـــرى

ان يكن فى يمينك الموت فاقذفـــ
ـــه شـــواظا على الخلائق طرا

هـــل تلقيت من لدن خاذل البا
غى وحامى الضـــعيف يا نجم سرا

أمحيـــــــط بكل شىء ومرد
كل حى وتارك الســـهل وعرا

أغدا تستوى الانوف فلا ينـ
ـظر قوم قوما على الارض شزرا
أغدا كلنا ترابا ولا ملـ
ـك خلاف التراب برا وبحرا
أغدا يصبح الصراع عناقا
فى الهيولى ، ويصبح العبد حرا
ان يكن كل ما يقولون فاصدع
بالذى قد أمرت حييت عشرا

هذا ما كان لأجله يضيق بالدنيا ، ويستجير بالموت . وكان على رقته صارما فى الحق ..

حدثنى المغفور له داود بركات انه لما كان فى ذلك الوقت محافظا للاسكندرية استقدم الخديو عباس حلمى الثانى « ثورا » من سويسرا ابتاعه بمبلغ كبير من المال ، وكان الحجر مقررا على الحيوان القادم من الخارج فى عرض البحر حتى يثق الاطباء بخلوه من الامراض ، فحجر اسماعيل باشا على « الثور » ، ولم يأذن بانتقاله الى البر ، فأرسل اليه الخديو ليسمح بنقل « الثور » بحرا الى قصر المنتزه حيث يقضى أيام الحجر المقررة ، فرفض ذلك ، وقضى « الثور » أيام الحجر فى الميناء كسائر الحيوان فغضب الخديو ، وبعث أحد رجاله يلومه لمخالفته ارادة سموه فكان جوابه :

ـ أنا لا أخالف ارادة سمو الخديو بهذا الرفض ، لأنه هوالذى أصدر أمره بالحجر على الحيوان القادم من الخارج ، ولسموه أن يصدر أمرا آخر بفك الحجر وأنا أطيعه

لكن هذا الجواب لم يكن ليقوم اعتذارا عن هذه المخالفة . وما لبث اسماعيل صبرى باشا أن نقل وكيلا لنظارة الحقانية (وزارة العدل) وعلى الرغم من صلابته فى الحق ، وتشاؤمه فى الحياة ، وتحديقه كثيرا الى الموت ، كان حلو الدعابة ، لطيف المزاح ..

حدثنى المرحوم أحد زكى باشا قال :

« كان المرحوم الشيخ سليمان العبد ينظم فى كل مناسبة قومية ، وفى كل عيد اسلامى تاريخا ينشـــده أمام الخديو حين يقابل رجال الدين ، فجاءنى اسماعيل صبرى باشا يوما فى مناسبة من هـــذه المناسبات ، وقد كتب تاريخا من نظمه وقعه بامضاء الشيخ سليمان ، وطلب منى أن أنشره فى احدى الجرائد الكبرى ، فنشرته صحيفة « الجريدة » التى كان يرأس تحريرها الاستاذ أحمد لطفى السيد ، وبعد أيام قابلنـــا الشيخ سليمان العبد فى الطريق ، فهنأه اسماعيل باشا بجودة « تاريخه » الذى نشر فى « الجريدة » ، وأثنى على نظمه ، فتقبل الشيخ التهنئة شاكرا ..! فغادرناه ونحن لا نكاد نخفى ما عرانا من الضحك

« وكنت مسافرا معه من القاهرة الى الاسكندرية ، فخطر له ونحن فى القطار أن ينظم قصيدة يشكو فيها « شركة كوك » الى « القنصل » على أسلوب الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف فى ذلك الحين ، والمشهور بميله الى استعمال الوحشى من الألفاظ ، والاكثار من الجناس فى نظمه ونثره ، فجعل اسماعيل باشا ينظم ، وأنا أكتب حتى أتمها. وكان مطلعها :

يا أيذا « القنصـــل » المزجى زواجره
صـــوب السفين وثوب السوس سربله
أشكوك كوكك كى ينكب عن نكب
اذ كان كلا ، وكل مل كلـــكلـــه
أباتنى والجرشى (١) حشـــوها ضجر
ان مس جنبى خشب الفلك قلقـــله

وبعد ما أتمها وقفنا فى صالون القطار ، ننشدها ونترنح كما يفعل أهل الأذكار ، وبينما نحن فى نشوة « الجلالة » وقد أحاطنا شبح الشيخ حمزة

(١) الجرش بكسر الجيم والراء وتشديد الشين المفتوحة هى النفس

بهالته ، اذ بالقطار يقف على محطة العاصمة ، واذ بالخادم يفتح الباب ، فيجد « الجذبة » قد طارت بالألباب ، فيتقهقر مذعورا ، ويغلق البـاب بقوة ، فننتبه من الهيام ، ونغرق فى الضحك » !

وضحك زكى باشا ضحكة عالية وهو يحدثنى عن هذه الواقعة بدار العروبة بالجيزة حتى سقط منه كتاب كان بيده ، ثم قال :

« وفى اليوم التالى كتب اسماعيل باشا القصيـدة مقلدا خط الشيخ حمزة فتح الله ، وبعث بها الى جريدة « المقطم » فنشرتها بامضاء الشيخ ، فلما صدرت واطلع عليها الشيخ حمزة عجب ، وقال لأصدقائه :

ـ هذا الكلام كلامى ، ولكنى ما قلته .. !

وذهب الى ادارة « المقطم » ، وقابل رئيس التحرير ، وأخبره بذلك ، فأخرج له الورقة المكتوبة فيها القصيدة فقال :

ـ وهذا الخط خطى ، ولكنى ما كتبته ..!

واضطر رئيس تحرير « المقطم » أن ينفى فى اليوم التالى نسبة القصيدة اليه ..

***

وكان اسماعيل صبرى لا يسبيه من الحياة الا جمال المرأة ، وكان يروح عن نفسه متاعب الدنيا بالتغزل فيها . وكانت قصيدته « تمثال الجمال » أحسن ما قيل فى الغزل الذى يتمشى مع آداب العصر ، وقد ترجمت الى اللغة الفرنسية ، وكانت الحياة عنـده بدون التأمل فى المرأة لا تساوى شيئا ، بل لو مرت برهة من العمر لا يشعر فيها بالحب ، فانها تستوجب منه الاستغفار :

أبثك ما بى فان ترحـمى
رحمت أخـا لوعـة مات حبـا

وأشـكو النوى ما أمر النوى
على هائم ان دعا الشـوق لبا

وأخشى عليك هبوب النسيم
وان هو من جانب الروض هبا
وأستغفر الله من برهة
من العمر لم تلقنى فيك صبا

وكان يعجب بالأديبة النابغة « مى » ويتردد على صالونها فى أواخر حياته . وكان يحرص على شهود مجلسها يوم الثلاثاء ، وسافر يوما الى مدينة الزقازيق ، واضطر للتأخر البعض حاجته ، فبعث اليها يوم الاثنين بهذين البيتين :

روحى على بعض دور الحى حائمة
كظامىء الطير تواقا الى الماء
ان لم أمتع « بمى » ناظرى غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وبعث اليها يهنئها فى أحد الأعياد بغرة العام الجديد ، فقال :

يا غرة العام جوزى الأفق صاعدة
الى السماء بآمال المحبينا
انى سألت لك الأيام صافية
يا « مى » قولى معى بالله آمينا

***

وأصيب فى أواخر حياته بمرض القلب ، فكان ينتابه كثيرا ، ويمنعه من القراءة والتفكير . وتشتد به الآلام فيشتهى ضجعة القبر ، ويستغيث بالموت ، ويستعجله ، ويلومه لتوانيه ، ويقول :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الايام منى
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

وغلب عليه التصوف فى شعره حين دنا أجله ، وأحس قرب نهايته ، فكانت أبياته تشف عن الايمان العميق والطمع فى عفو الله ، والتخلص من أدران الدنيا ، والانصراف الى الحياة الاخرى

يا رب أين ترى تقـــــام جهنم
للظـــــالمين غـــــدا وللأشـــرار
لم يبق عفوك فى الســـموات العلى
والارض شـــبرا خاليـــا للنـــار
يا رب أهلنى لفضـــــلك واكفنى
شـــطط العقـــول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى
غضب اللطيف ورحمـــــة الجبـــار
يا عالم الأسرار حسبى محنـــــة
علـــــــمى بأنك عالم الأسرار

واستمر شيخ شعراء العصر يعانى داء القلب حتى أذاب نفسه ، فعادت لا تهفو لشىء ، ولا تنشط لقول الشعر الا ما كان خاصا بالموت ، فأكثر — وهو المقل — فى النظم فيه

وكان شهر مارس سنة ١٩٢٣ وقد بلغ التاسعة والستين ، فأصيب بذبحة صدرية ثقلت عليه ، وعانى فيها آلاما مبرحة ، وساعدت الشيخوخة وداء القلب هذه العلة القاسية ، فنالت من جسم الشيخ الضعيف ، واستبدت بصدره ، وتحكمت فى أمره ، وتوانى الموت فى اقدامه ، فضاعف هذا التوانى من آلامه . ومكث أياما معلق النفس ، معذب الجسم . وزاره حافظ ابراهيم ، فقال له : « ألم أقل لك منذ ست وعشرين سنة بعد صدمة القطار : « وددت يا حافظ لو انها كانت هى القاضية .. » « فقلت لى : « سلمت .. » .. فأين منى السلامة اليوم ، وقد حملت عناء الحياة الطويل ، وعناء الداء الوبيل ، وأنا أقضى الآن على فراشى كما يقضى الذبيح »

ثم سكت ، وانتابته سكرات الموت فذهب فى ٢١ مارس مبكيا من دولة الفضل والأدب

محمد حافظ إبراهيم

دخلنا عليه مسكنه بالجيزة .. أنا وبعض المريدين قبل أن ينزل به الحمام بقليل من الزمان ، فألفيناه فى جلباب أبيض وعباءة بنية ، وقد أمسك مدلكا طبيا فى يده ، فقلنا :

ـ ما هذا يا شاعر النيل ؟

قال :

ـ مدلك للأمعاء ، كلما ألمت بها آلام فزعت اليه ، واستجرت بعجلتيه ، فأديرهما على معدتى وأمعائى من الشمال الى اليمين ، وقد أديرهما على ساقى من أسفل الى أعلى ، ففيهما فائدة زعمها لى الطبيب ، وصدقتها التجربة

قلنا : قد يغنيك عن هذه الأداة حمية وصيام عن الشراب والطعام ، فما نحسب تعب أمعائك ، الا من كثرة غذائك !

فقال : ما هذا يا أولاد ؟.. كنا ننقم من الدهر شقاءه ، فجئتم تنقمون منا هناءه ، لقد جعنا فى شبابنا ، فلنأكل فى شيخوختنا ، وليس من الموت بد ، سواء أصمنا أم أكلنا ، فخير لنا أن نموت شباعا من أن نموت جياعا :

ـ وهل يغنى الشبع اذا دنت ساعة الموت ، وحلّ الأجل ؟ ..

ـ لا ، كما لايغنى الجوع !

ـ لكن فى الجوع ما يكسب الجسم صحة ، ويطيل الحياة ..

ـ لا أظن ، ولست أطمع أن تطول حياتى ، ووددت لو لقيت الموت عما قريب ، وانى لأعجب من دلفه فى بطء وكأنما أدركته الشيخوخة على توالى الاجيال ، فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفى نفسا سئمت العيش، ومرضت من الحياة والأحياء :

عجبت لعمـــــــرى كيف مد فطالا
وما أثرت فيه الهمـــــــوم زوالا
وللموت ما لى قد أراه مبـــــاعدا
وجل مرادى أن أوســـــــد حالا

ــ اذن فدعك من المدلك ، وليكن ما يكون !

ــ يا خبثاء .. آلام فى النفس ، وآلام فى الجسم . والله ما حرصت على البقاء بقدر حرصى على الصحة ، وما طمعت فى السلامة الا فرارا من بلاء الداء ، وقد يفر من النار المنتحر بلهيبها ، ويتشبث بالنجاة الدافع بنفسه الى الغرق

ــ ولماذا تتألم نفسك الآن ، وقد بسط الله لك الرزق ، فصرت من كبار الموظفين وعداد المحظوظين ؟ !

ــ ما تألمت لبؤسى فى الحياة فقط ، بل لبؤس مصر ، وضعف أخلاقها ، واضطراب أحوالها ، فلا والله ما تقوم لهذه الأمة قائمة الا اذا أتيحت لها تربية خلقية . وعندى أن تغلق المدارس خمس سنوات يتعلم فيها الشباب الأخلاق ، أو أن تغير وزارة المعارف برنامجها العلمى ببرنامج خلقى تستفيد منه الأمة ، ويخلق لنا رجالا ، فنحن لسنا فى حاجة الى العلم بقدر حاجتنا الى الأخلاق :

يقولون فى النشء خـــــير لنا
وللنـــــــشء شر من الاجنبى
أفى الازبكية مثـــــوى البنيـــ
ــن ، وبين المساجد مثوى الأب
أمور تمر وعيـــــــــش يمر
ونحن من اللهـــــو فى ملعب
وشعب يفر من الصـــــــالحا
ت فرار الســـليم من الاجرب

ـ لكنك تظلم أمة رزحت فى الاحتلال طويلا ، وناءت بأوزاره ، فأفسد أمرها ، وأضعف أخلاقها

ـ هذا حق ، فقد أنساها الاجنبى ماضيها المجيد ، وميراثها التليد ، بل أنساها كل شىء حتى الكرامة والرجولة

لحى الله عهد القاسطين الذى به
تهدم من بنياننا ما تهدما
سلام على الدنيا سلام مودع
رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنما

ـ أراك تكثر من ذكر الموت حتى فاضت به أشعارك ، وكلما اعتراك ضيق فزعت اليه ، وأشدت بالثناء عليه ، أفترى فيه علاجا لنفسك ، وتفريجا لهمك ، أم انه فرار من الميدان ؟..

ـ كلا ، بل رأيت الموت للحر أعصم ، ونجاة الكريم من لؤم الحياة أكرم ، وما أنا بهارب من الميدان ، ولكن حال مصر يستوى فيها الشجاع والجبان ..

فقد غدت مصر فى حال اذا ذكرت
جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها
قرم (١) تردد بين الموت والهرب

لقد ضاعت الحقيقة فيما بيننا ، واستوى الحسن والمسىء ، وهضم العالم العامل ، وأكرم المفسد الجاهل ، وشابت الفضيلة ، وأهلكت الحزبية المودة ، وفتكت بسداد الرأى ، وعصفت بالكرامة . وأصبحت الوطنية عندنا تجارة مأربها الربح الشخصى ، وغايتها النيابة أو كرسى الوزارة . وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت فيها الذمم

***

وكان حافظ ابراهيم رقيق الطبع دقيق الحس ، يتألم لكل شىء يبعث

(١) القرم بفتح القاف السيد العظيم ،والبطل الشجاع

الألم حتى لو كان مصدر الألم نفسه ، وقد أصيب فى أواخر حياته بشهوة البطن ، وهى شهوة تنوء المعدة فيها بأحمالها كلما جاء الطعام ، حتى أضعفت أمعاءه البطنة ، واشتدت بها الآلام ، فاضطر الى عمل جراحى بها يدعى « عملية افرنوف » . وقد نصحه الطبيب باستعمال المدلك كلما شعر بالألم أو أحس وقوف الهضم

وكنا نتردد على مسكنه فى زمرة من الأدباء ، وغاب عنه ذات مرة زائروه ، وانقطعوا مدة عن زيارته ، فلما قابلناه ارتجل هذه الأبيات :

أنا فى الجيـزة ثاو ليس لى فيها أنيس
أنكر الأنس مكانى ونأى عنى الجليـس
ليس يدرى من رآنى أطليق أم حبيس ؟..

فرد عليه الاستاذ محمد الهراوى بأبيات منها :

أنت فى الجيـزة خاف مثلما تخفى الشموس
قابع فى ركن بيت قد أظلتـه الغروس

وقابله ذات مرة المرحوم مصطفى صادق الرافعى وكان قد أزمع السفر الى بلاد اليونان . فقال له الرافعى :

ـ ألا تخشى أن تموت هناك ، فتموت يونانيا ؟ ! ..

فقال حافظ :

ـ أو ترانى لم أمت فى مصر ، ان الذى بقى هين .. !

وانتقل حافظ من الجيزة الى مسكن آخر بضاحية الزيتون بعد احالته الى المعاش بقليل . وفى ذاك الحين كتب له صديقه الاستاذ خليل مطران هذه الأبيات :

حبست على الوظيـفة منك نورا
تفقده الحمى والليـل غاش
وقيـدت القريض على افتقـار
من الوطن العثـور الى انتعـاش

فما صدقوا وغيرك قد عنوه
بقولهم أحيل الى المعاش

***

وفى هذه الفترة التى فصلت بين نهايته فى الوظيفة ، ونهايته فى الحياة نشر قطعا من الشعر السياسى أعادت سابق عهده فى هذا المجال ، وكان منها فى حياد الانجليز :

لا تذكروا الاخلاق بعد حيادكم فمصابنا ومصابكم سيان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان

ومرّ حافظ على مسكنه الأول بالجيزة قبل وفاته بخمسة أشهر ، فاهتزت فى نفسه الذكريات ، وأخذ يودع الحياة ، ويقول :

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرا ففى الأسر ذل كنت تأباه
فقلت يا ليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندى وأحناه
أسرى الشبيبة أحياء وان جهدوا أما المشيب ففى الأموات أسراء

كان هذا الوداع فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٢ ، وكان فى ذلك الحين أحسن صحة ، وأبهج نفسا ، وقد خلع عنه حياة الوظيفة فى دار الكتب بعد عشرين عاما ، وان لم يكن طول هذه المدة مكلفا بعمل كما يكلف الموظفون . وقضى حافظ المدة الباقية من حياته بين أصدقائه لم ينقطع عنهم يوما ، ولم يعتكف لداء ، بل بقى معهم مرحا طروبا كعادته الى ما قبل موته بقليل . وكان اذا ذكر الضعف والشيخوخة وما يليهما من موت قال انه يعتقد أن موته سيأتيه من أمعائه ، لأنها أضعف ما فيه ، وهى لا يصلحها دواء ولا صيام

واستمر حافظ لا يبالى بالموت ، أو قل استمر يمدحه ويناجيه ، حتى كانت ليلة العشرين من شهر يولية سنة ١٩٣٢ فسكن مرضه المعوى ، وحدث جلساءه فى تلك الليلة بما يشعر به من صحة جيدة ، لم يعهدها منذ سنوات

لكن لم يدر حافظ أن ما شعر به من صحة جددت فى نفسه الأمل ، كان خدعة القضاء ، وصحوة الفناء . وكأن الجسم اذا شعر بالموت مقبلا عليه اهتزت خلاياه ، واستجمعت ما فيها من قوة لتكافح الـكارثة ، فيشعر المريض بانتعاش نفسه ، ونشاط صحته ، ثم لا يلبث حتى تخمد جذوته ، وتخبو حركته ، كالمصباح اذا شارف النهاية توهّج واشتد لمعانه حتى يكاد يبهر العيون ، ثم يتخاذل ويحترق

كذلك كان حافظ.. فقد كان فى الليلة السابقة لليلة وفاته بصحة جيدة ، ذكر بها عهـد الشباب ، وريعان فتـوته ، ونضارة بهجته ، فجلس بين أصدقائه مسرورا ، ثم آب الى بيته متفائلا فى نحو منتصف الليل

اطمأن حافظ فى مخدعه ، وظن ان الحياة قد امتدت له سنوات أخرى ، وان شبابه الذى ضاع فى شجو وأنين، وخيبة وأشجان ، عاد اليه ليستأنف حظه فى رغد من العيش بعد بؤس ، وابتسام من الأيام بعد عبوس

أو أن الشيخوخة أرادت أن تديل له من الشباب ، وتعوض له ما ضاع عليه من متاع ، وأن تأتى بالمعجزة فى حياة شاعر أهرمته الهموم قبل أن يوافيه الهرم ، وقوضته الاشجان قبل أن تقوضه الشيخوخة ، وعاش طول حياته كئيبا مكلوما

نعم ، أو ان الحظ الذى طالما بكاه وناجاه ، قد أسعفه فى تلك الليلة وواتاه ، أو انه طوى من الأيام ما عاد به القهقرى فاستأنف عهد «الامام»، وما كان يعيش فيه من سعادة روحية ، وعطف جميل ، وحظ جزيل ، أو ان لحظات من الجنة أعارته بهجتها فى أواخر لحظاته ، فانتعشت روحه ، وذهب عن جسمه الألم

نام حافظ ، ولم تنم عنه عين الموت ، ولم تطل به راحة الكرى ، حتى أسرع اليه الخطى ، ووقف شبحه على سريره يناجيه :

ها أنذا يا حافظ ، دعوتنى مرارا فلم أجبك ، وناجيتنى أياما فلم أسمع اليك ، وأقبلت مستنجدا فأعرضت عنك ، وشكوت مرارة الحياة فقسوت

عليك ، وفزعت من ظلام الخطوب ففررت منك ، ومدحتنى بما لا تمدح به الغيد الحسان ، وأرباب العروش والتيجان ، فما عطفت نحوك ، ولا سمحت بلقائك ، لكنك وقد بلغت النهاية ، واستوفيت من الحياة ما شاء القدر ، فقد جئت مستجيبا لندائك ، مسرعا بعد بطء الى شفائك ، باعثا بك الى برد الثرى الذى تمنيته فقلت :

حن جنبـاى الى برد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضـجع لا يشـتكى صـاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب

***

وكانت ليلة الحادى والعشرين من يوليو سنة ١٩٣٢ وهى ليلة الوفاة فشعر بألم شديد يدب اليه لم يسبق أن شعر به . ثم أغفى قليلا ولكنه ما لبث أن استيقظ على ألم هائل انتابه فى السـاعة الثالثة بعد منتصف الليل فمنعه من التأوه ، ولم يستطع أن يفوه الا بهذه العبارة :

ـ عاوز طبيب .. ادعوا لى صـديقى عبد الحميد البنان يجيب لى طبيب حالا

وكان السيد عبد الحميد البنان نائما فى تلك الساعة ، فاستيقظ على دق التليفون دقا مزعجا فهب من فراشه وسأل : « من المنادى ؟ » فاذا به داعية من بيت حافظ تبلغه نبأ مرضه المفاجىء ، وترجوه أن يحضر توا مع أحد الأطباء ، فأسرع السيد عبد الحميد الى ضاحية الزيتون ومعه الطبيب ، ودخلا على شاعر النيل ، فوجداه صريع « الحمى الشوكية » فناداياه فلم يجب ، والتفت اليهما ودمعت عيناه ، ثم تحركت شفتاه فى غير صوت بالتأوه والاستغاثة ، ولم يستطع حركة ولا كلاما ..

ثم ودع الحياة فى سلام ، غير آسف على الدنيا وما تحويه من خطوب وأشجان وآلام ..

أحمد شوقى

لما قال أمير الشعراء أحمد شوقى فى رثاء شاعر النيل حافظ ابراهيم :

قـــد كنت أوثر أن تقول رثائى
يا منصف الموتى من الاحيـــاء
لـكن سـبقت وكل طول ســلامة
قدر ، وكل منيـــة بقضـــاء

قلنا : لقد نعى أمير الشعراء نفسه ، وآذنت شمس حياته بالمغيب ، وما نحسب انه مقيم بيننـا طويلا ، وقد لا ينتهى العـام ، حتى نفتقده بين الصفائح والرجام

وكنا وقتئذ فى آخر يولية سنة ١٩٣٢ ولم يجف دمعنا على شاعر النيل ، ثم مضت بعـد وفاته ثلاثة وثمانون يوما ، وفى صبـيحة اليوم الرابع والثمانين ــ وهو ١٤ أكتوبر ــ طوى مصر وسائر الاقطار العربية نبـأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها الى الكذب ، لأنه كان نبأ مفاجئا ، ولأنها كانت تتمنى لشوقى حياة طويلة ، ولها من نبوغه ثروة جديدة

وقبل أن يموت بأيام عاد فى المساء الى داره « كرمة ابن هانىء » ، فلما دخلها وقف بالحديقة وقال لسكرتيره :

ــ ترى .. كم قبرا تسع هذه الدار ؟..

فدهش السكرتير ، وقال له :

ــ ولماذا هذا السؤال يا باشا ؟ ! (١)

---

(١) كان شوقى يدعى بين عارفيه بهذا اللقب لانه كان يحمل رتبة الامتياز من الدولة العثمانية

فقال : « لا شيء ، لكنه خاطر مر بنفسى ، فذكرت الموت ، وطالما خالجتنى ذكراه فى هذه الايام ، فهب اننى مت فماذا يكون ؟ ! »

ــ عشت يا أمير الشعراء ، ولا روعت فيك مصر ، ولا فجع بك الشرق العربى

ــ لا تخف فليس الموت بالمصيبة العظمى ، وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد ، والقبر أبقى من هذه الدار ، وهو لا يشغل غير عشرة أمتار ، أما هى فقد شغلت خمسة آلاف متر ، فلو بنيت فى مكانها قبور لاتسعت لخمسمائة قبر ، أليس كذلك ؟

فأسقط فى يد السكرتير ، وعاد شوقى فاستأنف كلامه ، فقال :

ــ أى ان كرمة ابن هانىء تشغل من الارض ما يكفى ثلاثة آلاف من « الموتى » فما أعظم طمعنا فى دار الفناء ، وقناعتنا فى دار البقاء

ــ أراك اليوم تذكر الموت ، وقد نهيتنا عن ذكره فى مجالسك ، وتمنيت لنا منه النجاة ! ؟

ــ نعم ، ولكنى ما خفته يوما ، وما ذممته قط ولا لذت منه بالفرار ، ولا نقمت لأجله على الأقدار :

أنا من لا يرى الفرار من المو
ت ، ومن لا يرى من الموت بدا
انما الموت منتهى كل حى
لم يصب مالك من الملك خلدا
سنة الله فى العباد ، وأمر
ناطق عن بقائه ، لن يردا

« ولماذا الفرار من راحة بعد عناء ، ونعيم بعد شقاء ، فان « الحياة كعهدك بها معصية ، عن الحظيرة مقصية (١) ، وخلوة حلوة عواقبها نغص ، ومشاربها غصص ، أفعى خداعة ، ولذة لذاعة ، شوك بغّض الورد ،

(١) هذه الفقرات من أسواق الذهب لشوقى

وقذى نغّص الورد (١) ، أمور شتى الأعنّة ، وحوادث وقّع وأجنّة ، فقل لمن أطال التفكير ، وبالغ فى التنكير ، وكد باله ، ومد بلباله ، واحترق باحتراق الذبالة :

خل اهتمامك ناحيه وخذ الحياة كما هيه

« ولنعد الى كرمة ابن هانىء ، أليست واسعة الجوانب ، ثم أليست تتسع لخمسمائة قبر ، فى كل قبر ستة أموات ، فتكفى اذن ثلاثة آلاف ميت ، فبئس حرص الانسان وبئست نفسه المدمنة على الشهوات :

والنفس عاكفة على شـــــــهواتها
تأوى الى احقـــــــــادها وتثور
والعيش آمال تجد وتنقـــــــضى
والموت أصـــــدق والحيـــاة غرور

« نعيش ونمضى فى عذاب كلـذة ، وفى لذة كعـذاب . ونذهب من الأحلام فى كل مذهب ، ثم تنتهى هـذه الأحلام الى ذهاب . ونبنى من التراب قصورا ونحن لعمر الحق تراب . والفلك دائر ما لعصاه مستقر . ودولابه بالعالم سائر ، وعلى جانبيه المرتقى والمنحدر . نقض ايوان كسرى من أساسه ، وأتى الاهرام من أم راسه ، ودهى صرح الحمراء ، فقوض منه أعظم البناء ، ولم تبق له الخطوب الا عمدا قائمة ، كأنما هى على عباب الأيام عائمة

« أين رومية وقيصرها ، وجنة (٢) الطلح ومعتمدها ، وأين نابليون وصولته ، وصقر قريش ومنيته (٣) لقد صار القصر له قبرا ، ثم ذهب القبر وصاحبه ، وأصبح ذكرا فى الأفواه ، وخاطرا فى النفوس ، أو سطرا فى الطروس .. ثم ماذا ، أنسيت السؤال :

ـ كم قبرا تسع هذه الدار ؟

ـ . . . . . .

---

(١) الورد بكسر الواو الاشراف على المـاء للاستسقاء
(٢) جنـة الطلح هى وادى الطلح ، كانت متنزها باشبيلية للمعتمد بن عباد
(٣) المنية بضم الميم وسكون النون، قصر عبد الرحمن الداخل بمدينة قراطبة ، وقد دفن به

ـ أليست كرمة ابن هانىء تسع خمسمائة قبر ، وأليست هذه القبور تتسع لثلاثة آلاف من الموتى ، ثم ألسنا مسرفين جدا . لقد شغلنا من الأرض كبيرا ، وعطلنا من منافع الناس كثيرا . فبعدا لطمع الانسان يطلب الجاه ، ويستزيد من المال ، ويستعمر من الارض آلافا ، ويكلف نفسه المتاعب أضعافا ، ويبنى حول حجرته حجرات ، وفوق طبقته طبقات ؛ ويرجو أن ينطح بها عنان السموات ، وما درى ان الحياة دقائق ولحظات . فما أضله وأعجب عقله . لقد شغل بنفسه عن رمسه ، ونسى انه زائل ولو طال به المدى ، وانه واصل ولو أبطأت به المطية :

كل حى وان تراخت منـــــايا
ه ، قضاء عن الحياة انقطـــاعه
والذى تحرص النفــــوس عليه
عالم باطـــل قليـــل متـــاعه

« انى لأشعر بتعب فى هـذه الأيام ، وقد استهلك جسمى الضعف ، وعصرتنى الشيخوخة ، فما أبقت منى غير مخ فى عظام ، وروح فى جسم رمام (١) ، وما أحسب انى مقيم طويلا ، فيا ترى على أية الحالين يأتينى الأجل ، أبعد الرقاد أياما أم فى غفلة من النفس ، وسنة من الحس

وأى المصرعين أشـــد ، موت
على علم ، أم المـوت الفـوات (٢)
وهـــل تقع النفـــوس على أمان
كما وقعت على الحرم القطـــاة

***

وكان أمير الشعراء قد اشتد ضعفه فى السنوات الاخيرة ، وبدا أكبر من سنه ، ودفعته شدة ضعفه الى زيادة عطفـه على الفقراء ومواسـاة

---

(١) رمام بكسر الراء اى بال
(٢) الموت الفوات الذى يأتى فجأة

البؤساء ، وكان يقول : « حسبى أن أسمع من انسان انه مريض ، أو ضعيف أو بائس ، فيعرونى ألم عميق ، ووجد شديد ، هل تروننى أزور الآن العظماء أو ذوى الجاه ، لا ، اننى ضعيف وأحب الضعفاء »

ثم أنشد قوله عن نفسه :

أقول لهم فى ساعة الدفن خففوا
علىّ ولا تلقوا الصخور على قبرى
ألم يكف همٌّ فى الحياة حملته
فأحمل بعد الموت صخرا على صخر

***

وركب سيارته من داره قبل وفاته بقليل مع سكرتيره ، فذكرا فى الطريق الأزمة الاقتصادية الناشبة فى العالم فى ذاك الحين ، فتحدث عن وجوب الاقتصاد فى تلك الأيام ، ثم وصل الى مكتبه ، فتقدم اليه بعض ذوى الحاجة ، فنفحهم خمسة جنيهات ، ثم قال لسكرتيره :

ــ كنا نقول من دقائق انه يجب الاقتصاد فى هذه الأيام ، فهيا بنا ننصرف قبل أن يدركنا آخرون

وبينما هو يهم بركوب سيارته اذ أقبل عليه بائس ، فقال له : « ليس معى شىء » وأمر السائق بالسير . وما كادت السيارة تبتعد قليلا عن المكتب حتى أمر السائق بالرجوع . وقال لسكرتيره :

ــ ابحث عن الرجل الذى صرفته ، فلعله يكون فى حاجة أشد من الذين تقدموه ..

فبحث عنه حتى وجده فعاد به ، فقال له شوقى :

ــ لا تؤاخذنى ، فأنا مريض وأعصابى ضعيفة . فلا تتكدر من حدتى ونفحه مبلغا من المال ..

وكان شوقى قد أصيب بمرض تصلب الشرايين فى أواخر حياته ، وكانت أعصابه طول حياته ضعيفة ، وقد زادت ضعفا بهذا المرض ، وبما كان يبذله من مجهود أدبى فى شيخوخته ، فأصبحت تتأثر بأقل مؤثر ، حتى

تكاد تتأثر بخطرات النسيم ، أو بلمس الحرير . وكان اذا دخل عليه انسان ممن يعرفهم ومن لايعرفهم اختلجت أعصابه ، فيسلم عليه فى حركة عصبية ترتعش لها يده ، ويمكث نحو دقيقتين فى هذه الرعشة فلا يطمئن الزائر الى حديثه الا بعد برهة ، أو بعد أن يشرب القهوة

وقد نصحه طبيبه كثيرا بالكف عن العمل والانتاج ، والانقطاع الى الراحة من عناء الفن ، ولكن العمل الأدبى كان له طبيعة ، والانتاج الشعرى كان له ديدنا ، فكان من المحال أن يحقق رجاء الطبيب

واستمر يسهر الليل كله ، ويعانى قرض الشعر ، وتأليف الروايات ، حتى أشرف على الموت ، بعد ما مهد لها بهذا الضعف الجسمى ، والمجهود النفسى الذى كابده أربعين عاما ، فخلف للأدب العربى ثروة ضخمة ، وبنى لنفسه مجدا خالدا

***

وكانت أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فاعتزمت « جمعية القرش » اقامة احتفال فى يوم ١٤ من هذا الشهر لافتتاح مصنع الطرابيش ، ورغبت اليه أن يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده ، فنظم لها هذه القصيدة :

الملك بالمال والرجال
لم يبن ملك بغير مال
والمال ركن الشعوب يؤوى
اليه فى السلم والقتال

ثم قال :

الحمد لله قام منا
أواخر تمموا أوالى
وسد جيل مكان جيل
لله من سابق وتال

وما درى أحد أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء فى اليوم الذى تلقى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت .

ففى اليوم السابق لهذا اليوم أحس شوقى بتحسن فى صحته ، فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الهنىء الذى ذاق فيه من متاع العافية والصحة ما لم يذقه منذ سنوات ، وكان يستعيد بما خالجه من طروب وسرور وبهجة الماضى ، وما طوى فيه من عيش ظليل ، وعهد باسم الوجنات جميل

وفى منتصف السابعة مساء ركب أمير الشعراء السيارة مع سكرتيره ، وذهب للرياضة فى مصر الجديدة ... وفى الطريق قال له :

ـ أرانى اليوم منشرح النفس جدا ، فانى أشعر براحة تامة ، واعتدال فى بنيتى ، وقد تناولت الطعام بشهية

وفى عودته مر بأحد المطاعم ، فتناول فيه العشاء ثم توجه الى دار جريدة « الجهاد » فدخل حجرة السكرتير ، وعلم صاحبها ورئيسها الاستاذ محمد توفيق دياب بقدومه ، فانتقل اليه ، فقدم له شوقى بك سيجارة ، ولاحظ الاستاذ دياب انه يسعل سعالا خفيفا ، فسأله عما به ، فأجاب :

ـ ذلك برد بسيط ، وهو عارض منتشر فى هذه الأيام

ـ لعله من اختلاف الفصول ..

ـ أظن ذلك ...

***

ومكث شوقى الى الساعة الحادية عشرة فى جريدة « الجهاد » ونهض قائلا : « انى ذاهب الى دارى لأستريح ، وألتمس شيئا من الدفء »

وركب السيارة حتى وصل الى كرمة ابن هانىء ، وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة فى الحديقة ، وقال لسكرتيره :

ـ هيه .. كم قبرا تسع هذه الدار ؟..

ـ لماذا يا باشا نعود الى هذا السؤال ؟ ! ..

ـ لا شىء .. لكنه خاطر مر بنفسى كما مر بها منذ أيام ..

ـ انه وهم باطل يمر كثيرا بنفوس الناس .. !

ـ بل ان الموت حق .. ثم .. ألم أقل لك ان هذه الدار تسع خمسمائة قبر وانها تتسع لثلاثة آلاف من الأموات ..

ـ لقد ذكرت لى انك بصحة جيدة ، فلماذا هذا الوهم المخيف ؟..

ـ لا شيء .. لا شيء .. اذهب ونم

وأوى أمير الشعراء الى مضجعه ، وأراد النوم ، فاعتراه أرق وسعال ، فتدثر حتى دفىء ، لكنه لم يسكن الى الدفء ، ولم يطمئن الى الفراش ، وشعر بآلام فى صدره ، ثم ضيق فى تنفسه فأيقظ الخادم وأمره أن يقوم باسعاف خاص بالتصلب الشريانى ، فلم يفده هذا الاسعاف . فأمره أن يستدعى الدكتور جلاد ، وأن يوقظ أسرته

وكان الموت يسرع اليه الخطى ، وينشر أجنحته على سريره ، ويناجى شاعرا طالما ناجى النجوم فى أفلاكها ، والطيور فى أجوائها ، والازهار على أفنائها ، وطوى القرون القهقرى حتى أتى الرشيد فى ناديه ، والمأمون فى مغانيه ، وسيف الدولة فى مجالس متنبيه ، فسحر النفوس بعجائب سحره ، وامتلك القلوب بعظمة شعره ، وسبق الشعراء الأوائل بعظيم انتاجه ، وبزّهم بفيض نفسه ، وباهر آثاره ..

وعاد الخادم ، فوجد سيده يجود بنفسه ، فطمأنه الى حضور الطبيب ، فقال شوقى :

ـ لا أمل بعد الآن . ان أمرى قد انتهى ، فسلام على أولادى وأصدقائى

وحضرت السيدة زوجته وأولاده ، فرأوه فى النزع الأخير ، فارتاعوا . وجاء الطبيب ، فوجد الشاعر العظيم يجود بأنفاسه فى الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الجمعة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

وقد أوصى أن يكتب على قبره من قصيدته نهج البردة هذين البيتين :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم

الفصل الخامس

الشعراء الكتاب الثلاثة

* حفنى ناصف
* مصطفى لطفى المنفلوطى
* خليل مطران

هذا الفصل خاص بهؤلاء الأدباء الذين نبغوا فى الشعر والكتابة . وكانت وفاتهم بهـذا الترتيب الزمنى ...

حفنى ناصف

فى سنة ١٩١٤ ميلادية أحالت وزارة المعارف الى حفنى ناصف تطبيق رسم المصحف الشريف الذى طبعته على رسم مصحف الامام عثمان بن عفان ، وعاونه فى هذا العمل المرحوم الشيخ أحمد الاسكندرى ، والشيخ مصطفى العنانى . وفى أثناء ذلك بلغ الستين من عمره ، فأحيل الى المعاش مع بقاء هذه المهمة مسندة اليه والى زميليه . وقبل أن يحل ميعاد اعتزاله وظيفة المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف بعشرين يوما كتب هذه الأبيات ، وكأنه كان يحس فى أعماق نفسه قرب نهايته ، فقال :

برزت فى سحر البيا ... ن وشاب فيه مفرقى
وقضيت عمرى فى البلا ... غة سابقا لم ألحق
وخدمت ديوان المعا ... رف مخلصا بتفوق
عشرون يوما قد بقيـ ... ـين وبعدها لا نلتقى
فتبلغى يا نفس بالمـ ... ـفروض للمسترزق
فات الكثير من الحيا ... ة وقل منها ما بقى

وكان حفنى بك أحد العلماء والأدباء الستة الذين وقفوا سنة ١٩٠٥ م على قبر الامام الشيخ محمد عبده يوم وفاته يرثونه ، وهم : الشيخ أحمد أبو خطوة ، وحسن عاصم باشا ، وحسن عبد الرازق باشا الكبير، وقاسم أمين بك ، وحفنى ناصف ، وحافظ ابراهيم . وقد اتفق أن مات الأربعة الأولون بهذا الترتيب . ولاحظ حفنى ناصف ذلك يوما ، وكان قد مرض حافظ ابراهيم ، وخاف الموت على نفسه ، فبعث اليه حفنى يطمئنه بهذه الأبيات :

أتذكر اذ كنا على القبر ستة
نعدد آثار الامام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا
ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولىَّ وقفاه عاصم
وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبىَّ وغابت بعده شمس قاسم
وعما قليل نجم محياى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وان أمت
فما أنت الا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف
ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا
فان المنايا عنك تنأى وتهرب

***

ولما مات جرجى بك زيدان فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، رثاه حفنى بك ناصف بمرثية ذكر فيها فواجع الموت فى الحرب ، ووصف هذه الحرب الحديثة وصفا دقيقا ، بل وصفا يدل على سعة اللغة العربية ، وسهولة تطورها مع تطور العصور متى كان الكاتب أو الشاعر متمكنا من لغته ، قديرا على الافصاح والتعبير عن كل غرض من الاغراض قال :

تعال فأرخ للأنام حوادثا ... تشيب لها الولدان هولا وتهرم
وأرهف يراعا للكتابة ماضيا ... فقد جاء عصر بالحوادث مفعم
لئن كان ما أرخت فى زمن مضى ... عظيما ، فما نستقبل اليوم أعظم
مدافع تستك المسامع دونها ... وتخرج من أفواههن جهنم
اذا فغرت أفواهها لكريهة ... تدك الرواسى ، والحصون تحطم
وسفن تبارت فى المسير أراقما ... اذا زال منها أرقم صال أرقم

اذا انساب منها بضعة نحو معقل فلا شيء مما ينفث الموت يعصم
وغواصة كالحوت تسبح خفية تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها تدل على جيش العدو وترجم
فتنقض منها كالصواعق تارة كرات ، وأحيانا تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ترد هواء الجو يعمى ويبكم
متى فارقت أنبوبها صرن صرصرا اذا اشتم منها القوم فالقوم جثم
ففى الجو تصعاق ، وفى البحر مارج وفى البر أعضاء تطير ، ومعصم
وفى كل ناد رنة وتحسر وفى كل دار أينما سرت مأتم
فياويح شبان تخوض غمارها ويا ويل شبان عن الموت أحجموا
لك الحق فانعم حيث أنت مع الألى تحب ، وخيم بينهم حيث خيموا
وفاخر بدار ليس فيها تباغض ونافس بحكم ليس فيه تحكم

قال تلك الأبيات حفنى بك قبل أن يموت بخمس سنوات ، وكان منذ أحيل الى المعاش متشائما لايرتاح الى الحياة ولا يطمئن اليها ، ويشعر بقرب أجله . وقبل أن يموت بنحو عام أصيب بشلل جزئى فزاد تشاؤمه ، وعز رجاؤه فى حياة قضاها فى جهاد وعناء ، وأيقن ان الموت مقبل عليه ، وان ما بقى له من دنياه لا يتجاوز بضعة أشهر أو أسابيع . وكتب وهو على فراشه هذه الأبيات :

أتقضى معى ان حان حينى تجاربى وما نلتها الا بطول عنائى
ويحزننى ألا أرى لى حيلة لاعطائها من يستحق عطائى
اذا ورث الجهال أبناءهم غنى وجاها ، فما أشقى بنى الحكماء

***

وشاء الله أن يخفف عنه هذا الشلل ، وأن يتماثل للشفاء ، وأن يعود الى مراجعة المصحف الشريف الذى تطبعه وزارة المعارف على رسم مصحف عثمان بن عفان

وبينما هو بين الأمل واليأس : الأمل فى أن يعيش بضعة أعوام فوق الخامسة والستين حتى يتم بعض مشروعاته العلمية والأدبية ، واليأس من

حياة أصابته فى نجله الكبير الذى سيق الى السجن بين شباب الثورة الوطنية

بينما هو كذلك اذ بنبراس حيـاته الساطع ، وبهجة نفسه الباسمة ، وزهرة قلبه الناضرة « باحثة البادية » تشكو الداء ، فيهلع « الوالد » ، ويرتاع لهذه الشكوى ارتياعا لم يعهده من قبل . وكأنه أحس الخطر ، ورأى بعاطفة الأبوة التى تكشف فى بعض الأحيانأستار الغيب أن مرضها هذا هو مرض الموت ، وان مصابه ومصاب الشرق العربى فيها ستحل فجيعته عما قريب ، وانه قدر عليه وهو الوالد الحنون أن يفجع فى أعز أبنائه اليه ، وأكرمهم لديه ، وأكثرهم عطفا فى شيخوخته عليه ، وأن يشهد هذه الكارثة التى تهد كيان الآباء ، وأن يحمل آلام هـذا الجرح الذى لا يندمل الا بالموت

لكأن الأيام نقمت من « حفنى » فضله على اللغة العربية ، ونبوغه فى الكتابة والشعر ، وما وهب من ذخر ثمين ، وفخر كبير فى كريمته ملك « باحثة البادية » التى كان لصوتها صدى فى أرجاء الشرق ، فأرادت أن تديل منه ، فأصابته فى شيخوخته بسجن ابنه ، ثم كانت الطامة الكبرى بمرض كريمته النابغة ..

عادت صحته الى الضعف ، وشعر بالمرض يرتد اليه ، ولكنه استقوى ، ونشط الى علاج ابنته ، ومنى نفسه ، واستهان بصحته ، وأتعب جسمه لتوفير راحتها ، وأجهد قلبه لتعجيل الشفاء اليها ..

فعل ما فى استطاعة أب رحيم رقيق العاطفة أن يفعله ، لكن ماذا تجدى الرحمة أمام قسوة القدر ، وماذا تفيد الرقة فى خشونة الخطب المدلهم ، والمصاب الفاجع ؟

ساءت صحة « ملك » ، وسارت الى الخطر ، ثم ماتت . فكان موتها نذير موته ، وكان مصابهـا داعية مصابه . فلم يقو على حمـل الخطب الشـديد ، واعتكف فى بيتـه مكلوم النفس ، مسلوب القلب ، محطم الاعصاب ، زاهدا فى الحياة ، ذاهلا عن كل شىء الا عن ذكر « ملك » ،

والتلهف عليها آناء الليل وأطراف النهار

وكانت حفلة تأبينها فى الجامعة المصرية القديمة ، ورأس الحفلة اسماعيل صبرى باشا ، وذهب حفنى بك محمولا اليها ، لفرط ما أصابه من ضعف وهم ومرض . واستمع الى كلمات المؤبنين فى حزن وألم ، حتى اذا جاء حافظ ابراهيم الى قوله :

وتركت شيخك لا يعى هل غاب زيد أو حضر
ثملا ترنحه الهمو م اذا تحامل أو خطر
كالفرع هزته العوا صف فالتوى ثم انكسر
أو كالبناء يريد أن ينقض من وقع الخور
قد زعزعته يد القضا ء وزلزلته يد القدر

حتى اذا جاء حافظ الى هذا القول فى رثائها ، بكى حفنى بك ، وأشفق عليه الحاضرون من شدة اللوعة والألم العظيم . ثم آب بعد انتهاء الحفلة الى بيته ، ودخل مضجعه وأخفى رأسه تحت الغطاء وبكى بكاء مرا ، وأخذ ينشد بعض الأبيات بنشيج مؤثر . ثم فقد رشده بضعة أيام . وكان يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير عام ١٩١٩ فأسلم روحه الى بارئها ، ولحق بكريمته كأنهما كانا على ميعاد ..

كانت الثورة الوطنية وقتئذ متأججة ، فلم تتح فرصة لتأبينه ، وبقى بلا تأبين حتى كانت ذكرى الاستاذ الامام التى أنشد فيها حافظ قصيدته البائية العصماء فى الحفلة التى أقيمت بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٢ ، فذكر حفنى فيها حين قال :

هدأت نيران حزنى هدأة
وانطوى « حفنى » فعادت للشبوب
فتذكرت به يوم انطوى
صادق العزمة كشاف الكروب

ثم مضت السنون وأنشئت محطة الاذاعة الحكومية فأحيت له فى عهد الثورة المجيدة ذكرى حسنة تحدث فيها بفضله ومناقبه طائفة من أعلام العلم والأدب

مصطفى لطفى المنفلوطى

... وصاح بلهجة صعيد مصر : « آه .. آه .. يابوى .. ! »

ثم التفت الى صديقه ، وابتسم ولم يتكلم ، وكانت هذه الآهة آخر كلماته ، وختام آهاته فى الحياة ، وكأنما كتب عليه أن يختم حياته بالتأوه والانين ، كما عاش متأوها من مآسى الوجود ، شاديا بأنات البائسين ، وزفرات المتوجعين

وأدار « السيد مصطفى » بعد هذه الآهة وجهه الى الحائط ، وهو على فراشه ، وكان صبح عيد الاضحى قد أشرقت شمسه ، ودبت اليقظة فى الاحياء ، ولكن الموت كان يدب فى هذا الوقت الى جسم الاديب فى هدوء وخشوع ، فلم يتحرك فيه طرف ، ولم تنتفض منه يد ، ولم تنطفىء لوجهه بهجة ، ولم تذبل له عينان ، ولم تلم به وحشة ، أو يخيم عليه من الفناء ظلام

بل سكن سكونا بليغا كسكون الساعة عند نهايتها ، وذابت أنوار نفسه فى ساحة الأبدية ، كما تذوب الاشعة فى الجو عند غايتها . واستمر صديقه الاستاذ محمد حسنى الجالس بجواره لايدرى أن مصطفى قد بارح عالم البؤساء الى عالم السعداء ، وارتفعت روحه مطمئنة الى نعيم الخلد ، بعد ما عانت آلام الارض ، فناداه :

— يا سيد مصطفى .. !

فلم يجب النداء ، فعاد يناديه :

— ياسيد مصطفى .. ياسيد مصطفى ..

فلم يسمع الدعوة ، ولم يجب النداء ..

***

واطمأن السيد مصطفى للموت ، وما كان يطمئن اليه يوما فى حياته ، ولا يأنس ساعة بذكره ــ على الرغم من ذمه للحياة وتصويره لجوانبها السوداء ــ فاذا ذكر المرض أو الموت ، أجفل وفزع من ذكرهما ، وضرع الى الله أن يؤخر يومه ، وينسأ فى أجله ، ويديم له الصحة ، ويسبغ عليه العافية

وما كان فزعه من المرض أو الموت لجبن فى نفسه ، أو لحرص على هذه الحياة الفانية ، بل كان يجهل من حظه فى الآخرة ما يجعله يقف موقف المتردد الحائر ، ويخشى على مستقبل أولاده الصغار خطوب الزمان ، وحوادث الأيام

وقد زاد خوفه من المرض والموت بعد الاربعين ، وكأنما كان يتنبأ بنهايته حين كتب آخر مقالة فى آخر جزء من النظرات بعنوان «الاربعون» قبل وفاته بتسع سنوات . فقال :

« الآن وصلت الى قمة هرم الحياة ، والآن بدأت أنحدر الى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون ، حتى أصل الى السفح بسلام ، أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى الى المصرع الأخير هويا

« سلام عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحا للآمال والأحلام ، وكنا نطير فى أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء فى آفاق السماء ، لانشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل لا نعتقد ان فى العالم هموما وآلاما . وكان كل شىء فى نظرنا جميلا حتى الحاجة والفاقة

« ... ما أنا آسف على الموت يوم يأتينى . فالموت غاية كل حى ، ولكننى أرى أمامى عالما مجهولا ، لا أعلم ما يكون حظى منه ، وأترك ورائى أطفالا صغارا ، لا أعلم كيف يعيشون من بعدى ، ولولا ما أمامى ، ومن ورائى ، ما باليت أسقطت على الموت ، أو سقط الموت علىّ »

تلك هى النبوءة التى تنبأ بها « المنفلوطى » حين بلغ الاربعين ، وذلك ما كان يخافه من الموت ، فلولا صبية صغار ، ولولا مآل مجهول ، ماجزع ولا تشاءم من هذا المصير ، ولا أخفى ما كان يصيبه من داء فى بعض الأحيان عن أولاده وزوجته . وقد أصيب بشلل بسيط قبل وفاته بشهرين فكتم آلامه عن صحبه وأصدقائه ، ولولا ثقل أصابه فى لسانه عدة أيام ما علم أحد بمرضه ، ولا استدعى طبيبا لعيادته ، لأنه كان لا يثق بالاطباء ، ورأيه فيهم انهم لا يغنون عن القدر ، ولا يدفعون نازلة القضاء ، ولعل ذلك هو السبب فى عدم اسعافه من التسمم البولى الذى أصابه قبل وفاته بثلاثة أيام

فقد كان فى صحة جيدة ، ونشاط تام ، لايشكو علة ، ولا يتململ من ألم ، وفى ليلة الجمعة السابقة لوفاته كان يأنس فى منزله الى اخوان يسامرهم ويسامرونه ، ويفاكههم ويفاكهونه ، ويناقشهم ويناقشونه فى الادب والموسيقى والسياسة والاجتماع ، اذ كان يعقد هذه المجالس فى كثير من الليالى ، ويفد اليه بعض أصدقائه من الادباء والسياسيين والموسيقيين ، حتى اذا قضى سهرته معهم انصرفوا الى بيوتهم ، وانصرف هو الى مكتبه فيبدأ عمله الأدبى فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

وفى الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة انصرف أصدقاؤه كعادتهم ، وبقى يتصفح بعض الكتب ، وانه لكذلك اذا به يحس بتعب فى أعصابه ، وضيق بسيط فى تنفسه فأوى الى فراشه ، وأراد النوم ، فاستحال عليه ، ومكث يعانى ألما فى الكلى ، وضيقا فى الرئتين

وأقبل صبح السبت ١٢ يولية سنة ١٩٢٤ ، واستيقظ الاحياء وهو ما زال فى أرقه الطويل ، واستأنفوا حياة جديدة ويوما جديدا ، واستأنف هو ألما ممضا ، وضيقا شديدا . واستمر فى ذلك يومه يعانى الاهوال ، ويسوقه القضاء الى النهاية ، ويحثه القدر الى بلوغ الغاية ، فى عذاب أليم ، وبلاء جسيم

ودعى له الطبيب ، وكان احتباس البول قد سمم دمه ، وانبثت جراثيمه

فى أنحاء جسمه ، فأصيب بذبحة صدرية ، فصار يتلوى على فراشه يمينا وشمالا ، جلوسا ونوما

حتى اذا جاء المساء ــ وكان مساء وقفة عيد الاضحى سنة ١٣٤٢ الهجرية ــ اشتد ضيقه ، وساءت حالته ، ويئس طبيبه ، وثقلت العلة عليه ، فجعل يضع رأسه مكان قدميه ، وقدميه مكان رأسه ، ويئن ويتألم ، ويستجير من أوجاعه ، ويلتمس الشفاعة برقة أدبه ، ويرتجل الضراعة لرحمة ربه . ولم تسكن له حركة ، ولم تهدأ له نفس ، أو يغف له طرف ، أو يستقر به مضجع

وكان بجواره فى تلك الليلة صديقه الاستاذ محمد حسنى فأخذ يخفف عنه بالحديث ما يعانيه من تعب ، ويهون عليه بالصبر ما يلاقيه من آلام !

وكان « السيد مصطفى » قبل ذلك بأيام قد اتفق مع صديقه المرحوم حسن أنور ، وبعض اخوانه من هواة الموسيقى على أن يحضروا اليه فى ليلة الثانى من عيد الاضحى بمعازفهم وأعوادهم ليحيوا تلك الليلة فى التمتع بنغمات الموسيقى

وفيما كان رحمه الله يعانى الذبحة الصدرية ، ويغالب الموت ، والموت يغالبه التفت الى صديقه وقال :

ــ أحقا اننا سنحيى ليلة الثانى من العيد مع أنور واخوان أنور ؟

قال صديقه : « نعم .. وستكون فى صحة جيدة »

فهز السيد مصطفى رأسه ، وقال : « .. فى صحة جيدة !.. أتمنى .. »

ثم سكت وانتابته الذبحة ، وألحت فى ضيقها ، وتضاعفت آلامها ، فكان يصارعها وتصارعه ، ويجالدها وتجالده ، حتى اذا ضعفت مقاومته ، وانهارت قوته ، استسلم للموت ، وصاح بلهجة أهل صعيد مصر :

« آه .. آه .. يابوى .. ! »

ثم التفت الى صديقه وابتسم ، ولم يتكلم . ودعاه صديقه مرارا ، فلم يسمع الدعوة ولم يجب النداء ، فظن انه قد نام ، فأشفق عليه من اليقظة ، لأنه قضى الليلة الماضية فى أرق شاق . وكف عن النداء

وهنا دخلت سيدة عجوز من أهله لها خبرة بمثل هذا المنظر الفاجع ، فنظرت الى « السيد » وأمسكت بيده وقالت للصديق : « أسمعك تنادى الرجل عدة مرات ، وهو ميت » !

فتنبه الصـديق من غشيته ، وكأنما كان الموت يخادعه فى صـديقه ، وصاح ، وصاح من بالمنزل : « وا مصيبتاه .. ! » ، وصرخ أطفاله : « وا أبتاه .. ! »

وبانت بالمنفلوطى المنية ، فبانت عن عشاق أدبه هذه العبرة التى كان يزجيها الى النفوس بعبراته ، وتلك المتعة التى كان يهديها الى القلوب بنظراته ، وبان الانس الشـامل الذى ظلـل كل قارىء لكتبه ، والخلق الكامل الذى تجلى فى سيرته وأدبه ، وذابت العاطفة الرقيقة التى لاتباريها رقة السلافة ، والنفس السامية الصافية التى لا تحكيها خفة النسيم ولا صفاء الماء ، وكانت للعاشقين بردا وسـلاما ، وللبائسين عطفا وحنانا ، ولليائسين عزاء وسلوانا

رحل ذلك كله فيما عدا ما بقى من آثاره ، وغاض ذلك النبع الفياض ، وكان منهلا عذبا لكل قارىء ، وموردا حلوا لكل متأدب ، وانطفأت تلك الجذوة التى كانت تتقـد أسى وألما للمسـاكين ، وتلتهب حـزنا ولوعة للمحبين ، ورقد هذا القلم الذى طالما سهر الليالى ، فكم من عبرة أسالها ، وكم من رأفة استثارها ، وكم من نظرة دبجها ، وكم من رواية جال فيها ساجعا بين أفنان البيان ، يقطر ذوبا من القلب ، وصوبا من النفس ، وفيضا من الجمال

طوى الموت ما بين المنفلوطى وبين الناس على أثر الاعتداء على الزعيم سعد زغلول ، فلم تذكره أفواه المؤبنين ، ولم يشيعه آلاف المشيعين ممن يعجبون بأدبه ، ويشيدون بنبوغه وفضله

اخترت يوم الهـول يوم وداع

ونعاك فى عصـف الرياح الناعى

هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم
جرح الرئيس منافذ الاسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساعى

لكأن هذه الحمائم الساجعة فى رياضها ، وهذه الأزاهر الباسمة على أفنانها ، وهذه الآرام الراتعة فى فيافيها ، وهذا النسيم المختال بخطراته ، المدل بلثماته ، وقد سمعت بموته ، وتحطيم قيثارته ، فوجمت الحمائم ، وذوت الازاهر ، واعتقلت الفجيعة فيه الآرام ، فسقطت شجية بخطبه فى يوم شغل الناس فيه باصابة « سعد » فنسوا كل شىء حتى هذا المصاب العظيم ، واستهانوا بكل خطب حتى هذا الخطب الادبى الجسيم ، فحمل الهول عنهم تلك الطيور الوفية التى طالما ناجاها ، وتلك الأزهار الندية التى طالما استوحاها ، وتلك الظباء الرشيقة الآسرة التى تحاكى أسلوبه فى رشاقته وسحره وأسره للقلوب

وقد قال فى آخر نظراته يودع الشباب بل يودع الحياة :

« ليكن ما أراده الله . أما ما أمامى ، فالله يعلم انى ما ألممت بمعصية الا ترددت فيها قبل الالمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوما من الأيام فى آيات الله وكتبه ، ولا فى ملائكته ورسله ، ولا فى قضائه وقدره ، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولعظمة غير عظمته . وما أحسبه يحاسبنى حسابا عسيرا على ما فرطت فى جنبه بعد ذلك

« وأما من ورائى ، فالله الذى يتولى السائمة فى مرتعها ، والقطاة فى أفحوصها ، والعصفور فى عشه ، والفرخ فى وكره ، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين ، وسيبسط عليهم ظله ورحمته واحسانه

« وداعا أيها الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر ، فاذا هدأت ، فقد هدأ كل شىء ، وانقضى كل شىء

« أيا عهد الشباب وكنت تندى
على أفياء سرحتك السلام »

خليل مطران

سألت المرحوم خليل مطران يوما : « ما هى أمنيتك فى الحياة ؟ » ، فقال : « الحياة الى الساعة الاخيرة فى العمل ، والموت متى جاءت ساعته بلا وجل »

وقد عاش خليل غنى النفس ، فقير المال . وكان مثلا غريبا فى القناعة والعفة والايثار لغيره .. ونذكر أنه فى سنة ١٩٤٠ ، قطعت الحكومة اعانة النقابة الزراعية ، فكتب تقريرا عن حالتها اقترح فيه تخفيض ميزانيتها وفى مقدمة ذلك تخفيض مرتبه . ولم يأخذ مرتبا منها ، بل كان يصرف على شئونها من جيبه الخاص حتى أدانها بمبلغ ألف وتسعمائة جنيه . لم تدفعه النقابة له الا قبل وفاته بثلاثة أشهر ..

ولقيته بعد ذلك فى النادى الشرقى . وكان داء النقرس قد آثر فى مفاصله وأعصابه « بعد عرق النساء » الذى أصيب به منذ عامين . فجلسنا نتحدث عن الحياة والناس ، فقال لى :

ان سنة ١٩٤٧ ، كانت شؤما علىَّ فقد مرضت فيها ، وفقدت أربعة من أقاربى ، وأنا الآن نصفى حى ونصفى ميت ، وأشار الى فخذيه لأنهما ضعفتا حتى لا تكادان تحملانه . وأخذ يتمثل بأغنية بدوية وهى :

« نصحتك ياجلب (يا قلب) ماجبلت (ما قبلت) نصحى
سكران بدا (بداء) الهوى ، ما فضلت نصحى »
« وجسمى صار نص ميت ونص حى
ونص الحى باقى للعذاب »

وفى فبرايرعام ١٩٤٨ سافرت لأعمال صحفية ، وتغيبت عن القاهرة مدة ، فلما قابلته فى النادى الشرقى ، وكان ضعيفا بسبب مرضه سلمنى رقعة كتب فيها بخطه هذه الأبيات الثلاثة وقال انى كتبتها لأرسلها اليك ولكنى أحمد الله انى لقيتك لأسلمها لك . وكانت آخر شعره . وهى :

يا صديقى نأيت عنى ولا أستـ
ـطيع سعيا وتشتهى النفس قربك
أنا أشكو اليك حاجات قوم
شغلت عقلك الكبير وقلبك
ان تجد ساعة بها لك روح
من عناء الجهاد فاذكر محبك

وفى أغسطس من هذا العام كنت ببور سعيد ، فبعثت اليه خطابا للسؤال عن صحته ، فأجابنى بخطاب قال فيه : « أنا ما زلت ضعيفا جدا ، وأظن انهم سينقلوننى الى مينا هاوس فى هذا الاسبوع لعل هواء الصحراء الجاف يعيننى على الشفاء من آلام أعصابى ، وهى شديدة ... » وقد انتقل الى مينا هاوس ، ومكث مدة ليست بالطويلة ، ولكنها زادته آلاما ، وحركت مرضه الدفين ، مرض « الربو » فاعتزم أن يعود من مينا هاوس الى مسكنه بالتوفيقية وهو يعانى هذا المرض الأليم ، ألم مرض النقرس ، وزرته فى ذلك الحين فوجدته فى حالة شديدة من الضعف والاعياء ، ولكن كان كما نعهده ، يقظا سليم الفكر ، ولما سألته عن حاله قال :

« عشنا وشفنا سنين ومن يعيش يشوف العجب »
« شفنا الضنى والأنين جعلناه لروحنا طرب »

وقال : « أنا لا أطمع فى العيش ولا أريده الا لأرعى هؤلاء الصغار وهو يعنى أولاد أخيه » ولم أسمعه يشكو أو يتأوه من مرضه ، بل كان صابرا حامدا قوى النفس ، قوى الايمان . ولكنه كان يأسى فى بعض الاحيان لانقطاع اخوانه عنه فى مرضه ، فلم يكن يزوره الا القليلون .

ومع انه كان يلتمس المعاذير لهم ، ولكنى سمعته فى احدى الزيارات يردد هذين البيتين من نظمه :

خدعت بمن عايشت أيام موردى
لهم مورد ، والمحفل الضخم محفلى
فلما انقضى ما كان للناس مأملا
اذا يمسونى خاب فى الناس مأملى

ولقد شاء أن يوقع على وتره الاخير لحن الرضى ، وسكينة النفس ، فنظم فى آخر ما نظم قصيدة سماها : « الشاعر » يصف فيها نفسه وفلسفته ونهاية حياته . قال :

ماذا يريد الشعر منى ... أخنى عليه علو سنى
هل كان ما ذهبت به الأ ... يام من أدبى وفنى
أحسنت ظنى والليا ... لى لم توافق حسن ظنى
ورجعت من سوق عرضـ ... ـت بضاعتى فيها بغبن
أفكان ذلك ذنبها ... أم كان ذنبى لا تسلنى
خمدت بى النار التى ... رفعت بعين العصر شأنى
هى شعلة كانت تنـ ... ـير قريحتى وتنير ذهنى
أيام لى طرب وقلـ ... ـبى موقع السهم المرن
لا تندبنى للعظا ... ئم بعدها لا تندبنى
ولى الربيع وجف عو ... دى وانتهى عهد التغنى
وعدمت لذات الرؤى ... وعدمت لذات التمنى
انى ختمت العيش فى ... وادى المخيلة أو كأنى
فاذا بدت لك همة ... من دائب يشقى ويبنى
فعذيره خوف التشـ ... ـبه بالرحى من غير طحنى
ويكد كد النحل وهـ ... ـى لغيرها تسعى وتجنى
ان الحقيقة حين نبـ ... ـلغها لتكفينا وتغنى
فيها الجلال بكل معـ ... ـناه ، وفيها كل حسن

فاذا تولينا ، فهل أسماؤنا عنا ستغنى
لو لم يكن فى الذكر للـ أعقاب نفع لم يشقنى
أما الجزاء ، فاننى استـ ـتوفيت منه فوق وزنى

هذا ما وقّعه الخليل على وتره الاخير ، قبل أن يحطم الموت قيثارته ، وقبل أن يسكت فيها حلاوة الانغام ، وهى صورة لنفسه فى شيخوخته وما كان يشعر به نحو الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ..

***

واشتد المرض على شاعرنا الكبير قبل وفاته بأسبوعين ، واقتربت نهايته فلم يفقد انتباهه ويقظة نفسه حتى كان قبيل وفاته بثلاثة أيام فبدأ يرحل بخياله الى العالم الآخر .. فكان يخيّل اليه أن أمه ، وأخاه المرحوم جورج ، وملاك من السماء يزورونه فى غرفته ، فيرحب بهم ، ويقول :

ـ أهلا .. وسهلا ..

ويلتفت الى من حوله والى ممرضته ، ويقول :

ـ أوقدوا الأنوار .. ان الضيوف الكرام قد حضروا ...

ثم يتنبه ، وينظر الى من بجواره ويقول : « انى أرى شيئا جميلا .. انى أرى العالم الآخر ما أحلاه .. انه حقا جميل .. ما كنت أدرى انه بهذا النعيم .. »

وقبل وفاته بأربعة أيام أصيبت زوجة أخيه بأزمة فى الكبد فلم يخبروه ، فكانت فى احدى الغرف تتأوه وتتألم ، فكان يسمع تأوهها ، ويقول :

ـ من الذى يتأوه ، ولا أستطيع تلبيته .. انها أول مرة لا ألبى فيها متألما ..

ولما اشتدت سكرات الموت طلب ماء ، فأحضروه وأرادوا أن يقطروه فى فمه بالملعقة ، فأبى الا أن يحمل كوب الماء ويشرب ، فأعانوه على ذلك حتى شرب وقد بقى محتفظا بقواه الذهنية الى ما قبل وفاته بساعات ، ثم غاب عن عالم الفناء ليرحل الى عالم الخلود والبقاء ..

الباب الثاني

نوابغ من الغرب

الفصل الاول

رجال أدب

* فيكتور هوجو
* ادجار ألن بو
* الكسندر بوشكين
* ليو تولستوي

ڤيكتور هوجو

الكاتب الشاعر الفرنسى

ـ هأنذا أموت يا أوجست .. ! !

ـ ما هذا يا فيكتور ؟.. وما الذى تقول ؟.. انك بخير .. وسوف تبرأ من مرضك وتعيش طويلا .. !

ـ اننى أموت .. واذا عشت فاننى أعيش فى أشخاصكم

قال ذلك فيكتور هوجو ، لصهره « اوجست ڤاكيرى » وهو على فراش مرضه الاخير ، وكان يرقد عليه منذ ثلاثة أيام ، ويشعر باقتراب النهاية .. ثم التفت الى صديقه الاديب « پول موريس » وكان يعوده ، فقال له :

ـ لشد ما يتألم المرء ـ ياعزيزى ـ حينما يرى انه يموت .. ! ويرحل الى الأبد

فقال پول :

ـ ولكنك لا تموت .. فلا حاجة للألم والخوف .. !

ـ بل هو الموت ياصديقى .. !

وصمت هوجو لحظة ، ثم قال باللغة الاسبانية :

ـ لست خائفا الآن .. وليحضر على الرحب والسعة .. !

وصدرت فى الثامن عشر من مايو عام ١٨٨٥ م ، نشرة طبية شغلت الناس فى كل مكان على حياة هذا الأديب ، جاء فيها :

« أصيب فيكتور هوجو بالتهاب رئوى . والمعروف انه كان يقاسى منذ مدة قرحة فى القلب » ..

وكان الاديب الكبير يقاسى من فكرة الموت ضربا من الفزع النفسى ، وقد عرف عنه انه كان يخلع على الجسد الميت احساسات الانسان الحى ، ولكنه كان يؤمن بوجود الله ، وخلود الروح التى كان يرى مظاهرها فى كل شىء : فى الطبيعة ، وفى الاحلام ، وفى قرقعة منضدة تتحرك ، وفى نبضات قلب يخفق .. فقد كان يعتقد فى عالم الأرواح ، ويؤمن بالاتصال الروحى ، وكان معنيا باجراء التجارب فى تحضير الارواح . ولما مات ابنه شارل كتب يقول :

ــ لو لم أكن أومن بالروح ، لما استطعت أن أعيش بعد الآن ساعة واحدة .. !

***

وانقضى اليومان التاليان بين فترات من التحسن الطفيف كانت تعقبها فترات من التدهور والقلق .. وفى اليوم العشرين خط « هوجو » هــذه العبارة :

ــ الحب هو الحياة .. والحياة هى العمل .. !

وفى اليوم التالى قال الشيخ المريض فى فترة صحو لحفيدته الصغيرة التى كان يحبها حبا شديدا :

ــ وداعا يا چان .. !

وفى اليوم نفسه تلقت « مدام لوكروى » ــ أرملة ابنه شارل هوجو ــ الرسالة التالية من « الكاردينال چيبير » رئيس أساقفة باريس :

« سيدتى ...

« اننى أشارك مسيو فيكتور هوجو مشاركة قلبية فى آلامه ، وأشاطر أسرته ما تكابده من قلق وانزعاج ، وقــد صليت من أجله وأقمت أمام المذبح المقدس قداسا للمريض الشهير ، وأرى من الواجب المحبب الى نفسى أن أخفَّ اليه لنجدته ، وأحمل له من التأسى والمواساة ما تشتد حاجة المرء اليه فى هذه النازلة القاسية . على الرغم من اننى ما زلت ضعيفا ، وفى فترة نقاهة من مرض يشبه مرضه الى حد كبير ...

« وتفضلى يا سيدتى بقبول أخلص مشاعرى مع احترامى الواجب »
فردت عليه السيدة « لوكروى » برسالة شكرت فيها عنايته واهتمامه ، وأفضت اليه بأن الأسرة تريد التقيد بارادة فيكتور هوجو نفسه الذى كتب فى وصيته :

« اننى أوصى للفقراء بخمسين ألف فرنك
« وأريد أن تحملونى فى نعشهم الى المقبرة
« أرفض البركة والطقوس من كل الكنائس
« وأطلب صلاة من الناس جميعا ، ومن أجل الجميع
« وانى أومن بالله .. ! »

***

وهكذا كان الاديب الشيخ فى مرض الموت .. وهو الذى لم يمرض قط مرضا خطيرا فى حياته المديدة ، التى ذاق فيها فجيعة الموت فى أولاده الذكور ، وفى ابنته وزوجته « آديل فوشيه » ، وفى حبيبته « جولييت درووية » .. هذا عدا مآسى الحروب التى شاهدها ، والثورات التى عاصرها ، والأصدقاء الذين فقدهم ، والشخصيات التى نسجها خياله فى مسرحياته وقصصه ..

وكان « هوجو » يعيش وقتئذ مقطب الجبين ، كما كان يعيش منذ سنوات عديدة ، وهو يتلقى فى صمت ذلك التكريم الاجماعى للمجد الادبى الخالد الذى كان يتمتع به . وكانت متعته الوحيدة فى أواخر أيامه هى الجلوس الى حفيدته الصغيرة « جان » وشقيقها « جورج » ابنى ولده المتوفى « شارل هوجو » !

***

وفى صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين من مايو ، بدأ احتضار الشاعر العظيم ، وكانت حشرجة الموت أول الأمر صوتا مكتوما خشنا كصوت أمواج البحر على صخور الشاطىء .. ثم أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى انتهى .. !

وكانت الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والعشرين من بعد الظهر حينما فارق الشيخ الحياة ، تحت قصف الرعد وزمجرة عاصفة ثلجية كانت تجتاح باريس فى تلك الساعة الواجفة الحزينة ، وكان جمهور غفير يترقب فى قلق شديد أنباء الاديب المحتضر تحت نوافذ بيته ..

وانطفأ نور هذه القريحة الوقادة ، وانطوت صفحات حياته الانسانية النابغة .. وكان آخر ما نطق به بيتا من الشعر جاء صحيح الوزن على الرغم من سكرة الموت ، جاء فى ترجمته :

« هنا تنتهى معركة الليل والنهار »

ترى ما الذى كان يعنيه « فيكتور هوجو » بهذا القول ؟.. وما هو الليل ؟.. وما النهار ؟..

اننا لنجد الجواب على هذا كله فيما سبق أن كتبه منذ عشرة أعوام ، عن المستقبل ، بعد وفاة ابنه « فرانسوا فيكتور » ، اذ كتب يقول :

« فى يوم من الأيام ، قد يكون قريبا ، سوف تدق الساعة من أجل الأب كما دقت من أجل الابن ، ويبلغ يوم الكادح نهايته ، وحينئذ يحين دوره ، فيوضع بين أربعة ألواح من خشب ، ويبدو كالنائم ، ويصبح ذلك الشىء المجهول الذى يطلقون عليه : « الميت » ، ثم يحملونه الى الفتحة المظلمة حيث العتبة التى يستحيل التنبؤ بما وراءها ..

« ولا يكاد ينهال التراب ، وتكف المعاول ، ويخيم السكون ، حتى تغادر الروح رداءها البالى ، هذا الجسد ، وتخرج ضوءا من أكداس الظلمات .. »

***

وما كاد نبأ موت « فيكتور هوجو » يذاع فى باريس حتى رفع مجلسا الشيوخ والنواب جلستيهما حدادا على الراحل العظيم ، وتقرر أن يدفن جثمانه فى « البانثيون » Le Panthéon (١) ، مقبرة العظماء ، بعد عرضه تحت قوس النصر

(١) استند البرلمان فى هذا القرار الذى يخالف وصية الميت الى ما نصت عليه الجمعية التأسيسية من أن البانثيون هو المدفن الذى خصصه الوطن لعظماء الرجال

وظلت أمواج من الكتل البشرية تتدفق على قوس النصر لتلقى نظرة أخيرة على جثمان الاديب العظيم حتى ليلة ٣١ مايو عام ١٨٨٥ ، ثم نقل هذا الجثمان من ميدان النجم الى الباتيون فى موكب رهيب لم يعرف له نظير منذ وفاة نابليون بونابرت ، يحيط به مئات من الفرسان حملة المشاعل ، ويحف بالنعش حرس شرف من اثنى عشر شاعرا شابا ، يتبعهم طوفان بشرى مؤلف من مليونين من البشر

وانتشر هنا وهناك على النوافذ والحوانيت والشرفات والنواصى عدد لا يدركه الحصر من اللافتات التى تحمل كل واحدة منها بيتا له من الشعر أو أبيات أو عبارة ، كما قامت أخرى على نواصى الشوارع وواجهات المتاجر الكبرى تحمل أسماء رواياته ومسرحياته ودواوين شعره . ولم يحدث قط من قبل أن خرجت أمة عن بكرة أبيها تشيع شاعرا من أبنائها الى مقره الاخير

إدجار ألن بو

الاديب الروائى الاميركى

ـــ يا الهى .. أنقذ روحى من هذا العذاب .. ! !

وكانت ممرضتان فى مستشفى « واشنطون كول » تمسكان بادجار ألن بو فى هذه اللحظات الحرجة ، وهو يجود بأنفاسه على سرير الموت ، ويردد هذه العبارة الأخيرة التى تنطوى كلماتها المؤثرة على مأساة حياته المؤلمة . بما عانى فيها من متاعب العيش ، وبلاء الفقر ، ونوازل الأمراض والأحزان

وكان على سرير المرض يهذى هذيان المجنون ، وقد أصيب باضطراب نفسى ، جعله فى آخر أيامه لايعى ما يفعل أو يقول ، وقد أثرت الكوارث التى نزلت به فى جسمه ، فأصابته بالضعف والهزال ، وفى عقله فأضاعت منه سلامة التفكير والاتزان ، فكان يرى ما لايراه الناس ، ويسمع ما لا يسمعه الناس ، وأصبح شارد الذهن ، ذاهلا عن نفسه وعما حوله ، وكان فى بعض حالاته يفيق من ذهوله ، ويرجع الى اتزانه ، فيكتب أو يقرأ ، أو يردد بعض عبارات من قصصه . ثم يعود الى مرضه العقلى ، أو يعود المرض اليه ، فيرى أشباحا مخيفة تطارده ، أو يرى شبح زوجته الحبيبة التى ماتت بمرض الدرن فى عنفوان الشباب . فكان لمصابها أشد وقع فى قلبه وجوارحه ، وكان موتها أول كارثة نزلت به ، وساقت اليه من الكوارث ما أدت به الى هذه النهاية المؤلمة

فقد كانت زوجته الشـابة « ڤرجينيـا » تغنى ـــ ذات مساء ـــ على قيثارتها بصوتها العذب الحنون لزوجها « ادجار » وجماعة من أصدقائه وفجأة ، مدّت يدها الى عنقها .. فقـد شعرت بألم جعلها تمسك عن

العزف وتسعل سعالا شديدا ، ثم انبثق الدم من بين شفتيها ، وتناثر على ثوبها الابيض الانيق !

انها العلامة المشئومة لمرض الدرن الخبيث الذى مات بسببه كثير من الأعزاء على نفس « ادجار » ، ومن بينهم والدته

وأظلمت الحياة فى عينى « ادجار » حين نزل بزوجته هذا الداء ، وكتب الى أحد أصدقائه يقول : « انك لن تستطيع أن تتصور حالة الاحتضار التى أعيش فيها ، منذ أن علمت بهذا الخبر المشئوم .. ذلك أنك تعلم أننى أحبها الى حد العبادة »

وكان قد اقترن « بفرچينيا » ابنة عمته ، ولما تبلغ من العمر الرابعة عشرة ، وكان هو وقتئذ فى الرابعة والعشرين ، شابا جذابا مرهف الشعور ، وكانت « فرچينيا » معجبة به أشد الاعجاب

واندفع « ادجار » يغرق أحزانه فى الخمر .. وصار يهيم وحده ليالى طويلة فى طرقات « فيلادلفيا » حزينا يائسا كئيبا ، وزاد من يأسه وكآبته ما كان يعانيه من قلة العمل وضيق العيش . وكان كلما تقدم الى صحيفة وجد الأبواب موصدة فى وجهه . وخيَّم البؤس الأسود على رأس الأديب الشاب حتى أصبح لا يملك ما يستطيع به أن يبتاع طعاما أو فحما يرد به غائلة البرد عن « فرچينيا » العزيزة التى ألح عليها السعال وهى ملقاة الى جواره على سرير من القش

وكان أثناء ذلك يكتب قصة كنز غريب : قصة « الجعران الذهبى » وينظم قصيدة «الغراب» الخالدة ، ذلك الغراب العجيب الذى ظل يطارده منذ الطفولة والذى يرمز فى آن واحد الى تشاؤمه من الموت والجنون !

وحاول « ادجار » عبثا أن يبيع « قصيدة الغراب » الى احدى الصحف أو المجلات ، ورآه أحد أصدقائه الصحفيين ذات يوم يخرج من مكتب رئيس تحرير صحيفة « جراهامز » وعلامات اليأس والمرارة بادية على وجهه ، فأثَّر فى نفسه منظر الشاعر البائس الحزين .. فقام الصديق بدعوة

محررى الصحيفة وعمالها ، وقال «لادجار» : « هيا أيها الصديق .. أسمعنا قصيدتك »

وما كاد « ادجار » ينتهى من تلاوة قصيدته حتى خلع أحد الحاضرين قبعته وطاف بها على الموجودين فجمع له بعض المال ، وفى تلك الليلة عاد « ادجار » الى زوجته وفى جيبه خمسة عشر دولارا

***

ولقد اضطر « ادجار » الى ترك « فيلادلفيا » وتوجه الى « نيويورك » حيث نجح فى الحصول على عمل فى صحيفة « برودواى » ، غير أن نقل « ڤرچينيا » وهى فى هذه الحالة من الضعف المتزايد أثر فى الاديب الكبير، وجعله يشعر بصدمة عصبية تامة .. كان يبكى طيلة الرحلة دون أن يرفع يداه عن يدى زوجته التى لم تعرف منه سوى حبه الزوجى ، وحنانه الأخوى ..

وكان كل ما تخشاه « ڤرچينيا » هى أن تترك زوجها المسكين الذى تحبه فى غمرة عالم قاس شديد ، فقد كانت تعلم تماما مدى الخطر الذى كان يتهدده بسبب الخمر التى كان الشاعر يحاول أن يدفن فيها أحزانه وآلامه

قالت له « ڤرچينيا » فى حنان عميق : « حينما أموت سأصبح ملاكك الحارس يا «ادجار» ، وكلما ترديت فى هاوية ارفع ذراعيك فوق رأسك ، فسوف أكون هنا ، الى جوارك لأخف الى نجدتك وآخذ بيدك »

وكان « ادجار » كلما سمع من زوجته ذلك الحنان الأليم ، ازداد حزنه ، وأكثر من شرب الخمر ، وتعاطى « الافيون » ، وكان يعود الى بيته فى المساء مترنحا شارد الذهن يتمتم بعبارات غامضة لا معنى لها . وكانت حماته « مسز كليم » تقضى الليل متنقلة بين فراشى مريضين : « ڤرچينيا » التى تحتضر ، وزوجها الذى كان ينتحر فى بطء

وقد ازدادت صحة الاديب ضعفا ، وأصبحت يداه تصابان بالرعشة أحيانا الى حد أنه كان لا يستطيع الكتابة ، فصار يملى مقالاته على «مسز

كليم» التى استطاعت أخيرا أن تقلد خطه ، لأن رئيس التحرير كان يصر على أن يقرأ خط « ادجار » نفسه ليتحقق من أن «بو» فى حالة طبيعية وهو يكتب .. !

***

وفى خريف عام ١٨٤٦ م ، ذهب « ادجار » وزوجته الى قرية «فردهام» على مسيرة ثلاثين كيلو مترا من « نيويورك » على أمل أن تتحسن صحة زوجته ، وكان قد أصبح مرة أخرى بلا عمل ، وأصبحت « ڤرچينيا » فى حالة تنذر بأن الحياة لن تمتد بها أكثر من بضعة أسابيع كانت تقضيها على سرير من القش .. وأثرت حالة الاديب النابغ فى بعض أصدقائه والمعجبين به ، فأنبأوا رئيس تحرير جريدة « نيويورك مورننج اكسبريس » أن الروائى الشاعر يعيش عيشة الضنك والبؤس .. فنظموا اكتتابا جمعوا له عن طريقه ستين دولارا

وانطلق « ادجار » بكنزه الصغير ليبتاع لزوجته الدواء ، ولكن الأوان قد فات ، وذهب اليها يحمل الدواء .. فوجدها فى النزع الاخير.. وانتهت حياة الزوجة المسكينة فى الثلاثين من يناير عام ١٨٤٧ ، واحدى يديها بين راحتى « ادجار » والاخرى بين يدى « مسز كليم »

وكان آخر ما نطقت به : « يا أماه .. اقسمى لى على ألا تتركى ادجار وحده .. ! » ..

ثم تمتمت بكلمة أخيرة من قصيدة الغراب فقالت : Never More تلك الكلمة التى تتردد فى حزن عميق فى كل بيت من أبيات قصيدة الشاعر الخالدة !.. وكانت « ڤرچينيا » وقتئذ فى الرابعة والعشرين ، وهى نفس السن التى ماتت فيه والدة « ادجار » ، وبنفس المرض !

***

وفى ذلك الصباح الذى دفنت فيه « ڤرچينيا » لازم « ادجار ألن پو » الفراش بدوره مصابا بحمى خطيرة أقعدته عن العمل والسعى لرزقه وأخذت الهواجس والرؤى العجيبة تساور « ادجار » ، ثم خفت عنه

وطأة الحمى ، وفى هذه الاثناء كتب قصته : « أريكا » وهى آخر قصة له ، يقص فيها تكوينا غريبا للكون وطبيعة العالم !

وظلت شياطينه تطارده دون هوادة ، حتى حاول الانتحار ذات مساء ، ولكنهم تمكنوا من انقاذه فى اللحظة الاخيرة

وفى يونيو من عام ١٨٤٩ سافر « ادجار » الى « فيلادلفيا » حيث كان عليه أن يقرأ قصته الاخيرة على نخبة مختارة ، غير أن انتظار الحاضرين له قد طال دون جدوى ، أما هو ، فقد توجه فور نزوله من الباخرة الى صديقه الرسام « چون سارتين » وقال له : « هناك أناس يتآمرون على قتلى .. ان ثلاثة من الرجال الملثمين يطاردوننى من نيويورك ، وأرجو أن تخبئنى عندك فى مخبأ أمين »

***

وطلب « ادجار » من صديقه الرسام أن يعيره موسى ليحلق بها شاربه حتى لا يتعرف عليه مطاردوه « الخياليون » ، ولكن « سارتين » خشى أن يقطع « ادجار » رقبته فادعى أنه لا يمتلك موسى ، واكتفى بأن قص له شاربه بنفسه بالمقص ، فعاد الصفاء قليلا الى نفس « ادجار » ، واستقل القطار فى رفقة صديقه الرسام عائدا الى « نيويورك » دون أن يلقى محاضرته المنتظرة !

واشتد المرض النفسى «بادجار» فأصبح لا يعيش الا فى عالم الاشباح ، ويقضى فترات طويلة مستغرقا فى شرود غريب !

وفى نهاية سبتمبر من عام ١٨٤٩ ، كان عليه أن يذهب مرة أخرى ليلقى محاضرته فى « فيلادلفيا » ، ولكن طال انتظارهم له فى هذه المرة أيضا دون جدوى !

واختفى خمسة أيام كاملة حتى لم يدر أحد أين يوجد « ادجار ألن پو » أكبر أدباء أمريكا ، وأخيرا عثر عليه أحد رجال الشرطة ملقى على أحد الارصفة فى مدينة « بالتيمور » ولحيته لم تحلق منذ عدة أيام ــ وكان شارد الذهن ذاهلا بسبب الرؤى المخيفة ، حتى اضطر أصدقاؤه الى نقله

فى الحال الى مستشفى « واشنطون كول » وهو فى أشد حالات اضطرابه النفسى ومرضه العقلى

وكان « ادجار » يردد فى هذيانه نصا من خاتمة قصته « آرثر جوردن بيم » يقول فيه : « ولكن .. فى طريقنا ، ظهر فجأة شبح انسان ملثم ، حجمه أكبر بكثير من حجم أى ساكن لهذه الارض ، وكان لون بشرته أبيض ناصعا كالثلج .. »

***

ولم يكد ينقضى على دخول « ادجار » المستشفى يوم واحد حتى فاضت روحه فى تمام الساعة الخامسة من صبيحة يوم ٧ أكتوبر عام ١٨٤٩ وهو يردد فى ألم : « يا الهى .. انقذ روحى من هذا العذاب .. »

وهكذا انتزع الموت « ادجار ألن پو » من بين أشباحه وهواجسه وهو وحيد على سرير حقير فى المستشفى ، ولم يعش أكثر من عامين بعد رحيل زوجته مصدر وحيه والهامه ، وبموته انقشعت اللعنة المشئومة التى ظلت تلاحق أسرة « پو » والتى نزلت على رأس « ادجار »

وبعد موته بيومين اثنين ، جاءه خطاب من فرنسا فتحته « مسز كليم » كان مرسله يلتمس فى تواضع « الاذن بأن تترجم الى الفرنسية احدى القصص التى كتبتها أعظم شخصية روائية عرفتها أمريكا » !..

وكانت هذه الرسالة ، تحمل توقيع الشاعر الكبير « شارل بودلير » !

الكسندر بوشكين

الشاعر الروائى الروسى

وسقط بوشكين طريحا على الارض ينزف الدم من جنبه ، وينساب على الثلج ، حتى كوّن بركة دموية حمراء .. وقد أغمى عليه ، وغاصت فوهة مسدسه بجواره بين الثلوج ، فظن من حوله انه فارق الحياة ، ولكنه ما لبث أن أفاق من اغمائه ، وصاح يقول لصديقه « دانزاس » الذى أسرع اليه ، وقد أذهلته المفاجأة :

ـ انتظر ، فلا يزال فى وسعى أن أصوب طلقتى اليه .. !

فأعطاه دانزاس مسدسا آخر أطلقه الشاعر على غريمه « دانتس » وقال له وهو يراه يسقط بدوره :

ـ هل قتلته ؟

فأجابه دانزاس :

ـ كلا .. ولكنك جرحته فى صدره وذراعه .. !

فقال بوشكين :

ـ هذا شىء غريب ، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته فى نفسى السرور . ولكننى أشعر الآن بأن ذلك لم يتحقق . وعلى أية حال ، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء

وسكت بوشكين ، اذ كانت اصابته شديدة بالغة ، والدم ينزف من جرحه بغزارة .. ثم نقل فى رفق على زحافة الى بيته ، حيث كانت زوجته « ناتاليا » تطرز رداء لها فى غرفة الجلوس . فما كادت تراه محمولا مضرجا بدمائه حتى سقطت فاقدة الوعى .. !

وكان بوشكين قد التقى بالآنسة « ناتاليا جونتشاروف » لأول مرة عام ١٨٢٩ فى حفل راقص ، كان القيصر « نيقولا الاول » من بين حاضريه . وما كادت عينا الشاعر تقعان عليها وهى واقفة تبتسم عن يمين القيصر حتى تعلق بها قلبه وأدرك على الفور أنها شريكة حياته.. وقبل أن تنتهى السهرة كان قد اتخذ لنفسه قرارا فى الأمر : ففى اليوم التالى ، سيتقدم رسميا ليطلب يد الآنسة « ناتاليا جونتشاروف » ، فماذا تهم حريته وفيم تعنيه حياة المغامرة اذا ما قورنت بالاستحواذ على هذا الجمال الكامل ، هذه الفتاة التى لا نظير لها والتى فتنت القيصر نفسه ؟

***

وقد كان بوشكين وقتئذ فى الثلاثين ، وكانت هى فى السادسة عشرة ، فتاة رقيقة كالزهرة الباسمة ، ذات جمال رائع ، لها ولع بحياة المجتمع وتعشق الحفلات الراقصة حيث كانت تأسر بجمالها أنظار جميع الرجال !

ولم يكن يخالج السيدة « جونتشاروف » ــ والدة ناتاليا ــ شك فى أن ابنتها سوف تظفر عاجلا بزوج ثرى نبيل ، ولم تكن الفتاة من جانبها تقرأ الشعر ، ولم تكن قد أعجبت بعد بروائع بوشكين التى ظهرت متتابعة خلال عشر سنوات ، من « روسلان ولودميلا » الى «بوريس جودونوف» والتى كانت تدر على الاديب الشاب دخلا لابأس به ، هذا فضلا عن أن القيصر نفسه ــ على ما يبدو ــ كان يشمله برعايته

وفى اليوم التالى .. ذهب « الكونت تولستوى » الى بيت الأم ، نائبا عن « ألكسندر سيرجيفتش بوشكين » ليطلب له يد الآنسة « ناتاليا جونتشاروف » ، وكانت الأم تؤثر أن يكون زوج ابنتها من ذوى الجاه والثراء ، كأن يكون وزيرا ، أو حاكما ، أو مستشارا على الأقل . ولهذا ، لم يلق هذا الطلب ترحيبا لديها لأول مرة ولزمت جانب الحذر والتردد ، ولكنها مع ذلك لم ترفض بوشكين صراحة ، وانما أرادت أن تمسك العصا من منتصفها وآثرت التريث ، ومن ثم جاء ردها لا منطويا على الرفض ولا على القبول الصريح ، وقالت للكونت : « ان ناتاليا صغيرة

للغاية .. ولهذا فعلينا أن ننتظر ، وأن نتذرع بالصبر »

وجاءتها فى اليوم التالى رسالة من الشاعر الشاب يقول فيها :

« أرى لزاما على أن أكتب اليك الآن وأنا جاث على ركبتى ، ودموع الشكر والاعتراف بالجميل تفيض من عينى ، بعد أن جاءنى الكونت تولستوى بالجواب .. ان جوابك ياسيدتى ليس رفضا وانما أنت تسمحين لى بالأمل » . وقد علمت منه الأم أنه سافر من موسكو فى الليلة السابقة الى القوقاز

وبعد فترة تردد دامت أكثر من عام ، وافقت السيدة « جونتشاروف » أخيرا على خطبة ابنتها الى « ألكسندر بوشكين »

***

ولأول مرة فى حياة بوشكين الحافلة بالمحن والصعاب ، ذاق الشاب طعم الحياة الزوجية بالرغم مما كان يعانيه من ضائقة مالية اضطرته الى رهن حصته من أملاك والده فى « بولدينه » حتى يستطيع تغطية نفقات حفل الزواج وتهيئة مسكنه الجديد . وكان احساسه بالسعادة عميقا الى حد أنه كتب الى صديقه الشاعر « بليتنيف » يقول : « اننى سعيد فى حياتى الجديدة سعادة لا توصف ، وأمنيتى الوحيدة هى ألا يتغير شيء فى نظام معيشتى بالبيت ، اذ أننى لا أتوقع خيرا مما أنا عليه ، ولست أبالغ اذا قلت لك اننى أحس كأننى ولدت من جديد »

وأقام بوشكين مع زوجته بادىء الامر فى موسكو ، الا أن حماته كانت سيدة سليطة اللسان ، كثيرة المطالب والرغبات ، تثير المشاكل ، وتخلق الخلاف من لا شيء ، وكان يطيب لها أن تحرض ابنتها « ناتاليا » على زوجها الشاعر ، وأن توجّه اليه سهام نقدها ، وتكيل له الذم والعبارات الجارحة ، فكان طبيعيا أن يضيق صدر بوشكين بهذا التدخل الشاذ فى حياته الشخصية ، وكتب الى صديقه « بليتنيف » يقول : « اننى أعيش هنا كما تريد حماتى ، لا كما أريد أنا ! » .. ثم فرّ بزوجته الى بطرسبرج وأقام مؤقتا بالقرية القيصرية

ولشد ما كان بوشكين يتوق وقتئذ الى حياة هادئة حافلة بالعمل الفكرى والتأليف المفيد ، ولكن قدر له أن يقاسى المتاعب والآلام على الدوام . فلما انتقل من موسكو الى بطرسبرج أحاطه القيصر بطوق جديد من عنايته ، فألحقه بمنصب بوزارة الخارجية ، وأظهر له كثيرا من ألوان التودد والمجاملة . والواقع ان هذا التلطف الذى أبداه القيصر نحو الشاعر الشاب لم يكن موجها الى شخصه مباشرة ، فقد كان نيقولا الأول لايرتاح فى قرارة نفسه الى نزعات بوشكين التحررية ، وانما كان الباعث عليه اهتمام القيصر بزوجة الشاعر : الحسناء « ناتاليا جونتشاروف »

وفى عام ١٨٣٤ ، منح القيصر « بوشكين » لقب ضابط فى البلاط ، وذلك حتى يضمن تردد « ناتاليا » الجميلة على حفلات البلاط الراقصة ، وحتى يحكم رقابته على الشاعر الأديب فى كل وقت

وقد جرت العادة فى البلاط الروسى وقتئذ أن يمنح القيصر طائفة من أبناء النبلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة ، والثانية والعشرين لقب « ضابط البلاط » كانت مهمتهم التجول فى قصر « أنيتشكوف » فى زيهم الرسمى ، وحضور المآدب والحفلات فى كل مناسبة ، ومراقصة سيدات البلاط وزوجات رجال الحاشية ، فلا غرابة اذن فى أن يسخر هؤلاء الفتيان من الشاعر الذى يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما حينما ظهر فى البلاط بلباسه الضيق المقصب وسيفه الذى يجرّه على الارض ، وكتب الشاعر يومئذ فى مذكراته يقول :

ــ لقد انقضت على ثلاثة أيام وأنا ضابط فى البلاط .. ان هذه الوظيفة لا تليق بسنّى ، ولكن ما العمل اذا كان القيصر يريد أن يشاهد «ناتاليا» وهى ترقص فى قصر « أنيتشكوف » ؟..

***

وضاق الشاعر ذرعا بحياة البلاط ، فقدّم استقالته من منصبه فرفض القيصر قبولها .. كل هذا و « ناتاليا » لا تزال ترقص وتهوى حفلات القصر ، ثم أخذت الديون تتراكم على بوشكين ودخل الشاعر التحرى فى

صراع مقنّع قاس مع بعض الوزراء وذوى النفوذ .. وأراد أخيرا أن يرحل الى الريف طلبا للراحة والهدوء حتى يستطيع أن ينقطع بعض الوقت للكتابة والتأليف ، فرفضت «ناتاليا» أن ترافقه ومكثت فى موسكو ! ..

وفى الريف ، استطاع بوشكين أن يضيف الى سلسلة روائعه السابقة عددا من أهم مؤلفاته التى جددت الأدب الروسى ، فكتب وقتئذ : « أوجين أونيجين Eugène Onéguine » ، و « الفارس البرونزى » ، و « الديك الذهبى » ، و « السيدة البستونية » ، وغير ذلك .. وفى عام ١٨٣٦ ، أتم كتابة روايته الاخيرة « ابنة القائد » التى بلغت قمة المجد الادبى .. كل هذا و « ناتاليا » لا زالت تلهو وترقص !

***

وكانت « ناتاليا » قد تعرّفت فى ذلك الوقت بشاب فرنسى فى الرابعة والعشرين من عمره يدعى « جورج دانتس » قدم الى العاصمة الروسية هاربا من فرنسا اثر ثورة عام ١٨٣٠ ، وواتاه الحظ فى بطرسبرج فألحق بالحرس القيصرى ، اذ كان شابا وسيم الطلعة رشيق الحركات يجيد فنون الرقص والحديث .. ولم يمض وقت طويل حتى تعرف « دانتس » الى البارون « هيكرن » السفير الهولندى فى بطرسبرج ، وسرعان ماتوثقت بينهما أواصر الود والصداقة . ولما كان السفير عقيما لم ينجب أولادا ، فقد تبنى « دانتس » ومنحه لقب أسرته فصار يدعى «البارون دانتس هيكرن» والواقع أن السفير كان رجلا غامضا ملتويا بارد الأعصاب لا يضمر للشاعر بوشكين أية مودة

وما كاد بصر « دانتس » يقع على « ناتاليا » حتى أعجب بها من أول نظرة ، وراح يراقصها ويتودد اليها ويلاحقها فى قحة والحاح ، فلم تمض أيام حتى أخذ خصوم بوشكين ينشرون الشائعات حول زوجة الشاعر والضابط الفرنسى الوسيم

ولم يكن خافيا على البارون السفير أن ابنه بالتبنى قد هام حبا بزوجة الشاعر فعزم على أن يخلصها له بأى ثمن ، ولكن « ناتاليا » قاومت .

وجاءت الشائعات تترى الى أسماع بوشكين .. وتتابعت الرسائل الغفل من التوقيع تشير الى زوجته بأصبع الاتهام ، فثارت أعصاب الشاعر الأديب الذى كان يحب زوجته حب عبادة ، ويغار على سمعتها من النسيم، وأظلمت الدنيا فى وجهه وأخذ يفكر مهموما فى وسيلة يدافع بها عن شرفه ، وأية وسيلة يمكن أن تنقذ هذا الشرف غير الدم ؟

وخشى السفير مغبّة الأمر .. فأسرع بتزويج « دانتس » من شقيقة « ناتاليا » تغطية للفضيحة المتوقعة ، غير أن هذا الزواج لم يهدىء من ثائرة بوشكين

***

وفى اليوم الرابع من شهر نوفمبر عام ١٨٣٦ ، تلقى الشاعر رسالة بالبريد غفلا من التوقيع ، تعمد مرسلها اثارة شعور بوشكين واضرام نار الغيرة فى قلبه ، وقد جاء بالرسالة ما يلى :

« اجتمع القواد والفرسان العظام لفرقة حملة القرون السامية برياسة رئيس الفرقة السيد ناريشكين وقرروا بالاجماع انتخاب الكسندر بوشكين نائبا لرئيس فرقة حملة القرون ، ومؤرخا لتلك الفرقة »

و « ناريشكين » هذا الذى جاء ذكره فى الرسالة كان زوجا لمحظية القيصر الكسندر الاول ، وقد أراد مرسلو الرسالة من ذكره بتلك الطريقة الساخرة أن يعرضوا بشرف الشاعر ، والتلميح الى أن زوجته « ناتاليا » ان هى الا محظية لنقولا الأول ، كما كانت زوجة ناريشكين محظية لألكسندر الاول !..

وكان بوشكين مقتنعا تمام الاقتناع بأن البارون هيكرن هو الذى أوحى بارسال هذه الرسالة الشائنة .. ولذا عقد العزم على دعوة السفير نفسه الى المبارزة ، غير أنه أدرك أن مركز هيكرن الدبلوماسى وكبر سنه يتنافيان مع شروط المبارزة ، ولكن ما العمل ؟.. أيتحدى « دانتس » ؟.. كلا ، فان هذا الضابط الفرنسى الرقيع المطرود سوف ينتحل شتى الأعذار لكى يتحاشى القتال !

واهتدى بوشكين فى النهاية الى وسيلة تحقق له أغراضه ، فجلس الى مكتبه يحرر الى السفير خطابا مملوءا بالشتائم والاهانات المقذعة التى لا يمكن أن يرد عليها وأن تغسل الا بالدم . وقد كتب الشاعر فى رسالته يقول :

« سيدى البـــارون ، فلتسمح لى أن أستعرض ما حدث . اننى أعلم بسلوك ابنك منـــذ مدة طويلة ، وقـــد اكتفيت بدور المراقب ، مستعدا للتدخل فى الوقت الذى أعتبره مناسبا ، ثم وقع حادث ساعد لحسن الحظ على أن يأتى بالحل للمشكلة . والواقع ، ان هذا الحادث لو كان قد وقع فى أى وقت آخر لاعتبرته حادثا مشئوما . وقد وصلتنى عدة رسائل خالية من التوقيع ، فأدركت أن الفرصة قد أصبحت سانحة . وأنت بالطبع تعرف بقية ما حدث . ولقد أجبرت ابنك على أن يمثل دورا يدعو للرثاء ، حتى أن زوجتى لم تتمالك نفسها من كثرة الضحك بعـــد أن أدهشها جبنـــه ووضاعته ! ..

« واننى مضطر الى الاعتراف ياسيدى البارون ، بأن دورك فى هـــذا الموضوع لم يكن دورا لائقا .. فانك ، وأنت تمثّل أحد الرؤوس المتوجة ، قد تصرفت من الوجهة الأبوية تصرف القواد للسيد الصغير : ابنك !.. ويبدو أن كل تصرفاته الملأى بالأخطاء كانت بايعاز منك . فأنت بلا شك الذى أمليته ما كتب من أشياء تدعو للأسف . وأنت ، مثل أية امرأة فاجرة عجوز ، الذى كنت تتربص فى كل ركن مظلم لزوجتى لتحدثها عن غرام صبيك ، وحينما أصيب بالجدرى واضطر الى ملازمة منزله ، قلت انه كان يموت بسبب حبه لها ، وقلت لها : ردى الىّ ولدى !..

« ويمكن أن تفهم من هذا جيدا ، اننى لا يمكن أن أسمح لأسرتى بعد كل ما حدث بأن تكون لها أدنى صلة بأسرتك . ولقد كان على أساس هذا الشرط أن وافقت على اغفال هذا الموضوع القذر ، حتى لا ألوّث شرفك فى عين بلاطنا وبلاط بلادك ، كما كان فى وسعى وفى نيتى أن أفعل ،

ولا يمكن أن أسمح له بأن يخدش مسامعها بنكات ثكنات الحرس ، وبأن يمثل أمامها دور العاشق المخلص التعس ، فى حين أنه ليس الا سافلا وضيعا جبانا . ولهذا أجدنى مضطرا الى أن أتوجّه اليك ، لأطلب منك أن تضع حدا لكل هذه المناورات ، اذا كنت تريد أن تتحاشى وقوع فضيحة أؤكد لك أننى لن أتراجع عن اثارتها فى هذه المرة . وانه ليشرفنى ، يا سيدى البارون ، أن أكون خادمك الخاضع المطيع . ألكسندر بوشكين »

وقبل البارون « هيكرن » التحدى ، وأناب عنه ابنه بالتبنى « جورج دانتس » لمبارزة بوشكين فى مدى أربع وعشرين ساعة ..

***

وتم الاتفاق على أن تكون المبارزة فى السابع والعشرين من شهر يناير، عام ١٨٣٧ م ، وكان بوشكين هادئا قبيل المبارزة ، فأخذ يراجع بعض الأعمال المتعلقة بمجلته الأدبية كأن شيئا لم يحدث ، وأجاب على عدة رسائل وردت اليه . وفى الساعة المحددة ، أقلت زحافتان بوشكين وشاهده « دانزاس » ــ ودانتس وشاهده ــ وتوجهت الزحافتان الى ضواحى بطرسبرج ، حيث وقفتا عند مكان يدعى بالنهر الأسود ، وهناك هبط الاربعة ، وأخذوا يسوون بأقدامهم المساحة المغطاة بالجليد الكثيف ، ويقيسون المسافة التى سوف يطلق منها كل من بوشكين ودانتس النار على صاحبه ..

وألقى الشاهدان بمعطفيهما على الجليد ، ليحدد كل منهما لموكله الحاجز المعين لاطلاق النار .. ثم بدأ كل من المتبارزين يحشو مسدسه . ونادى الشاعر قائلا : « ألم تنتهيا بعد ؟ .. » .. لقد كان نافذ الصبر لأن الاستعداد كان يثير أعصابه ، وقد أوشكت أصابع يده أن تتجمد من شدة البرد

وأخيرا ، نادى عليه شاهده دانزاس طالبا منه أن يتقدم ، وأوقفه على بعد خمس خطوات من معطفه

ورفع بوشكين بصره لأول مرة الى الرجل الواقف أمامه .. لقد تمكن

أخيرا من أن يجيء به ليضعه على بعد عشرين خطوة من مسدسه !.. ونظر بوشكين الى « دانزاس » يستحثه على الاسراع باعطاء اشارة البدء ، ثم رآه وهو يشير بقبعته على مهل ، فسار نحو الحاجز وهو يرفع مسدسه . وفجأة ، سمع صوت طلق نارى ، وفى الوقت نفسه أحس بوشكين بأن شيئا قد صدمه فى جنبه ، كما لو كان ضربة يد شديدة . ومادت الارض تحت قدمى الشاعر ، وأحس بأنه يسقط فى هوة سحيقة مظلمة

وأسرع اليه « دانزاس » ، وفجأة ثاب بوشكين الى رشـــده ، وكان قد خيل اليه بأن قرونا طويلة قد مرت عليه منذ سقطته ، وحاول جاهدا أن يرفع جســـمه من على الارض مستنـــدا الى يده اليسرى ، ثم قال لدانزاس : « انتظر ، فلا يزال فى وسعى أن أصوب طلقتى ! »

فأعطاه « دانزاس » مسدسا آخر أطلقه الشاعر على غريمه ، وقال وهو يراه يسقط بدوره :

ـ هل قتلته ؟

فأجابه « دانزاس » بقوله :

ـ كلا ، ولكنك جرحته فى صدره

فتمتم بوشكين يقول فى اعياء :

ـ هذا شىء غريب ، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته فى نفسى السرور.. ولكننى أشعر الآن بأن ذلك لم يتحقق ! .. وعلى أية حال ، فالأمر لدى سواء ، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء !

* * *

وكان الدم الذى انساب من جرح الشـــاعر قد كون على الثلج بركة صغيرة حمراء يتصاعد منها البخار ، فنقل فى رفق على زحافة الى بيتـــه حيث كانت زوجته « ناتاليا » تطرز فى انتظاره بغرفة الجلوس ، فما كادت تراه محمولا ومضرجا بدمائه حتى ســـقطت فاقدة الوعى عنـــد قدمى « دانزاس » !

وعانى بوشكين آلاما مبرحة فى ساعاته الاخيرة ، غير ان الشـــاعر

العظيم كان يتحملها فى رجولة وهدوء . وظل القيصر نيقولا يضايقه حتى وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة ، اذ أرسل اليه خطابا يطلب فيه أن يقوم بطقوس الكنيسة الارثوذكسية ، والا فانه سوف يحرمه من معاش زوجته وأطفاله!

وقبل أن يلفظ بوشكين نفسه الاخير ، طلب العفو من أصدقائه الذين يحيطون به ثم طبع على جبين زوجته قبلة الوداع ، وودع أطفاله ، وفى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٣٧ ، أسدل الستار على حياة العبقرى الخالد ..

ولما بلغ خبر وفاته القيصر نيقولا الأول ، قال شامتا :

ـ لقد كنت أتوقع له هذه النهاية ! ..

وظل جثمان الكاتب الكبير معروضا فى بيته ثلاثة أيام ، واحتشد عند مدخل البيت جمع غفير من الناس يربو عددهم على مائتى ألف شخص ، كلهم يريدون أن يلقوا على جثمان الشاعر نظرة الوداع الأخيرة

وحينما أدرك القيصر أن دفن جثمان بوشكين فى بطرسبرج أو فى موسكو سوف ينجم عنه كثير من المتاعب ، أصدر أمره بنقل جثمانه سرا الى دير « سفياتوجورسكى » بالقرب من قرية ميخايلوفسك

وفى صباح اليوم الأول من فبراير سنة ١٨٣٧ ، شاهد جماعة من الفلاحين فى ضواحى بطرسبرج ، زحافة تحمل تابوتا تجرها جياد أربعة ، وهى تجد السير تجاه الجنوب ، وتعدو فى اثرها جماعة من الحرس المسلح!

ليو تولستوى

الكاتب الروسى المفكر

« الفلاحون .. الفلاحون .. هم الذين يجب أن تنظروا اليهم ، وهم يموتون .. ! »

ثم استغرق تولستوى فى غيبوبة طويلة ، وبعد أن تنبه قليلا جلس فى فراشه وأخذت ابنته ألكسندرا ، وابنه سرج يصلحان له الوسائد تحت رأسه ، وسألاه :

ــ هل تريد شيئا ؟ ..

فقال لهما بصوت فيه بقية من قوة ، وبعبارة مفهومة :

ــ لا .. لا .. أريد فقط أن أنبهكم الى انه يوجد فى العالم خلائق كثيرة غير ليو تولستوى .. انكم لا تنظرون الا الى ليو تولستوى .. !

وكانت هذه كلماته الاخيرة ، وهو يعانى سكرات الموت بعد أن عانى أياما آلام الحمى التى انتابته فى رحلته الى « شاموردينو » سنة ١٩١٠ ، وهو فى الرابعة والثمانين من العمر . وكان قد هجر بيته هربا من زوجته العجوز التى اشتد الخلاف بينها وبينه فى أواخر حياته ، فأراد أن يعيش بعيدا عنها فى هدوء . فنهض مبكرا وهى نائمة دون أن يشعرها بعزمه على السفر ، ومشى فى سكون الى حجرة ابنتــه ألكسندرا ، ودق الباب ، فاستيقظت ، فرأت والدها واقفا أمامها ، يرتدى ملابسه ، وفى قدميه حذاء غليظ ، فقال لها :

ــ أنا ذاهب .. أنا ذاهب نهائيا يا ألكسندرا .. ساعدينى فى اعداد حاجاتى .. !

فأسرعت ابنته الى مساعدته ، ولم تكن وحـدها .. كان معها طبيبه الدكتور دوشان ماكوفنسلى ، وابنة عمها فاريا . وكانوا يعملون فى صمت ، لا يتبادلون غير كلمات متقطعة ، وبصوت خافت جدا ..

وتولت ألكسندرا ترتيب أدواته ومخطوطاته وكتبه ، وتولى الدكتور دوشان اعداد الأدوية ، وعنيت فاريا بالثياب والأمتعة . وقد أشـار تولستوى الى المخطوطات ، وقال لابنتـه : « احتفظى بها جيـدا » ، فسألته : « والمذكرات ؟.. »

فأجاب : « أخذتها معى » !..

وكانت حركاته هادئة .. ولـكن نبرات صـوته كانت تنم عن تأثره واضطرابه .. والتفت الى ألكسندرا وقال لها :

ـ يجب أن تبقى هنا ، ساشا ... وبعد بضعة أيام سأبعث فى طلبـك لكى توافينى فى المكان الذى أكون قد اخترته للاقامة فيه ... قد أذهب أولا الى شاموردينو ، عند أختى ماشا

شكت الأسرة فى أنه ذهب الى شاموردينو ، فطلبت زوجته من أحد أفراد أسرته أن يلحق به الى هناك ، ويحاول أن يعيده الى البيت

فى ٢٨ أكتوبر وصل تولستوى الى دير أوبتينو .. ووصف رحلتـه بهذه العبارات : « نمت فى منتصف السـاعة الثانية عشرة .. غفوت الى ما بعد الثانية . ولما استيقظت ، سمعت ـ مثل الليالى السابقة ـ أصوات أبواب تفتح ووقع أقدام .. فى الليالى السابقة لم أنظر الى ناحية الباب ، لكننى فى هذه المرة نظرت ... فرأيت نورا فى حجرة مكتبى ، وخيل الىّ أن يدا تعبث بأوراقى ... انها زوجتى تبحث عن شىء .. ربما كانت تقرأ شيئا ... فى الليلة الاخيرة ـ كانت قد ألحت على بألا أقفل بابى بالمفتاح .. انها تترك بابى غرفتها وغرفتى مفتوحين لكى تراقب حركاتى كلها

« انها تريد أن تعرف كل حركة وكل كلمة تصـدر منى ... سمعت أصواتا أخرى .. الباب يفتح .. انها تمر .. هذا يثير فى نفسى الاشمئزاز والاستنكار .. حاولت أن أنام مرة أخرى ، ولكن بدون جـدوى ..

قضيت ساعة كاملة أتقلب يمينا ويسارا ... ثم أشعلت الشمعة وجلست .. فتح الباب ودخلت زوجتى صوفيا اندريفنا بحجة السؤال عن صحتى ، وأظهرت دهشتها لرؤية الشمعة مضاءة ... الاستنكار والاشمئزاز يبلغان الذروة فى نفسى ، أكاد أختنق ... وصل نبضى الى ٩٧ ..

« لا أستطيع البقاء ممددا .. وفجأة ، قررت نهائيا أن أذهب .. كتبت لها رسالة .. وبدأت أعد حوائجى الضرورية ، لكى أهرب فى أسرع وقت .. أيقظت ساشا .. ثم دوشان ، فساعدانى فى اعداد الحوائج .. اننى أرتعش خوفا من أن ترانا ، من أن تثير مناقشة ... من أن تنتابها نوبة عصبية ! »

ثم واصل وصف هربه .. كيف خرج .. خوفه من المطاردة .. انتظاره فى المحطة وهو يرتعد ... وأخيرا كيف تحرك القطار فهدأت مخاوفه ... والسفر بالدرجة الثالثة ، المزدحمة بجماعة من عامة الشعب ... ثم الوصول الى أوبتينو

أما ألكسندرا ، فقد تركت والدتها فى رعاية الأسرة ، وغادرت البيت للحاق بأبيها فى شاموردينو ، وصحبتها فاريا ابنة عمها فى هذه الرحلة

***

وقد وصفت ألكسندرا هذه الرحلة ، وساعات والدها الأخيرة ، فقالت:

ــ كانت عمتى مارى (ماشا) تقيم فى شاموردينو مع ابنتها ليزا .. فاستقبلنا أبى بترحاب ودى وادراك لحالته النفسية ، انه يشعر بالراحة والهدوء مع أخته وابنتها . ولم تكن الصدفة وحدها هى التى جعلته ، فى تلك اللحظات الدقيقة من حياته ، يفكر فى الالتجاء الى شخص تجمعه به رابطة الدم

كان أبى معجبا دائما بقوانين الأديرة والجو الهادىء الذى يسود فيها وقد تحدث طويلا الى رهبان أوبتينو وراهبات شاموردينو

كان يود البقاء فى شاموردينو .. وقد عثر هناك على بيت منعزل عرض عليه بايجار لايزيد على ثلاثة روبلات فى الشهر .. وكان يرغب فى استئجاره لكن الاخبار والرسائل التى حملتها اليه معى أقلقته وأزعجته

كنت أجلس مع عمتى ماشا فى حجرتها بالدير .. وأتحدث اليها فى ذلك الجو الدافىء . وكان أبى يصغى الى حديثنا ، ولكنه لا يشترك فيه .. وفجأة رأيت يديه تتقلصان على مساند المقعد . ثم نهض واقفا ، وأسرع الى الحجرة المجاورة بخطوات ثابتة . وأدركت انه قد اتخذ قرارا ما ، بعد أن فكر فيه طويلا . وبعد لحظة ، نادانى فذهبت اليه . ولما دخلت قال لى :

ــ ابعثى بهذه الرسالة الى والدتك

وكان نص الرسالة كما يلى :

ــ أمضيت يومين فى شاموردينو وفى أوبتينو . وسأذهب الى مكان أبعد منهما .. ولا أذكر لك ذلك المكان لأننى أعتقد أن الفراق لابد منه ، بالنسبة اليك وبالنسبة الى .. لا تظنى اننى هربت لأننى لا أحبك : فأنا أحبك وفى آن واحد أرثى لحالك بكل مشاعرى .. غير انه لايسعنى أن أفعل غير ما فعلت . فليكن الله فى عونك يا عزيزتى . ان الحياة ليست لعبة يلهو بها الانسان ، ولذا فانه لا يحق لنا أن نتخلص منها حسب أهوائنا ، ولا يقل حماقة عن هذا أن نقيس الحياة بمقياس الزمن . فالشهور القليلة الباقية لنا من هذه الحياة قد تفوق فى أهميتها جميع السنين الماضية . فيجب اذن أن نعيشها وفاقا لما تقتضيه الظروف

« وفى اليوم التالى ، عند الصباح ، استأنفنا السير . ولم يتمكن أبى من أن يودع أخته . بل لم ينتظر ، وحول العربة الثانية التى طلبناها لنقل أمتعتنا الى محطة كوزلسك .. فقد كان عصبيا ، متسرعا . مثل اليوم الذى حزمنا فيه الامتعة بالبيت

« ركبنا القطار فى اللحظة الأخيرة ، بدون أن نعلم الى أين نحن ذاهبون . وتمكنا ، فاريا وأنا ، من وضع الحقائب فى القطار بصعوبة

عرف الناس أبى وانتشر فى عربات القطار خبر وجوده فيه . بسرعة فائقة . وأحاطنا الموظفون بمظاهر التكريم ، وأعطونا حجرة خاصة . وساعدونى فى اعداد كرات من الشعير لأبى ، وأقاموا بالباب حراسة مشددة ، ليمنعوا عنا تطفل المسافرين

بعد الساعة الثالثة مساء ، نادانى أبى : كان يرتعش .. فألقيت عليه غطاء ، وأخذت درجة حرارته ترتفع .. كان محموما ، فشعرت باعياء شديد ، واضطررت أن أجلس ، وتولانى العناء واليأس

أدرك أبى حالة الذعر التى استولت علىّ .. فبحث عن يدى وضمها بين يديه . وقال :

ـ احتفظى بشجاعتك ، ساشا .. فكل شىء على ما يرام .. كل شىء على أحسن ما يرام !

عندما وقف القطار فى أول محطة ، أسرعت وجئت بماء ساخن . ونصحنى الدكتور دوشان ، بأن أقدم لأبى الشاى الساخن ممزوجا بالنبيذ ، ففعلت .. ولكن الرعشة بقيت كما كانت ، والحرارة ظلت فى صعود

وجاء وقت أدركنا فيه الحقيقة الواقعة ، وهى أنه لم يعد بالامكان مواصلة السفر ، ونحن على تلك الحالة . وفى الساعة الثامنة مساء ، وصل القطار الى محطة تشيع فيها الأنوار ، اسمها استابوفو .. فقررنا أن ننزل هناك

ذهب الدكتور دوشان لمقابلة معاون المحطة ، وطلب منه أن يجد لنا مأوى لليل . ولم يكن فى البلدة الصغيرة فنادق .. فقدم لنا معاون المحطة بيته لننزل فيه

اجتزنا المحطة وأنا أسند أبى ، بين صفين من الناس الذين دفعهم حب الاستطلاع الى الاحاطة بنا .. ولما عرفوا أبى حيوه برفع قبعاتهم ، وكان يمشى بعناء وقد خارت قواه ، ويحاول بجهد كبير أن يرد على تحيتهم برفع يده الى قبعته

وما كدنا نخلع عنه ثيابه ونمدده فى السرير ، حتى غاب عن الوعى . وانتابته رعشة شديدة عمت الناحية اليسرى من جسمه ، من وجهه الى ذراعيه وقدميه . وبدا لنا أن النهاية تقترب ، فأرسلنا فى طلب طبيب القرية ، فجاء .. وحقن أبى بمادة مقوية للقلب

وفى ٢ نوفمبر ، عند الساعات الأولى من النهار ، بدأت الحرارة تصعد بسرعة . وجعل أبى يسعل ويبصق دما .. ان المرض يمزق الرئتين ، فأرسلت برقية الى أخى سرج هذا نصها : « الحالة خطرة .. أردت أن أخبرك أنت وثانيا .. وأخشى قدوم الآخرين »

كنت فعلا أخشى قدوم والدتى ! ..

فان دوشان تلقى فى ذلك اليوم برقية تفيد بأن والدتى ذهبت الى تولا ، وانها من هناك طلبت قطارا خاصا فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وسافرت به الى استابوفو مع اخوتى وأحد الاطباء واحدى الممرضات

وذعرت من الخوف !..

كيف السبيل الى حماية أبى ؟ ..

هل بلغ عدم التبصر بأفراد الأسرة كلهم حدا أصبحوا معه غير قادرين على ادراك الحقائق ؟ ..

ولكن ، لحسن الحظ ، أسرع أخى سرج وسبقهم جميعا .. فقد أدرك هو أن أية صدمة يلاقيها أبى ستكون قاضية عليه ، لأن قلبه أصبح فى حالة هبوط مخيف

وفى نفس اليوم ، أرسل سرج الى اخوتنا برقية يقول فيها ان حالة أبى فى تحسن ، وان كان القلب لايزال ضعيفا ، وأضاف أن مجىء والدتى سيكون له لدى أبى وقع قاتل !

ولم يكن أبى يعلم ، فى تلك اللحظات العصيبة ، أن خبر مرضه قد انتشر فى كل مكان ، وطاف حول العالم ، وأن الأسرة كلها تجتمع فى استابوفو ..

فقد عسكر حول المحطة جيش من المصورين . ووقف الصحفيون يرقبون ، ويتسقطون الأخبار ، ويتلقفون كل كلمة تخرج من بيت معاون المحطة الصغير ..

أما نحن ، فكنا نحيط بتولستوى ليلا ونهارا ، ولا نسمع ولا نتتبع غير دقات قلبه وسير تنفسه

تناوب فى نفوسنا الأمل واليـأس .. تهبـط الحرارة فيعاودنا الأمل ، وترتفع الحرارة فيتولانا اليأس من جديد .. الرئتان أصبحتا مصابتين ، والقلب يخفق بصعوبة .. وحتى هبـوط الحرارة أصبح دليـلا على أن الجسم لم يعد قادرا على المقاومة . وبعد أن كان التنفس سريعا ، أصبح متقطعا

جعلنا نصلح وضع الوسائد تحت رأسه فسمعناه يتمتم : « الفلاحون الفلاحون .. هم الذين يجب أن تنظروا اليهم وهم يموتون !.. »

مر يوم ٤ نوفمبر وأبى فى شبه غيبوبة . كان يهذى .. يحاول أن يقول لنا شيئا .. ثم يفقد كل حركة . كانت أصابعه وحدها ، أصابعه التى لم يبق على عظامها غير الجلد ، تتحرك باستمرار على الغطاء . أما نظره ، من خلال عينيه الجاحظتين ، فقد خيل الينا أنه متجه الى داخل نفسه لا الى ما يحيط به ، كأنه غارق فى تأملات لا نستطيع ادراكها لأنها مستعصية

وفجأة ، تمتم أيضا : « البحث .. البحث .. دائما البحث .. »

ووصل أطباء من موسكو .. ولكن كل أمل كان قد اضمحل

***

فى ٦ نوفمبر ، جعل يلاطف جميع الذين كانوا حوله ..

يقترب منه الدكتور دوشان ، فيقول : « عزيزى دوشـان .. عزيزى دوشان .. »

نصلح فراشه ، فأشعر بأن يده تبحث عن يدى .. ظننت مرة أنه يريد شيئا يستنـد عليه ، لكنه ضـغط فقط على يدى مرتين . فغمرت يده بالقبلات ، وتجالدت كى لا تنهمر دموعى

فى اليوم ذاته ، كنت جالسة مع ثانيا على طرف سريره . وفجأة ، بحركة عنيفة رفع رأسـه وجلس . فاقتربت وسـألته اذا كان يريد أن نصلح له الوسائد أو يريد شيئا .. لكنه قال بصوت فيه بقية من قوة وبعبـارات مفهومة :

« لا .. لا .. أريد فقط أن أنبهكم الى انه يوجد فى العالم خلائق

كثيرة غير ليو تولستوى .. انكم لا تنظرون الا الى ليو .. »
تلك كانت كلماته الأخيرة ، الموجهة الىّ والى ثانيا ..
وفى المساء ، تفاقمت حالته .. أعطوه أوكسجينا ليساعده على التنفس وحقنوه بالكافور .. فهدأ .. ونادى سرج :
ــ سرج .. الحقيقة .. أحب كثيرا .. انهم ..
وتراخت قواه .. فنام .. وتحسن تنفسه ، وخيل الينا أن الخطر قد ابتعد .. وذهب البعض الى فراشهم .. وبقى المكلفون بالسهر ليلا
وفى منتصف الليل ، استيقظ الجميع ..
كان أبى يلفظ أنفاسه الاخيرة ! ..

الفصل الثانى

رجال تصوير وموسيقى

* فنسان فان جوخ
* ولفجانج اماديوس موزار
* لودفيج فان بيتهوفن

ڤنسان فان جوخ

المصور الهولندى

وزار الفنان فنسان فان جوخ أخاه « تيو » وزوجته فى منزله بباريس فى يوليو عام ١٨٩٠ م . وكان شقيقه فى ذلك الحين يعوله ويعنى به فى مرضه الاخير ، فأكدت له هذه الزيارة انه ينبغى ألا يظل عبئا على أخيه ، فلما عاد الى هولندا كتب اليه يقول :

ــ انك عاونتنى يا أخى كثيرا ، وآثرت الفقر لتعولنى . وأرى واجبى الآن أن أرد اليك ما أنفقت على ، أو أن أسلم الروح وأوثر الموت على الحياة ..!

ثم عكف فنسان فى النصف الثانى من الشهر على رسم لوحته الاخيرة الرائعة : « غربان تطير فوق حقل القمح »

وفى اليوم السابع والعشرين حمل أدوات الرسم ساعة الاصيل ، وانطلق بها الى حقل القمح الاصفر ، وهنـاك فى أعلى التـل رفع وجهـه الى الشمس ، وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله !..

ولم تصب الرصاصة قلب فنسان ، فعاد الى غرفته فوق مقهى « رافو » وقد عنى بربط أزرار سترته ، حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره . ومر من أمام السيد « رافو » صاحب المقهى ، وكان جالسـا مع زوجتـه فى المدخل ، فنظرت اليه المرأة فى دهشة ، ثم قالت لزوجها فى قلق بعد أن اختفى فنسان داخل البناء :

ــ أرجو أن تصعد بسرعة لترى ماذا بالفنان الشاب .. !

وكان فنسان قد انتابه مرض عقلى من جراء ما أصابه من الفقر واليأس وشقاء الفن والفنانين فى ذلك الزمان ، ولم يكن قد اتجه الى العناية بالفن فى أول نشأته ، ولم تكن التربية الفنية فى أول حياته هى وسيلته الى الحياة

ولكن كل شىء حوله كان يدل على ان هذا الشاب الهولندى ذا الشعر الأحمر ، الذى كان يعمل بائعا للصور فى متحف « جوبيل » بلندن ، والذى كان فى الثانية والعشرين من عمره سيكون له مستقبل حسن فى فن التصوير . ولقد كان له عم هرم يملك نصف متاحف جوبيل فى بروكسل وباريس وبرلين ولاهاى وامستردام . ويقال انه ينوى أن يوصى للشاب بكل ما يملك . وكان له عم ثان له عدة حوانيت كبيرة لبيع الصور فى بروكسل ، وثالث يملك أكبر متجر فى هولندا بأسرها

ولكن « فنسان » وجد نفسه فجأة وقد فقد كل متعة فى بيع الصور ، فقد أحب لأول مرة فى حياته فقوبل حبه بالامتهان .. وفى الليلة التى قال فيها لفتاته « أورسولا » : « أتقبلين أن تكونى زوجتى ؟ .. »

أجابته قائلة وقد اتسعت عيناها من الدهشة : « زوجتك ! .. هذا محال ، فأنا مخطوبة .. وخطيبى فى « ويلز » ! .. » ثم أفلتت يدها من يده ، ودارت على عقبيها وأضافت تقول فى صوت كالهمس كان له فى نفس الفتى وقع الصاعقة : « يا له من بائع صور أحمق .. أحمر الشعر ! »

وأدارت هذه اللطمة رأس « فنسان » ، الا ان الألم — وهذا من دواعى العجب — قد أرهف احساسه بالألم فى نفوس الآخرين كما جعله لا يطيق النجاح الصاخب الرخيص

ولم يكد ينقضى شهر على هذا الحادث حتى نفض « فنسان » يديه من تجارة الصور وترك عمله فى متحف « جوبيل » ، وانتظم قسيسا فى مدرسة لطائفة « النظاميين » (الميثوديست) ، وكان تلاميذها من أحياء « لندن » الفقيرة ، وفى بيوتهم عرف « فنسان » لأول مرة معنى الفاقة الحقيقة ، فقد كانت الأسر تحشد كقطعان الماشية فى غرف عارية باردة ،

وأفرادها ينتفضون من شدة البرد ووجوههم تنطق بالسقم والبؤس ، وتذكر وهو ينصت الى قصص تعاستهم قول أحد المفكرين : « ان الانسان لم يخلق على هذه الارض ليسعد وحسب ، ولا ليكون شريفا فقط ، ولكن ليقوم من أجل الانسانية بمساع عظيمة ، وليرتقى الى مرتبة النبل »

فخطر للشاب أن من الخير أن يكون المرء « انجيليا » فى مثل هذا الحى البائس ..

وذات يوم من أيام الآحاد ، كلف « فنسان » بأن يلقى عظة فى كنيسة كبيرة على جمهور حاشد يضم نخبة ممتازة من الناس ، فكان لصوته وحماسته وعينيه النافذتين وقع عظيم ، وتمنى حينما التف حوله السامعون لمصافحته لو أنه استطاع أن يحمل نجاحه هذا ليضعه فى تواضع عند قدمى « أورسولا » ويشركها معه فيه ، وانطلق يسير تحت وابل المطر حتى أتى بيتها فوجده غارقا فى الاضواء والمركبات مرصوصة أمام بابه ، ووقعت عيناه على « أورسولا » مستندة الى ذراع شاب نحيل طويل القامة ، وهما واقفان بالباب والناس يخرجون وينثرون عليهما الأرز وهم يضحكون ! فقفل الشاب راجعا تحت المطر المنهمر ليحزم متاعه ويغادر مدينة « لندن » الى غير رجعة

***

ولم ينقض وقت طويل حتى أدرك « فنسان » ان التربية الدينية لا تلائمه ، وكان السؤال الذى يشغل باله ويضنيه فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار هو : هل ينبغى أن يكون قسيسا محترما بارعا ؟ وما القول فيما ينشد من فعل الخير وتقديم العون للفقراء والمرضى والبائسين ؟

واقترح عليه أحد أصدقائه أن يذهب لتحقيق آماله فى منطقة البوريفاج وهى منطقة الفحم فى بلجيكا ، حيث يعمل المعدنون دائما وهم فى خطر من الغاز والانفجارات أو الفيضان ، ويأخذون أجورا لا تكاد تكفى لما يسد العام من أثر البرد والحمى !

فذهب « فنسان » الى « البوريفاج » منتدبا من قبل اللجنة الانجيلية ، ولم يترك كوخا فى البلدة الا زاره مواسيا وحمل اليه الطعام ، ولا مريضا الا عنى به وجلب له الدواء ، ولا مكروبا الا هون عليه وصلى معه، وكثيرا ما كان يبذل للعمال ما كان فى جيبه من مال قليل ، ولم يكن يخفى عليه ان هذا عبث لا جدوى فيه ، اذ كان هناك مئات من الرجال والنساء والاطفال فى « البوريفاج » يتضورون جوعا أو يفتك بهم البرد والمرض !

وعاد الشاب ذات يوم الى غرفته وهو يوشك أن يفقد عقله من جراء ما يحيط به من المآسى والآلام ، فأجال بصره فى أرجاء غرفته المريحة ، وسريره الوثير ، ثم ألقى نظرة على صوانه الملىء بالملابس ، وبدا له أن لديه من الطعام لوجبة واحدة أكثر مما عند هؤلاء المعدنين لمدة أسبوع كامل ، فشعر فجأة بأنه منافق كذاب ، وجبان أثيم ، يعظ الناس ويزيّن لهم فضائل الفقر وهو يعيش فى رغد وسعة !

فجمع « فنسان » ما زاد عن حاجته من الثياب وقدمها الى من هم أشد حاجة اليها ، وانتقل الى كوخ لا نافذة له ولا بلاط ، تغشاه الريح اذا ما هبت وتنفذ اليه الامطار والثلوج ، وأخذ يعيش كما يعيش عمال المناجم ، فيأكل من طعامهم وينام على فراش كفرشهم ، بل لقد دهن وجهه بتراب الفحم كى يبدو مثلهم ، فأصبح أخيرا واحدا منهم وصار له الحق فى أن يبلغهم تعاليم الانجيل .. وكان ينفق أكثر مرتبه على غيره ، وأضناه الجهد وقلة الطعام ، فكان يروح ويغدو وهو محموم ، وعيناه كأنهما جمرتان تتقدان ، وأعصابه تكاد تتمزق ، الا أنه ظل متجلدا قوى العزيمة على الدوام

وذات يوم ، حدث بالمنطقة حادث احترقت بسببه جلود ثلاثة من الاطفال واضطر « فنسان » الى تمزيق سترته وملابسه الداخلية وقميصه ، ثم سراويله ليتخذ منها جميعا ضمادات يعصب بها جلود الصبية المساكين بعد أن دهنها بالزيت ، فأعلنت « اللجنة الانجيلية » أن مسلك « فنسان »

« شائن وأخرق » ، وقطعت عنه مرتبه بعد أن نهته عن الوعظ !

وهكذا أفلس الشاب مرة ثانية فوجد نفسه بلا عمل ، ولا مال ، وأصبح لا يدخل كوخا ، أو يواسى مريضا ، أو يكلم أحدا الا فيما ندر .. بل شر من ذلك كله أنه فقد قوة روحه وقدرته على البدء من جديد !

***

وانقضت شهور ثم استيقظ شيء فى نفس « فنسان » ، اذ قال لنفسه انه لايمكن أن يكون عاجزا كل العجز ، وان فى وسعه أن يسهم على نحو ما فى اسداء بعض الخير الى الناس ، ولكن .. كيف السبيل الى ذلك ؟

وكان الشاب فى تلك اللحظة جالسا عند باب المنجم ، فأخذ يرسم العمال وهم يخرجون ، وأدرك فجأة فى المساء وهو يعيد رسم ما صور أنه لايزال يحن الى عالم الصور ، فعكف بعد ذلك على العمل ، وعاد يدخل الاكواخ كما كان يفعل من قبل ، وفى يده ورق وقلم فى هذه المرة بدلا من الانجيل ؛ وراح يرسم ويرسم ، فصور الأسرة وهى جالسة الى طعام العشاء ، والزوجة وهى مائلة على القدر ، والاطفال وهم يمرحون ويلعبون .. وانقضى عليه أحد عشر يوما وهو عاكف على الرسم ، عاشها على أرغفة من الخبز اقترضها وليس فى جيبه درهم واحد ، ولكنه كان يشعر مع ذلك بأنه هانىء سعيد ، وعرف ان خدمة الكنيسة لم تثر فى نفسه هذه النشوة الغامرة التى أثارها فيها الفن الخلاق

وانقضت شهور أخرى ثم مرض « فنسان » فلازم الفراش محموما غائر العينين ، وعلى هذه الحال وجده شقيقه « تيودور » ــ وكانوا يلقبونه « تيو » ــ الذى جاءه فجأة دون أن يخطره بمقدمه .. وكان « تيو » فى الثالثة والعشرين من عمره ، ولكنه كان تاجرا ناجحا يبيع الصور فى باريس وينعم ببسطة فى الرزق ، ويستمتع بكل مباهج الحياة .. فساءه أن يجد أخاه ضحية الحاجة والمرض، وكان يحبه حقا وينزله من نفسه منزلة خاصة، فصمم على انتشاله من هذا الجحيم ، وقال له : « اسمع يا فنسان .. اذا كنت قد اهتديت حقا الى العمل الذى تحبه وتتقنه ، فلم لا نكون شركة

بيننا ؟ أنت تقدم العمل ، وأنا أدبر المال اللازم ، وفى استطاعتك ان تعيش حيث تشاء : فى باريس ، أو أمستردام ، أو لاهاى .. »

واستقر « فنسان » فى « لاهاى » حيث تتلمذ على المصور المعروف « انطون موف » ، واستأجر « ستوديو » بمائدة ومقعدين و « بطانية » ، وعكف على الرسم . وكان الفنان الشاب ينام فى الاستوديو على الارض ويقاسى آلام الوحدة . هذا فضلا عن ان النماذج التى كان بحاجة اليها ليصورها كانت تكلفه ثمنا غاليا ، وربما تأخر وصول الفرنكات المائة التى يمده بها شقيقه « تيو » كل شهر فيفلس وتضيق به السبل ، ويتمنى لو أن القدر من عليه بلحظة واحدة يستطيع فيها أن ينعم مرة فى حياته بالراحة والاطمئنان

وتلقى « فنسان » أول طلب للوحاته من عمه كورنيليوس فان جوخ تاجر الصور الفنى ، طلب منه اثنى عشر لوحـة ، كل واحـدة بفرنكين ونصف فرنك !.. فسر « فنسان » بذلك أيما سرور ، وبعث بالصور الى عمه على الفور ، غير انه اضـطر أن ينتظر طـويلا حتى يتلقى الفرنكات الثلاثين !

ومضى الصيف ، وكان « فنسان » يغادر البيت فى الصباح المبكر فلا يعود الا بعد حلول الظلام ، غير ان الشتاء ما لبث أن جاء فاضطره الى العمل فى البيت ، الأمر الذى كان يضطر الفنان الى أن يستيقظ فى الساعة الخامسة صباحا ليعنى بشئون البيت !

وأخيرا أقبل الربيع ، وكانت أحواله قد زادت سوءا ، فكتب الى شقيقه خطابا قال فيه : « عزيزى تيو ، ذهبت الى مدينة آرل ، أرجو أن تعلق بعض لوحاتى على الجدران حتى لا تنسانى . أقبلك .. فنسان »

وفى آرل ، خلبت لبه ألوان الريف الجنوبى ، فأخذ يسائل نفسـه : « كيف يرسم هذه الالوان الرائعة ؟ السماء ذات اللون الازرق العميق ، والشمس ذات الصفرة الوهاجة ، وحمرة الارض ، وأزهار البساتين ؟.. » وراح الفنان يستيقظ كل صباح قبل الفجر ، ويعود فى المساء يحمل تحت

ذراعه لوحة قد أتم رسمها !.. وكانت كل لوحة يرسمها ترجمة رائعة خالدة للطبيعة الوهاجة ، ولم يكن يحيا حياة شخصية ، وانما كان أداة عمياء للرسم ، أداة تعمل لأنها لا تستطيع الا أن تعمل . كانت حياته شيئا واحدا لاغير : القدرة الهائلة على الخلق والابداع

***

وانتابه الارق ذات ليلة ، فقصد الى « الميزون دى توليرانس » ، وهناك تسللت الى جواره فتاة قالت له وهى تبتسم : « اننى أدعى راشيل » .. ونظر اليها « فنسان » فوجدها جميلة الوجه ذات عينين واسعتين زرقاوين وشعر أسود فى لون الفحم ، فقال لها :

ـ انك رائعة الجمال يا راشيل !

فابتسمت له الفتاة وتناولت يده وهى تقول :

ـ اننى أحب أن يعجب بى الرجال ، فكم هذا جميل .. أليس كذلك ؟

وحينما هم الفنان بالانصراف ، قبلت الفتاة أذنه ثم قالت :

ـ ان لك أذنا صغيرة جميلة كأنها أذن جرو ! .. تعال لترانى كل ليلة

فقال فنسان :

ـ ليس كل ليلة يا راشيل ، فليس معى المال اللازم لذلك ..

فقالت الفتاة :

ـ اذا لم يكن معك المال فاعطنى اذنك اذن .. اننى أحب أن ألعب بها !

وودعته الفتاة وهى تقول : « لا تنس أن تبعث الى بأذنك الصغيرة »

وظل الفنان يعمل طيلة الصيف بكل طاقته حتى كاد يقتله العمل ، ونفذ ما كان يملكه من المال مرة أخرى فعاش أربعة أيام على ثلاثة وعشرين قدحا من القهوة ورغيف واحد من الخبز

وقاده الحظ ذات مرة الى بيت أصغر ، وهو بيته الاصفر الشهير الذى أحبه الفنان حبا جارفا ، وكان البيت قائما بذاته ، وأرضه من البلاط الاحمر ، وجدرانه بيضاء ، وواجهته الى الشمس . وكان ايجاره بخمسة عشر فرنكا فى الشهر !

كان البيت واسعا ، فما أبدع أن يستقدم اليه صديقه الفنان الشهير جوجان ! .. أما تيو فينبغى أن يجىء اليه دائما ليقضى معه أجازته !

***

وجاء جوجان ، وكان لقاء حارا صاخبا بين الصديقين ، غير انهما ما كادا يستقران فى البيت حتى أخذا يختلفان فى آرائهما نحو الفن ، فكانا بالنهار يقذفان بعضهما بألواح الألوان ، وبالليل تتصارع شخصياتهما صراعا شديدا . ولجأ الفنانان الى شراب « الابسان » لتسكين أعصابهما ولكنه زادهما ثورة

وذات ليلة ، كانا فى أحد المقاهى ، فتناول « فنسان » قدحا وقذف بها فى وجه جوجان ، فاتقاها جوجان وحمل صديقه الى البيت . وبقى فنسان بعد ذلك الحادث هادئا عدة أيام ، وحينما كان الصديقان يتناولان عشاءهما ذات ليلة فى صمت واكتئاب غادر جوجان البيت دون أن ينبس بكلمة واحدة !

وحينما وصل جوجان الى خارج البيت ، سمع خلفه وقع خطى سريعة قصيرة يعرف صاحبها جيدا ، فالتفت الى الوراء فوجد صديقه يتحفز للهجوم عليه وقد أمسك فى يده بموسى حادة ! .. وهجم عليه فنسان فاستدار جوجان على عقبيه فى سرعة .. وفجأة ، وقف فنسان يحدق فى صديقه لحظة ، ثم انكفأ يعدو الى البيت . وقضى جوجان هذه الليلة فى أحد الفنادق

وبعد ذلك بقليل من الوقت شاهده الناس يتوجه الى « الميزون دى توليرانس » ورأسه معصوبة بضمادات كثيرة ، فلما بلغه الفنان أخذ يبحث بين الموجودين عن راشيل ، ورأته الفتاة فأسرعت من فورها نحوه وهى تقول : « انه أنت أيها المجنون ذو الشعر الاحمر؟.. هل ستأتى الآن معى؟»

فأجابها فنسان قائلا وهو يمد يده اليها بلفافة مربوطة :

ـ كلا ، ولكن اليك هذا التذكار

ـ كم أنت لطيف حقا !.. ما هو هذا التذكار ؟

ـ افتحى وانظرى ما بداخل اللفافة !

فحلت الفتاة الرباط ، فظهرت على وجهها أروع مظاهر الرعب ، فقد وجدت بداخلها أذن يقطر منها الدم !.. وسقطت الفتاة مغشيا عليها على درجات السلم

وحينما استيقظ الفنان فى اليوم التالى وجد شقيقه تيو الى جوار فراشه ، فراح يبكى وينتحب فى مرارة وهو يقول : « عزيزى تيو .. حينما أستيقظ وأحتاج اليك أجدك دائما انى جوارى ! »

وظل تيو صامتا لا ينبس بكلمة

***

وبعد أسبوعين ، أذن الطبيب للفنان بأن يواصل الرسم ، ولكنه حذره بشدة من الاغراق أو التهاون . ومضت عدة أسابيع ، ثم حدث أن كان فانسان ذات ليلة فى أحد المقاهى ، واذ به يدفع الطبق الى الارض ويركل المائدة بقدمه ثم يثب وهو يصيح قائلا : « انكم تريدون أن تسمونى »

وحضر اثنان من رجال الشرطة وحملاه الى المستشفى ، وما لبث الطبيب بموافقة تيو وبناء على رغبة فنسان نفسه أن قرر ادخاله مستشفى «سان ريمى » للامراض العقلية ، وهناك أوصدت الابواب على الفنان العظيم

ولاحظ فنسان فيما بعد أن النوبات التى تعتريه دورية ، وانها تنتابه مرة كل ثلاثة أشهر . وذات يوم وصلته رسالة مسجلة من شقيقه تيو يقول فيها : « أخيرا ، بيعت لوحتك ـ الكرم الأحمر ـ بأربعمائة فرنك ، فأهنئك . واننى لواثق من أن لوحاتك سوف تباع قريبا فى كل مكان فى أوربا »

وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ تلقاه الفنان فى حياته ، فتحسنت صحته وأحواله النفسية ، وأقبل على العمل فى حماسة منقطعة النظير ، غير انه صار يحتاط بعد أن عرف مواعيد النوبات ، فكان يرقد بضعة أيام ، ثم ينهض مرة أخرى ويعكف على العمل

وقبـــل أن تعتريه احدى النوبات بيومين ، احتاط لها الفنان فأوى الى فراشه وهو فى صحة جيدة . وجاء يوم النوبة المنتظر ، ثم انقضى بعده يوم آخر ، ولكن « فنسان » كان لايزال يحس بأنه فى حالة طبيعية . ومر يوم ثالث لم يحدث فيه شىء ، فضحك الفنان وقال : « ألم أقل ان الطبيب قد أخطأ ؟.. لقد ذهب عنى المرض وتم لى الشفاء ، وغدا أعود الى الرسم »

وفى الليلة ذاتها ، نهض « فنسان » من فراشه ، وكل من فى المستشفى نيام ، ونزل حافى القدمين الى مخزن الفحم فلوث يديه ومرغ وجهه فى ترابه ثم راح يقول : « ألا ترون أننى الآن واحد منهم ؟.. الآن أستطيع أن أبلغ عمال المناجم كلمة الله ! » . وعثر عليه الحراس فى الفجر بالمخزن وهو يهمس بصلوات مضطربة مختلطة ، ويرد على أصوات وهمية كان يتوهم أنها تتحدث اليه !..

***

وقضى « فنسان » فى مستشفى « سان ريمى » ثمانية عشر شهرا ، واستقر عزمه أخيرا على أن يغادر المستشفى ، اذ كان يتطلع الى ضـــوء أكثر توهجا ويتوق الى صحبة زملائه من الفنانين بعد أن ضاق صدره بنزلاء المستشفى من المجانين . واقترح عليه صديقه الفنان « بيسارو » أن يتوجه الى بلدة « أوفير سيرواز » Auvers-sur-Oise لأن بها طبيبا يدعى الدكتور « جاشيه » مغرم بفن الرسم الى حـــد الجنون ، بل ويمارس الرسم بنفسه

وفى الطريق الى بلدة « أوفير » فى أواخر مايو عام ١٨٩٠ م ، عرج الفنان على باريس حيث زار شقيقه « تيو » فوجد أنه قد تزوج وأصبح ربا لأسرة ، فأحس «فنسان» بمدى عمق وحدته ، وخشى فى الوقت نفسه أن ينقطع عنه عون أخيه ، غير أن موقف « تيو » من شقيقه لم يطرأ عليه أى تغيير

وفى بلدة « أوفير » ، استأجر « فنسان » غرفة صغيرة فوق مقهى

« رافو » وعكف على الرسم فى حماس لم يسبق له نظير ، وقد أثر فيه جمال الريف وخضرة الحدائق أيما تأثير ، فضلا عن ذلك الاستقبال الحافل الذى استقبله به الدكتور « جاشيه »

وفى السادس من يوليو عام ١٨٩٠ م ، قام الفنان بزيارة أخيه « تيو » وزوجته وطفلهما « فنسان » مرة ثانية فى باريس ، فأكدت تلك الزيارة فى ذهنه أنه لا ينبغى عليه أن يظل عبئا على أخيه ، فكتب الى « تيو » يقول : « انك عاونتنى يا أخى كثيرا ، وآثرت الفقر لتعولنى . وأرى من واجبى أن أرد اليك ما أنفقت على أو أن أسلم الروح ، وأوثر الموت على الحياة . ترى هل آن الأوان لينظر « فنسان » الى الموت وجها لوجه ؟ !.. وعكف « فان جوخ » خلال النصف الثانى من الشهر نفسه على رسم لوحته الاخيرة الرهيبة : « غربان تطير فوق حقل من القمح » . وفى اليوم السابع والعشرين ، حمل « فنسان » أدوات الرسم ساعة الأصيل ، وانطلق بها الى حقل القمح الاصفر ، وهناك فى أعلى التل ، رفع وجهه الى الشمس وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله !

ولم تصب الرصاصة قلب « فنسان » ، فعاد الى مقهى « رافو » وقد عنى باحكام ربط أزرار سترته حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره ، ومر من أمام السيد « رافو » صاحب المقهى ، وكان جالسا مع زوجته فى مدخل المقهى ، فنظرت اليه المرأة فى دهشة ثم قالت لزوجها فى قلق بعد أن اختفى الفنان الشاب داخل البناء : « أرجوك أن تصعد بسرعة لترى ماذا به ! »

وما كاد الرجل يدخل غرفة « فان جوخ » حتى وجده ممددا فى فراشه ووجهه تجاه الجدار وقد لوث الدم سترته ، فقال له الفنان فى بساطة وهدوء : « لقد أردت أن أقتل نفسى فأخطأت الهدف .. هذا كل ما هنالك ! »

وقرر الدكتور « جاشيه » ، كما قرر معه طبيب « أوفير » ، أن اخراج الرصاصة من صدر « فنسان » أمر محال ، وأراد الرجل أن يطمئن الجريح فأخذ يحدثه عن الخطأ الذى ارتكبه فى حق نفسه ، فلم يزد هذا على أن

قال له فى بساطة : « آه !.. حسنا ! » وطلب أن يحضر له غليونه ، ولما سئل عن عنوان سكن أخيه رفض أن يشير اليه بكلمة واحدة !

وقضى « فنسان فان جوخ » ليلته وهو يدخن فى صمت ، صابرا على آلامه ، وكان السيد « رافو » وابن الدكتور « جاشيه » يتناوبان السهر عليه

ولما أقبل رجال الشرطة للتحقيق فى الصباح اكتفى الفنان الجريح بأن تمتم قائلا : « ان هذا لا يعنى أحدا سواى ! »

وكان « تيو » قد أخطر بما حدث على عنوان المتجر الذى كان يعمل به فأسرع من فوره بالمجىء وقد أذهله النبأ وعصفت به الاحزان ، فقال له فنسان فى مزيج من الهدوء والحنان : « علام البكاء يا أخى ؟.. انما فعلت ما فعلت ابتغاء لخير الجميع ! »

ودار بين الشقيقين حديث طويل باللغة الهولندية . وانقضى بعض الوقت ثم سأل « فنسان » أخاه عن رأى الاطباء فى حالته فطمأنه « تيو » وأكد له انه سيتماثل عاجلا للشفاء ، فلم يزد الفنان الشاب على أن قال : « لا جدوى من ذلك ، فسوف تدوم الاحزان ! »

وأتى ليل جديد فأخذ « فان جوخ » يحتضر فى هدوء .. وانتبه الشاب من شروده فجأة وقال لأخيه : « هكذا أريد أن أنتهى » ولا غرو فقد كان الموت بالنسبة اليه أكثر هدوءا ووداعة من الحياة .. وقضى نحبه دون أن يقاسى مزيدا من الآلام ، فلفظ آخر أنفاسه فى منتصف الساعة الثانية صباحا فى التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٠ م .. قضى نحبه ولم يتجاوز من عمره السابعة والثلاثين

وعلق أصدقاء الفنان الراحل آخر لوحاته فى الصالة الكبرى بمقهى « رافو » ، ووضع نعشه على منصة عالية تحف به الزهور ومن بينها باقة من زهور عباد الشمس ، ووضع الحامل الذى كان يستعمله فى الرسم أمام النعش ، كما وضعت « الفرش » وأنابيب الألوان ، التى كانت متعته الكبرى وسعادته الوحيدة فى هذه الحياة

ولفجانج أماديوس موزار

الموسيقار النمسوى العبقرى

وقال موزار لمن حوله ، وهو يعانى سكرات الموت :

ـ ألم أقل لكم اننى لم أؤلف اللحن الجنائزى الا من أجل نفسى

وارتسمت على شفتى الفنان العبقرى أنغام النفخ فى الصور يوم القيامة كما صورها فى هذا اللحن الحزين الذى ختم به حياته كفنان ، وحياته كانسان الى الابد .. !

وكان قبيل وفاته قد أصيب بداء الحمى ، فأثر فى صحته ، وزاد من ضعفه وهزاله ، وجاءه فى ذلك الحين شيخ غريب ، عابس الوجه ، قد وضع شارة الحداد على قبعته وذراعه . وقدم له رسالة يقول فيها كاتبها ان زوجته توفيت ، ويريد من الموسيقار أن يؤلف له قداسا يلقى فى ذكراها بالكنيسة . وهو مستعد لدفع ما يطلبه من المال نظير ذلك العمل الفنى . فقرأ موزار هذه الرسالة . ولما انتهى من قراءتها قال للشيخ الغريب :

ـ ان الرسالة خالية من التوقيع .. !

فأجابه الشيخ :

ـ ليس ذلك بالأمر المهم .. ما دمت قد جئتك بها .. !

فقال موزار :

ـ ومن تكون أنت أيها الشيخ ؟ ..

فأجاب :

ـ أنا رسول مكلف بأن أعود بالرد ، وأن أدفع لك ما تريد اذا شئت !

فتعجب موزار ، وأخذ يفكر ، ودارت برأسه خواطر كثيرة . وكان قد أمضى حياته القصيرة لم يؤلف فيها لحنا جنائزيا ، وكان يتمنى لو أتيح له أن يقدم من انتاجه شيئا من الموسيقى الدينية والالحان الجنائزية التى لا تقل أهمية عن فن الاوبرا

واتفق مع الشيخ على وضع هذا اللحن . ثم قال له :

ـ سأضع اللحن المطلوب ، ولكننى لا أستطيع أن أعين لك اليوم الذى أقدمه فيه اليك !..

قال الرجل : « لك ما تريد من الوقت الكافى للتلحين ، وليس فى الأمر عجلة . وما هى قيمة الأجر ؟ .. »

فأجاب موزار : « أربعون جنيها .. »

فأخرج الشيخ المبلغ وقدمه اليه قائلا :

ـ انى مكلف بأن أدفع لك المبلغ حالا . وعند تسلمى اللحن سأقدم لك مبلغا آخر .. !

ـ الى من أرسل اللحن بعد انجازه ؟ ..

ـ سأحضر أنا لأتسلمه بيدى ..

وانصرف الشيخ الغريب بعد ذلك . وقد عرف المؤرخون فيما بعد أن مرسل هذا الشيخ وصاحب الرسالة ، هو « الكونت فالسيج » ، وكان هذا الكونت مولعا بتكليف مؤلفى الموسيقى أن يضعوا له الألحان سرا . ثم ينتحلها لنفسه ، ويدعى أنها من تأليفه ..

***

كان ذلك فى يوم من خريف عام ١٧٩١ م ، وكان نجم حياته يزداد سرعة وتوهجا وهو منطلق الى الظلام الأبدى . وقد بلغ العام الخامس والثلاثين من عمره ، وأدركه الداء فى مدينة فينا . وعلى الرغم من ذلك قام فى صيف ذلك العام بتلحين الاوبرا الشهيرة : « الناى السحرى » فجاءت تحفة فنية رائعة ، حفلت بأعظم الانغام ، وأبرع الفن .. !

وكان قد لحنها استجابة لرغبة صديق له ، كان مديرا لكثير من مسارح

النمسا . وهو « عمانويل شيكانيدر » . ثم صار مديرا لأحد مسارح فينا . وقد حالفه النجاح طويلا ، ثم عبس الدهر فى وجهه ، وأصيب بالبوار والفشل ، فلجأ الى موزار ، وكان قد سئم الحياة ، وما عاناه من بؤس ، وما رآه من جحود لعظمة الفن ، وحسد من زملائه ، وفشل فى النمسا وفى مدينة فينا بالذات حيث وصلت به الحال الى أن يرهن حلى زوجته « كونستانسه » ومتاعه ، وأن يموت أولاده الكثيرون واحدا بعد واحد ، ما عدا ابنه البكر « كارل » ، فريسة للفقر والامراض .. حتى كان يقول :

— ان الموسيقى فن لا خبز فيه .. !

فلما جاءه صديقه وهو على هذه الحال رحب به قائلا :

— صديقى شيكانيدر .. أهلا وسهلا .. اننى لم أرك منذ زمن طويل . كيف حالك ؟ ..

— حالى سيئة جدا يا صديقى ، لقد فشلت بعد ما شهدت من النجاح والاقبال على مسرحى كثيرا .. ان سباق الخيل ، ودور الملاعب « الاراجوز » ، والاعمال البهلوانية التى يتفكه بها الناس ، قد صرفت الناس عن مسرحى . ومهما قدمت لهم من مسرحيات غنائية أو هزلية ، يظل المسرح خاليا طول الليل ...

فابتأس موزار لهذا الخبر المحزن ، واستولى عليه الاسى لهذه الحال ، وكان يعرف مبلغ الاقبال الذى كانت عليه مسارح صديقه ، وما كان يتمتع به من النجاح وسعة الثراء ، حتى كان يعيش عيشة الأمراء ، ويعد فى طليعة الطبقة الراقية ، وامتد بموزار الأسى فسأل صديقه والدموع تكاد تنهمر من عينيه : « وهل هذا حقا .. اننى أكاد لا أصدق ؟ ! »

فقال شيكانيدر :

— اننى يا صديقى لا أقول الا حقا . وليس هنالك فى العالم كله الا شخص واحد يستطيع أن ينقذنى مما أنا فيه ، هو أنت يا موزار .. !

فأجاب موزار فى اشفاق وصوت حزين :

ـ أنا ؟.. كلا .. اننى لا أملك شيئا .. وأنت أعلم الناس بما أعانيه من حرمان ! ..

ـ لست أطلب منك معونة مالية ، انما أطلب معونة فنية .. انى أريد أن تلحن أوبرا خاصة لمسرحى بفينا .. وهـذا ما أراه المعونة الكافيـة لانقاذى من الفشل والديون ! ..

ـ لقد آليت بعد ما رأيت من جحود فينا ، ألا ألحن لها أوبرا ..

فبكى شيكانيدر ، وأقبل على موزار والدموع تنهمر من عينيه ، ووضع يده على كتفه ، وقال :

ـ يا عزيزى موزار .. انى أعهد فيك العطف والمودة والوفاء .. واذا تخليت أنت عنى فى هذا الوقت العصيب ، فمن ذا الذى أطمع فى نجدته ؟ !

فتأثر موزار من هذا القول ، ومما رأى صديقه فيه من حال بائسة ، وكان طيب النفس ، مرهف الاحساس .. فسأل شيكانيدر :

ـ كيف تريد أن تكون هذه الاوبرا ؟..

فأجابه :

ـ أريد أن تكون أوبرا لا مثيل لها تسحر أهل فينا ، وكل من شاهدها من المدن الاخرى ، بل تكون أوبرا خالدة خلود ما لحنته فى حيـاتك من أوبرات رائعة . وسأقدم لك الموضوع بعد بضعة أيام ..

فقال موزار فى مودة وترحيب :

ـ سأحقق لك يا صديقى كل ما تريده ، وسأبذل كل جهدى لتكون أوبرا فريدة ..

فأقبل عليه شيكانيدر يضمه الى صدره ، ويقبله فى وجهه وهو يقول :

ـ انى أهنىء نفسى ، فقد أنقذت ! ..

***

وبعد نحو ثمانية أيام أقبل شيكانيدر الى موزار ، وسلمه المسرحيـة التى ألفها ليضع لها الاوبرا ، وفى اليوم الثانى من تسليمه هذه المسرحية حضر اليه ، وسأله رأيه فيها .. فابتسم موزار وقال له : « لقد قرأتها

فوجدتها كخيالات مجنون ، لا يستطيع الانسان أن يدرك كنهها ، أو يفهم لها معنى ، ولن يعرف أحداثها هل تجرى فى الارض أو تمثل فى السماء . انها مملوءة بأناس لا شخصية لهم ولا جنسية ، ومناظر يتداخل الواحد منها فى الآخر بلا نظام أو ترتيب مفهوم » (١)

فقاطعه شيكانيدر قائلا :

ــ أليس فى كل هذا ما يوقظ قوة الخيال فى الجمهور ، ويثير عجبهم ودهشتهم .. وما رأيك فى روعة النظم ؟ ..

فأجاب موزار فى تهكم شديد :

ــ حقا .. ان النظم رائع .. انظر الى قولك فيه : « المرأة تعمل قليلا ، وتتكلم كثيرا » .. أيها الصبى هل سمعت بدمية تتكلم ! ..

ــ صدقنى يا موزار ، وأنا خبير بشئون المسرح ، عالم بذوق أهل فينا ان هذا خير ما يتفق وذوق العصر الذى نعيش فيه ، وسوف ترانا نستولى على حس الجمهور وسمعه

ــ والزوجان اللذان نصفهما انسان ، ونصفهما طائر ، كيف يظلان فى ديالوج كامل ، لا يغنيان الا مقطعا واحدا هو : بابا .. بابا .. بابا .. الخ ؟

ــ أليس فى هذا ابتكار منقطع النظير ؟ .. وتجديد لم يره الجمهور من قبل ؟ ..

ولما وجد موزار أن حواره مع شيكانيدر فى هذا الشأن غير مجد طوى حواره معه ، وأبدى موافقته على تلحين الاوبرا ، وختم الحديث بقوله :

ــ سألحن لك المسرحية ، ولو اننى سأضحك من نفسى أثناء التلحين !

***

وأقبل موزار على تلحين أوبرا « الناى الساحر » بما أعطى من موهبة ونبوغ ، وكان شيكانيدر يزوره من وقت لآخر ، ويستمع الى ما أنجزه من تلحين ، وقد يتدخل فى تعديل بعض الالحان أو يطلب اليه تبديلها بحجة انها لا تتفق وعقلية الجمهور ، وكان يقول له :

(١) عن كتاب موزار للدكتور محمود الحفنى

ـ نريد أن يستمتع الجمهور باللحن ، لا أن يفكر فيه ، ولا بد أن نستهوى عواطفه وحواسه ونكسبها .. ياعزيزى موزار .. قدم الى الناس ما يشتهونه وما يستطيعون قبوله ويدفعهم الى الاقبال عليه . ان شعب فينا شعب مرح ميال الى الفكاهة والتسلية والسمر ، فاذا فكر لا يميل الى التفكير العميق

فقال له موزار ، وهو ينكر عليه امتهان الفن وخروجه على رسالته :

ـ ان للفن ياشيكانيدر رسالة أشرف من ذلك . يجب أن يرقى الفن بالشعب ، لا أن ينزل اليه ، ويتخذ وسيلة للكسب والاستغلال . ويجب أن يسمو الفنان بفنه الى منازل الحقيقة والخلود

قال شيكانيدر :

ـ أعرف ذلك يا موزار حق المعرفة ، وأعلم أن للفن رسالة شريفة .. ولكن ينبغى أن نقود النـاس فى هوادة ، وأن يكون ارشـادنا لهم الى حقيقة الفن بالتدريج .. الفنان يا موزار كالطبيب يصف دواء مريرا ، ولكنه مفيد يتعاطاه نقطة نقطة ، فان زادت الجرعة انقلبت النتيجة الى عكسها ، وفضل المريض الداء على مرارة الدواء . فما بالك لا تريد أن يتجرع الشعب كأسا فكأسا ، وتريد أن يتعاطى الزجاجة كلها دفعة واحدة انك اذن تحمله ما لا طاقة له به

وكان شيكانيدر يسترسل فى اقناع موزار قائلا :

ـ خفف يا موزار من غلوائك ، وابعد عن خاطرك التفكير فى القيصر والبلاط ، والاوبرات الايطالية ، فقد تبينت ان هذا الطريق لا يزيدك الا فشلا . واتجه الى الشعب ، وفكر فيه وحده ، واكتب له تأليفا من الالحان يجمع بين الحقيقة والجمال ، ويناسب عقليته وذوقه . ولقد تعمدت أن يكون موضوع الرواية شيئا غريبا ، حتى يحرك قوة الخيال فى الجمهور ، اذ انه كلما كان الموضوع مألوفا للناس ، لا يغذى خيـالهم ولا يثـير دهشتهم كان ذلك أدعى للفشل

استمع موزار فى النهاية الى صديقه شيكانيدر ، وكأنه فى حلم ، ونزل

على رأيه فى تبسيط التلحين مع الاحتفاظ بعلو الفن ، وما امتاز به موزار من عبقرية مكنته من أن يرضى رسالة الفن ، وأذواق الجماهير ..

***

كانت أوبرا « الناى الساحر » هى آخر أوبرا مسرحية لحنها للناس .. ثم كان اللحن الجنائزى أو قداس الحداد ، وهو آخر ما ألفه وهو على فراش المرض لذلك الرسول الذى بعثه « الكونت فالسيج » قبيل وفاته ليظفر منه بلحن ينتحله لنفسه كما كانت عادته مع بعض الفنانين .. وكان موزار حين جاءه الرسول يعرض عليه مكافأة هذا اللحن فى ضنك شديد ، ولكنه رأى فيه معونة غير منتظرة فى وقت حالك ، لولا انه شعر بانقباض فى نفسه بعد انصراف ذلك الرسول المتنكر

وكان وقتئذ معتزلا الناس ، عاكفا على العمل لفنه .. ولقد أثر ذلك فى صحته ، فأخذ جسمه فى النحول والهزال . وزاد من ضعف صحته سوء حالته النفسية ، وشعوره المرير بعدم فهم الناس له ، وتقديرهم لفنه ، فلقد أهدى الى الناس أعمالا خالدة ، وهو مع ذلك محسود محروم . ولقد وجد موزار فى القيام بهذا اللحن فرصة سانحة ليودع فيه كل آلامه من الحياة ، ومن متاعب الدنيا ، ويتجه الى الله بالاخلاص والتضرع اليه فيما يصوغه من الالحان فى هذا القداس الدينى

أقبل موزار على تلحين « قداس الحداد » ، وأودع فيه كل ما يشعر به من أشجان ، وابتهالات وضراعة الى الله ، ووصف لما فى هذه الحياة من شقاء ، وما يستقبله الانسان فى حياته الأخرى من سعادة ونعيم . وبذل فيه جهدا زاد من ضعف صحته وآلامه ، فشعر بهبوط مطرد فى قواه واقتراب من نهايته ، فقال : « أحس انى أكتب هذا القداس لنفسى »

ولكنه كان كبير الحرص على انجاز هذا القداس ، فواصل العمل فيه ليلا ونهارا . وعبثا حاولت زوجته « كونستانسه » أن تصرفه عن هذا المجهود المضنى احتفاظا بالبقية الباقية من حياته ، ولكنه كان يحس برغبة ملحة فى انجاز القداس . وكانت هذه الرغبة تتضاعف كل يوم حبا فى أن

يكون هذا اللحن الجنائزى آخر ما يتقرب به الى الله

وفرغ موزار من تأليف « قداس الحداد » فاستدعى طائفة من أصدقائه وتلاميذه لالقائه .. فحضروا ، وقاموا بأداء ألحانه عزفا وغناء ، وكان موزار يغنى معهم ممسكا ورقة بيده يقرأ منها ، وكان تلميذه «زيسماير» يعزف على « البيان » . وبينما الجميع منشغلون بالأداء خارت قوى الفنان ، وسقطت الورقة من يده ، ولم يعد فى استطاعته متابعتهم .. !

كان ذلك فى يوم ٤ ديسمبر عام ١٧٩١ م ، ونقل الى فراشه منهوك القوى وكأنما هو هيكل أو دمية جامدة . وقد أخذ يهذى وهو على فراش الموت ، ثم ينظر الى ساعته ، ويقول :

ـ الآن يرفع الستار .. الآن يجتازون النار سالمين على أنغام النـاى السحرى ..

واذ تنبه قليلا رأى شقيقة زوجته قد أقبلت لزيارته ، فقال لها :

ـ أقيمى عندنا الليلة ، فهى آخر ليلة فى حياتى ...

واشتدت الحال ، وأخذ يعانى سكرات الموت ، وعاده الطبيب غير مرة ، ولكنه عجز عن علاجه ، وفاضت روح موزار فى الساعة الاولى من صباح ٥ ديسمبر عام ١٧٩١ م

واجتمع أصدقاؤه وتلاميذه لتشييع جنازته فى يوم ٦ ديسمبر . ولما خرجوا به الى القبر تلبد الجو وأومض البرق وعصفت رياح شديدة وهطل مطر غزير ، فعاد المشيعون أدراجهم الى بيوتهم ، ولم يقو على تشييع جنازته غير خمسة من أصدقائه . كان من بينهم تلميذه المخلص «زيسماير» ولكن هؤلاء حال بينهم وبين ملازمة الجثمان الى القبر طول الطريق ، وازدياد العواصف والامطار ، فاضطروا مكرهين الى العودة ، ومضى الحوذى بمركبة الموتى وفيها الجثمان بلا مشيع ولا رفيق ، فما كان من الحوذى الذى أراد اختصار الطريق الا أن مضى بالجثمان الى مقابر الصدقة ، وفى حفرة مجهولة بين موتى مجهولين دفن أكبر عبقرية موسيقية عرفها سائر العالم

لودفيج فان بيتهوفن

الموسيقى الفنان الالمانى

واشتدت العلة بالفنان النابغ ، واجتمعت عليه آلام الداء الوبيل الذى احتل رئته ، وأصابه بضعف شديد ، وآلامه النفسية التى كان يعانيها من سيرة ابن أخيه « شارل » السكير السيء الخلق الذى مات والده ، وتركه لبيتهوفن يعوله ويصلح فيه ما أفسده الدهر ، بلا أمل فى اصلاحه ، ولا فائدة فى اعالته والصرف عليه ، وكان يضطر فى كثير من الاحيان للذهاب بنفسه لينتزعه من احدى الحانات فى الاحياء الحقيرة ، فيهب هذا الشاب الفاسد فى وجه عمه صائحا :

ـ فلتذهب الى الجحيم أيها الاصم العجوز .. انك قذر دميم بخيل ، وأنا أخجل أن أراك أو أسير معك .. !

وكان بيتهوفن الذى لا تصل هذه الشتائم الى سمعه لفقده اياه ، منذ كان فى السادسة والعشرين ، يبتسم للشاب فى عطف وحنان ..

وذات يوم حاول « شـارل » الانتحار ، فكان ألم عمه عظيما . وقال والدموع تترقرق فى عينيه :

ـ اننى كنت أعتبره كابنى تماما .. أما وقد حاول الانتحار ، فهذا يعنى انه لا يحبنى .. !

وبلغ الفنان سن الخمسين ، وهو فى هذه الحال البائسة الكئيبة . وعلى الرغم من همومه ، ومتاعبه الشديدة ، فقد كتب أروع « سوناتاته » وهى رقم ١٠٦ ، وحينما لم يجد معه من المال ما يكفى لنسخها ، كتب الى أحد الناشرين يقول له :

ـ لقد ألفت هذه القطعة فى ظروف مؤلمة جدا لو عرفتها لدهشت من اننى لا زلت أستطيع التأليف .. حقا كم يصعب على الفنان أن يؤلف لقاء كسرة من الخبز يقيم بها أوده .. تلك ياعزيزى هى حالتى ! ..

***

وكان قبل ذلك فى عام ١٨٠٢ م ، قد وصل به اليأس من حاله الى درجة فكر معها فى الانتحار ، ودفعته الى كتابة وثيقة تعرف بالوصية . قال فيها :

« يا من تنظرون الى ، وتزعمون انى ناقم على الناس ، لشد ما تظلموننى انكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يجعلنى فى نظركم بهذا المظهر . لقد كان عقلى وقلبى منذ الطفولة متجهين نحو عاطفة رقيقة جميلة هى الطيبة . وكنت دائما مستعدا لأن أقوم بأعمال عظيمة . ولكن صممى الذى مضى عليه عدة سنوات ، والذى زاد من خطره جهل الأطباء هو سبب آلامى وشقائى ... وما زلت أخدع فى أمر تلك العاهة عاما بعد عام أملا فى زوالها ، ولكننى مرغم الآن على احتمالها كمرض مزمن ! ..

« لقد ولدت ذا مزاج حاد ، وبى رغبة شديدة للحياة ومباهجها .. ميالا الى الاختلاط بالناس . ولكننى وجدت نفسى مضطرا الى الانطواء والعزلة .. وكثيرا ما حاولت التغلب على ذلك ، ولكن التجربة القاسية كانت تصدمنى وتجدد الشعور بمرضى ، لاننى أخجل أن أقول لأحد : تكلم بصوت عال .. اصرخ فانى اصم ! ..

« وكيف أجرؤ على اذاعة ضعف حاسة كان يجدر أن تكون عندى أقوى مما هى عند الآخرين .. لقد حرمت من الاجتماع بالناس ، ومن المحادثات اللطيفة ، والعطف المتبادل ، وهكذا حكم على أن أبقى وحيدا :

« لقد خاب أملى فى عودة سمعى ، ويئست حتى كدت أن أشرع فى الانتحار ، ولكنه الفن وحده استبقانى . وقد وضح لى أنه من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم الرسالة التى أحس اننى مطالب بأدائها ، فأرجو ألا تلين قناتى أو تضعف عزيمتى ! ..

« اننى لن أطلب الموت ، وان كنت أجد فيه راحتى .. أما اذا جاءنى ، فسوف أواجهه فى شجاعة . وداعا أهل الارض واذكرونى بعد موتى ، فأنا جدير بكم »

***

وفى بداية ربيع عام ١٨١٥ ، أصبح صمم الموسيقار العظيم تاما . وبذلك دفن بدنه عن الناس ــ دون فنه ــ فى قبر من السكون والعزلة ، وأصبح ينظر فى فزع الى هذا الكون العجيب الذى يفتح فيه الناس أفواههم دون أن يسمع منهم شيئا ، وصار هزيم الرعد لا ينفذ الى أذنيه

ووقعت الطامة الكبرى حينما أراد الفنان على الرغم من صممه أن يقود الاوركسترا بنفسه عند عرض « أوبرا فيدليو » ، فقد عرف الجمهور منذ بداية الفصل الاول للأوبرا أن مؤلفها لا يسمع شيئا ، فأصبح الاوركسترا الذى يتبع عصاه فى واد والمغنون على المسرح فى واد آخر !.. وبدا واضحا ان الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال ، ومع هذا لم يجرؤ أحد على أن ينبه المؤلف العظيم الى ذلك . وأخذ بيتهوفن يتلفت يمنة ويسرة عسى أن يفهم من تعبير الوجوه المحيطة به من كل جانب ما يبعث الطمأنينة الى قلبــه غير أنه وجد الصمت التــام يلف المسرح كله بأكمله . ونادى بيتهوفن على صديقه المخلص شندلر ومد له قلمه ومفكرته وأشار اليه أن يكتب . وخطت يد شندلر وهى ترتجف هذه الكلمات : « أتوسل اليك ألا تستمر فى القيادة .. سأوضح لك السبب فى المنزل »

فقال الفنان وهو يئن من شدة الألم :

ــ اذن هذه هى المسألة .. لقد فهمت ! ..

وبقفزة واحدة أصبح بيتهوفن خارج المسرح !.. وحينما لحق به شندلر فى غرفته وجده ملقى على سريره يضرب أذنيه بقبضتى يديه . وكتب شندلر فى مذكراته يقول : « لم ينطق بيتهوفن بكلمة واحدة طيلة تناولنا العشاء . ان هذا الحادث المؤلم قد أصاب قلبه بضربة أثرت فيه تأثيرا جارحا حتى آخر رمق فى حياته ! .. »

واختفى بيتهوفن بعد ذلك فترة طويلة ، ولم يعد أصدقاؤه يسمعون عنه شيئا ، وقليلون هم الذين كانوا يعرفون انه كان يؤلف وقتئذ أعظم عملين موسيقيين فى العالم : « السيمفونية التاسعة والاخيرة » ، و « القداس الحزين » . وفى السابع من مايو عام ١٨٢٤ ، فى الساعة المحددة للحفل ، تذكر بيتهوفن انه لا يملك حلة سوداء مناسبة ، فقال لأحد أصدقائه : « سوف أرتدى حلة خضراء .. ان المسرح سيكون مظلما ولن يلاحظ أحد ذلك ! » . وحينما وصل الى المسرح حاملا مخطوطه الموسيقى للسيمفونية التى استغرق تأليفها أكثر من ست سنوات ، أفسح له الموسيقيون مكانا بينهم ، فجلس الفنان مطأطىء الرأس وهو لا يسمع شيئا من سيمفونيته الخالدة التى قال عنها نيتشه : « لقد خلق العالم ليستمع الى سيمفونية بيتهوفن التاسعة ! » . وعند انتهاء العزف لاحظ بيتهوفن أن الدموع تترقرق فى أعين بعض العازفين . وفجأة أمسك به قائد الاوركسترا أوملوف من ذراعه وأداره تجاه الجمهور . كان الفنان لا يسمع شيئا ولكنه رأى جمهورا لا يحصى من الرجال والنساء يشير اليه ويصفق له فى حماس منقطع النظير . وترقرقت الدموع فى عينى الفنان العظيم !.. وعند نهاية الحفل ، علم بيتهوفن أن دخله الصافى لم يعد مبلغا تافها .. لقد بلغ ثلاثمائة فلورين ، فقال وهو يكاد يئن من الألم : « رباه !.. ان هذا مستحيل .. »

***

وعادت حياة الفنان بعد ذلك الى ما كانت عليه : الفقر والمشاجرات مع ابن أخيه . وفى ربيع عام ١٨٢٦ لجأ الى مزرعة أخيه جوهان طلبا لبعض الراحة والهدوء . وذات يوم من أيام نوفمبر استدعته مشكلة عاجلة للعودة الى فينا : ان الشرطة تريد أن تطرد شارل من العاصمة لاستهتاره وانحلال خلقه . وأسرع بيتهوفن ليتوسط للشاب لدى السلطات ، فسافر ــ وكان الجليد وقتئذ يتساقط ــ فى عربة بائع للالبان !.. واضطر الفنان أن يقضى الليل فى احدى الحانات فى البرد القارس على الطريق ، فلما كان اليوم التالى وصل الى فينا مصطك الاسنان وهو يبصق الدم فى منديله . ولزم

بيتهوفن الفراش وهو يتنفس فى ضيق ، ومع هذا لم يجد ابن أخيه داعيا لاخطار الطبيب !..

وصادف أن توجه الدكتور فافروخ لزيارته فوجد الفنان مصابا فى رئته اصابة خطيرة . وفى الخامس من يناير عام ١٨٢٧ ، أوصى بيتهوفن بكل ما يملكه لابن أخيه . كان الفنان فى حالة شديدة من الضعف ، غير أن جسمه القوى كان فى صراع شديد مع الموت . وفى العشرين من مارس تمتم بيتهوفن يقول لصديقه هيلر عازف البيانو :

ـ قريبا جدا سوف أقوم بقفزتى يا هيلر ! ..

ولم تمض ثلاثة أيام ، حتى رأى الدكتور فافروخ أن من واجبه أن يخطر المريض بأن ساعته الاخيرة قد دنت ، فتلقى الفنان هذا الخبر وكأنه سيزيح عنه الآلام جميعا !.. وجاء القسيس ، ولما انتهى من الطقوس الدينية الاخيرة ، التفت بيتهوفن الى أصدقائه وقال عبارته الاخيرة :

« والآن ، صفقوا أيها السادة ، فقد انتهت المهزلة ! .. »

وفى السادس والعشرين من مايو عام ١٨٢٧ م بدأ الاحتضار الرهيب . وفى الساعة الخامسة مساء ، هبَّت على المدينة عاصفة ثلجية عنيفة ، وكأنما أرادت الطبيعة أن تودع رجلها العظيم الذى غنى ألحانها فى رجولة وقوة ! .. ونفذ قصف الرعد من خلال جدران الغرفة ، فسمعه بيتهوفن فى هذه اللحظة ! وشدد الفنان المحتضر قبضة يده اليمنى ورفعها عاليا ثم تركها تهوى الى جانبه فى سكون .. لقد سكنت اليد التى تركت للانسانية أعظم ما ألَّف فى تاريخها من ألحان ، ولم يكن الى جوار صاحبها الذى يرقد على فراشه المتواضع فى غرفته الصغيرة الا صديقه هوتنبرنر ، ذلك الذى حظى بشرف اغلاق عينى الفنان الخالد الى الابد ! ..

وعبر موكب بيتهوفن مدينة فينا فى جنازة رسمية على لحن « المارش الجنائزى » من تأليفه ، وكان يسير خلف نعشه أشهر فنانى فينا وأذرعهم محملة بالورود . وقد وقف جمهور لا يعد ولا يحصى من الرجال والنساء والأطفال يبكون وينوحون ..

فهرس

صفحة

تقديم ٥
نظرات فى الحياة والموت ١٤
لماذا نخاف الموت ؟ ٢١
الحب والموت ٢٦

الباب الاول : نوابغ من الشرق

الفصل الاول : النبى محمد ٣٤
الفصل الثانى : رجال علم ووطنية ٥١
الشيخ محمد عبده ٥٢
مصطفى كامل ٥٩
الشيخ على يوسف ٦٧
السيد توفيق البكرى ٧٥
الفصل الثالث : أديبتان من الشرق ٨٣
باحثة البادية ٨٤
الآنسة مى ٩١
الفصل الرابع : الشعراء الثلاثة ٩٩
اسماعيل صبرى ١٠٠
محمد حافظ ابراهيم ١٠٨

صفحة

أحمد شوقى ١١٥
الفصل الخامس : الشعراء الكتاب الثلاثة... .... ١٢٣
حفنى ناصف ١٢٤
مصطفى لطفى المنفلوطى ١٢٩
خليل مطران ١٣٥

الباب الثانى : نوابغ من الغرب

الفصل الاول : رجال أدب ١٤١
فيكتور هوجو ١٤٢
ادجار ألن بو ١٤٧
الكسندر بوشكين ١٥٣
ليو تولستوى ١٦٣
الفصل الثانى : رجال تصوير وموسيقى ١٧١
فنسان فان جوخ ١٧٢
ولفجانج اماديوس موزار ١٨٤

طبع
بمطابع دار الهلال